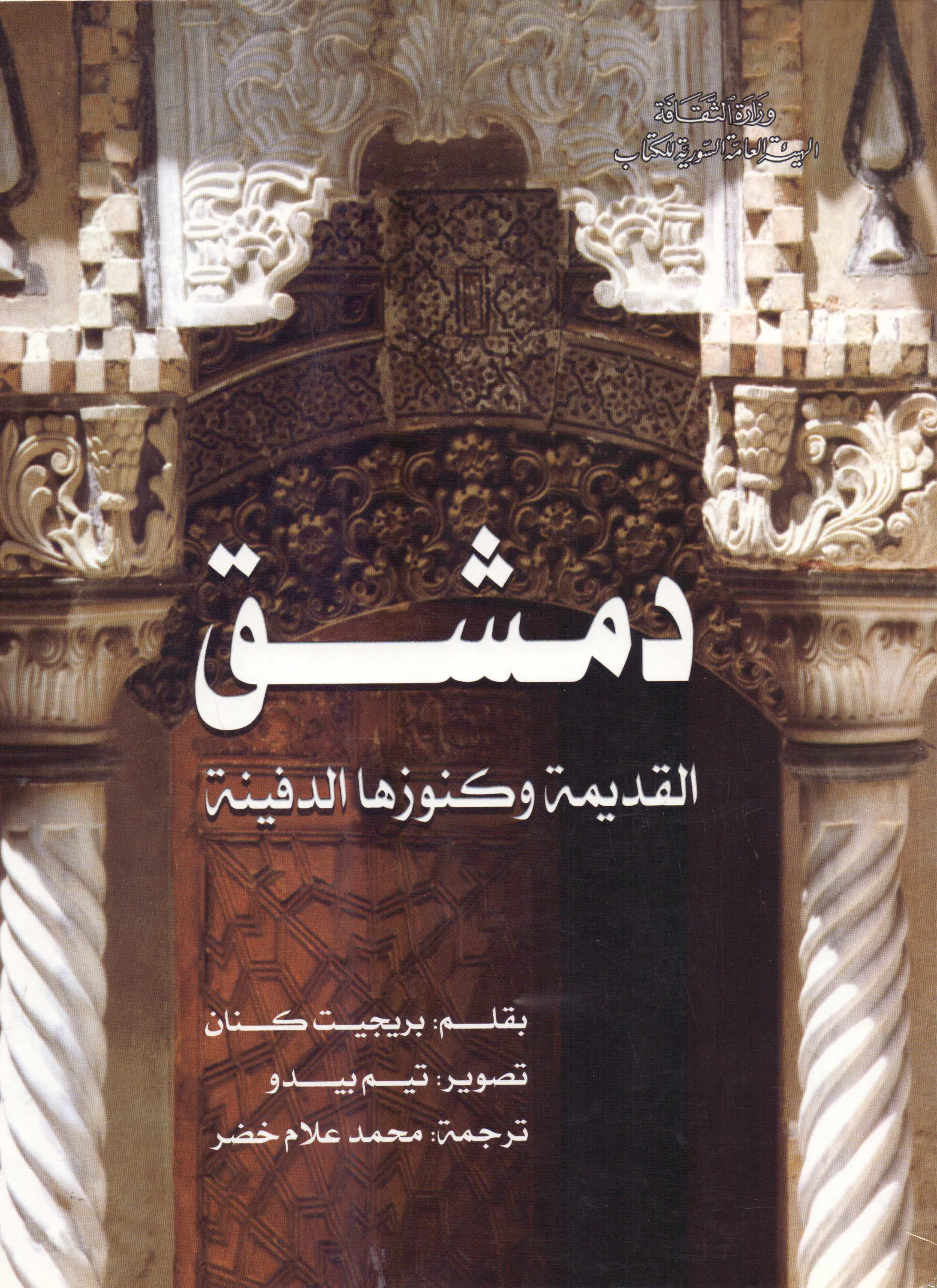


وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

دمشق
القديمة وكنوزها الدفينة

بقلم: بريجيت كنان
تصوير: تيم بيدو
ترجمة: محمد علام خضر

دمشق

القديمة وكنوزها الدفينة

بقلم: بريجيت كنان ترجمة: محمد غلام خضر

«عبر سنوات من التجول بين أزقتها وشوارعها وأسواقها الشعبية، أتيحت لـ (بريجيت كنان) فرصة التعرف على المدينة كما لم يتح لغيرها من الزوار الأجانب أن يشاهدوا. وفي كتابها الرائع، استطاعت أن تقتنص ما تتميز به الأماكن التي تزورها من نكهة خاصة لتنقلها مخطوطة على صفحات كتابها. إن دمشق تستحق أن تكون مقدمة رائعة لواحدة من أعرق وأكثر المدن القديمة إثارة بفضل حيويتها المفعمة وما توفره من متعة للعقل والروح». (ويليام دالريمبل)

«تكريم رائع طال انتظاره لواحدة من أكثر المدن الإسلامية سحرا وروعة». (كولن ثيوبرون)

«كتاب ممتاز.. غني بمحتوياته». (صاندي تايمز)

تتمتع دمشق المعروفة بأنها أقدم مدينة مأهولة في العالم بتاريخ عظيم ونفوذ سياسي وتجاري كبيرين وانجازات ثقافية وفنية رائعة. كما تتباهى دمشق بما فيها من أجمل فنون العمارة الإسلامية، كالجامع الأموي، بتراث عريق وقصور وبيوت خيالية في جمالها. ولكن للأسف إن عددا من هذه المباني الأثرية بات بحاجة ماسة إلى الترميم.

وقد انطلق كل من (بريجيت كنان) و(تيم بيدو) لتسجيل وحفظ هذه النفائس المعمارية التي لا تقدر بثمن وعرضها على العالم بأسره. وقد حصل كلاهما على مدخل لا سابق له إلى الجزء المخبأ من المدينة ونتج عن بحثهما كتاب قيم وذو أهمية عظيمة لكل المهتمين بالتراث المعماري في العالم الإسلامي.

يقدم نص هذا الكتاب أول الأمر الخلفية التاريخية فيصف تطور مدينة دمشق وأيامها الطيبة عبر العصور. ثم ينتقل بعدها ليقدم وصفا لفن العمارة في تلك المدينة وأسلوب الحياة فيها، ثم يختتم صفحاته بتقديم وصف للبيوت الدمشقية والناس الذين شيدوها وعاشوا فيها. أما الصور الرائعة التي يضمها الكتاب بين صفحاته فتبين واجهات بعض البيوت وباحاتها وبحراتها الفوارة وأعمال التزيين والزخرفة الداخلية المذهلة التي تختبئ وراء السور المتواضع للمدينة القديمة بتفاصيلها الزخرفية الرائعة المنفذة على الخشب والحجر والرخام والجص والزجاج والصدف.

كما كان وفيق رضا سعيد سندا كبيرا وراء نشر محتويات هذا الكتاب الذي يشكل بمجمله نداء حثيثا وحزينا للحفاظ على قلب وجوهر هذه العاصمة التاريخية العريقة.



شغلت بريجيت كنان مناصب رفيعة في أسرة تحرير كل من «صاندي تايمز» ومجلة «نوفا» و«الأوبزيرفر». وبدأت العمل كصحفية مستقلة منذ ١٩٧٧ حيث عاشت في بروكسل وترينداد وبربادوس والهند وغرب إفريقيا قبل أن تأتي إلى دمشق لتمكث فيها عدة سنوات تنهل من حياة وثقافة هذه المدينة. ومن أشهر مؤلفاتها السابقة كتاب حمل عنوان «رحلات في كشمير».

يتخصص تيم بيدو بتصوير الديكور الداخلي والرحلات ولديه اهتمام خاص بتصوير فن العمارة والتصميم المعماري. وقد أخذته مهامه السابقة إلى العمل في الصحراء الكبرى حيث أمضى عاماً كاملاً في توثيق حياة الصحراء في شرق إفريقيا. يقسم (تيم بيدو) نشاطاته حالياً بين لندن وجنوب غرب فرنسا، علماً بأنه عمل لصالح عدد من مجلات التصميم والديكور المعروفة بما فيها «الموجز المعماري» و«عالم الديكور الداخلي». ومن آخر أعماله كتاب «رحلات السفاري».



دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 00963 11 5627060
فاكس: 00963 11 5632860



دمشـــق القديمـــة

وكنوزها الدفينة

بقلـــم: بريجيت كنان

تصويـر: تيم بيدو

ترجمة: محمد علام خضر

إهداء المؤلفة

أهدي هذا الكتاب إلى

(آلن) الذي اصطحبني إلى دمشق

و(ربيع) الذي عرّفني عليها

و(نعيم) الذي جعلني جزءاً منها

ولكل من يحب مدينة دمشق القديمة

لعلَّ اهتمامي بأصالة وعراقة تراث مدينة دمشق وما تخفيه من تحف معمارية نفيسة بين حاراتها وأحيائها القديمة لم يكتمل إلا بعد أن قرأت هذا الكتاب الرائع... بل لم يكتمل عشقي «للشام القديمة» إلا بعد العمل على ترجمته، والحماس الكبير الذي لمسته من جانب المؤلفة بريجيت كنان (من خلال التواصل معها بواسطة البريد الإلكتروني) لرؤية كتابها بطبعته العربية، ورغبتها الصادقة في بث رسالة إلى أهالي دمشق للحفاظ على تراث مدينتهم...

وكل الشكر والتقدير والامتنان للهيئة العامة السورية للكتاب التي أتقنت بكل براعة إظهار هذا الكتاب بصورة جميلة تضاهي الأصل...

(المترجم)

دمشق القديمة وكنوزها الدفينة / بريجيت كنان؛ تصوير تيم بيدو؛ ترجمة محمد علام خضر . - دمشق الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١. - ٢٢٤ ص ؛ ٣٠ سم.

١-٩٥٦١١١٠،٧٢٩ ك ن ١ د   ٢- ١١١،٩٥٦

ك ن ١ د   ٣- العنوان   ٤- خضر

مكتبة الأسد

يضم الكتاب ٢١٤ صورة بما فيها ١٧١ صورة ملونة.

صورة (مقدمة الغلاف): مدخل من الرخام والحجر في باحة بيت الطيبي.

صورة (خلفية الغلاف): شجرة الحياة مزينة بالرخام المطلي بالذهب على خلفية مصب على شكل محراب. ◦ ◦

المحتويات





تمهيد

بقلم: وفيق رضا سعيد

الصورة في الصفحة السابقة: قاعة استقبال عثمانية في أسلوب تزيينها الذي يتميز بالزخرفة المفرطة (الركوك) وكأنها من عالم الخيال. تقع هذه القاعة في بيت المجلّد قبل ترميمه.

لقد نشأت وترعرعت في أحد بيوت دمشق القديمة الذي يضم باحة عربية تقليدية في طرازها كتلك البيوت المصورة في هذا الكتاب. وعندما أعود بذاكرتي للماضي أدرك مدى عبقرية ذلك المعماري الذي قام بتصميمه حين وضع نصب عينيه أهمية تكيف بناء المنزل مع المناخ الدمشقي في أقصى أحواله من برد وحرّ. ففي فصل الصيف كنا نلجأ للإقامة في الطابق الأرضي داخل غرف المعيشة التي تتميز ببرودة جوها بسبب الظلال الوافرة التي تحيط بها من كل جانب وحيث كانت تلك الغرف مفتوحة على حديقة باحة المنزل (أرض الديار)، مما يجعل عبق الياسمين والورود يتغلغل داخل البيت ليختلط مع رائحة القهوة الزكية المنكهة بحب الهال. كما أن أصوات النواعير الصغيرة والبحرات الفوارة جعلت الهدوء الذي يخيم على ذلك المكان الخاص الذي كان بمثابة الملاذ من قيظ شمس الصيف. أما في الشتاء، كانت حياتنا تنتقل إلى الطابق العلوي حيث كانت الغرف موزعة على النظام نفسه المتبع في الطابق الأرضي، لكنها كانت معزولة عن البرد بواسطة القضبان الخشبية التي تزين النوافذ والسجاد الجميل الذي يغطي أرضية تلك الغرف. من ناحية ثانية، كان موقع المنزل يلبي مختلف متطلبات حياة الأسرة الخاصة والعامة. وبعكس الانفتاح الشائع في الغرب في الوقت الحاضر، لم يضطر ضيوف البيوت الدمشقية إلى عبور ردهات وغرف المنزل إلا إذا كانوا من الأصدقاء المقربين. فقاعات الاستقبال (المجلس) كان لها مدخل مستقل كي يتسنى لأهل الدار الاستمتاع بالخصوصية أثناء تقديم الضيافة التي تعد من التقاليد المتوارثة في سورية.

فذلك المنزل الذي أمضيت فيه طفولتي، سواء في مساحاته الداخلية أو الخارجية المكشوفة وأجوائه الحميمية وبرودة هوائه المنعشة، قد ألهمت في نفسي شعوراً محبباً نحو فن العمارة لطالما كان قابعاً في داخلي. وفي الحقيقة لم أبصر ما هو جميل بعد أن تركت ذلك المنزل.

من المؤسف أن المرء لا يدرك قيمة الأشياء إلا بعد زوالها - وهذه حقيقة عامة نجدها في أية بقعة من بقاع العالم - فالعديد من النفائس المعمارية قد أزالتها الجرافات قبل أن يدرك الناس مدى جمالها. وبالطريقة ذاتها التي اندثر فيها عدد من البيوت الريفية الأوروبية عبر العقود القليلة الماضية سواء نتيجة الإهمال أو تبدل الأذواق، فإن العديد من البيوت القديمة في دمشق لم يُكتب لها البقاء أيضاً. ومن المؤسف حقاً أن منزل أسرتنا قد هدم أيضاً عندما حصل المالك الجديد على ترخيص لتطوير المنطقة التي يقع فيها المنزل. وهذا ما حصل أيضاً للبيوت القديمة التي تضم إلى مساحاتها باحات رائعة في معظم أرجاء الوطن العربي لأنها ببساطة لم تكن مناسبة لتطلعات القرن العشرين أو الحادي والعشرين. وإذا لم يجد هذا الطراز من البيوت العربية التقليدية استعمالات جديدة تواكب حياة العصر، فإن كل تلك المدن القديمة المكونة من بيوت أثرية مماثلة ستكون معرضة للخطر، لكن يجب ألا ننسى بأن جمال هذه المدن يعود أولاً وأخيراً إلى بيوتها القديمة.

لذلك فإن (بريجيت كنان) تثير بإلحاح في هذه الصفحات مسألة الحفاظ على هذه المدن الرائعة، وخصوصاً دمشق المحببة إلى قلبي، وتبين بأن دمشق مدينة تزخر بأشياء كثيرة تفتن ألباب سكانها وزوارها على حد سواء. فدمشق هي مدينة الأسواق والطرق التجارية التاريخية ومدينة الصحراء والغوطة ونهر بردى وأبواب دمشق والجامع الأموي. كما تحمل نسمات الهواء العليل شذا العطور والتوابل التي تكسب المدينة رائحتها المميزة. لكن من أبرز معالم دمشق هو جزؤها القديم الذي يضم بين ربوعه الدور الدمشقية العريقة التي تشكل كنوز دمشق الدفينة. وهاهو الفنان (تيم بيدو) يعرض لنا من خلال صوره الضوئية الرائعة البيت العربي التقليدي وباحته (أرض الديار) الجميلة الذي يُعدّ تحفة رائعة من الفن المعماري المحلي.

مما لاشك فيه إن هذه البيوت الموجودة في دمشق – التي تعد أقدم عاصمة مأهولة على مرّ التاريخ – تستحق مصيراً أفضل حفاظاً على تراث المدينة بدلاً من أن تدخل طي النسيان. لذا فإني أحث السلطات كي تتخذ الإجراءات المناسبة من خلال حصر تراثنا المعماري والحفاظ عليه والحيلولة دون اندثاره. ولعل هذه البيوت الدمشقية العريقة بحاجة إلى مالكين جدد قادرين على الحفاظ عليها وترميمها وإحيائها بالوجه الصحيح. وإني آمل عن طريق إبراز هذه المعالم الأثرية القيمة أن تصل هذه المعلومات إلى جمهور أوسع من خلال هذا الكتاب الذي سيساعد ولاشك على إثارة الاهتمام نحو إيجاد الظروف والوسائل الكفيلة بإبقاء تلك البيوت التاريخية وازدهارها مستقبلاً.



مقدمــة

بقلم: بريجيت كنان

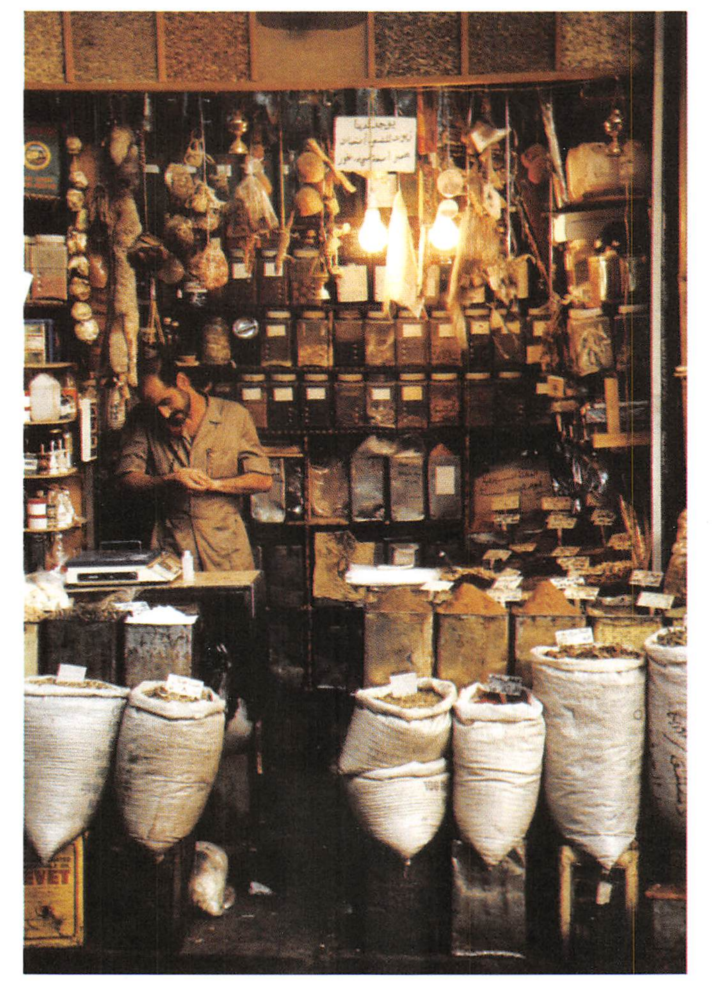
الصورة السفلية: أحد المتاجر العديدة التي تبيع الأعشاب والزهور بغرض المداواة.

الصورة في الصفحة السابقة: غرفة الطعام الرائعة المصممة على طراز القرن التاسع عشر في بيت المجلّد قبل ترميمه.

لقد ذهبت بصحبة زوجي إلى سورية عندما جرى تعيينه كدبلوماسي عام ١٩٩٣ وسرعان ما وجدت نفسي أقع في غرام مدينة دمشق كما حصل سابقاً مع (إيزابيل) زوجة القنصل البريطاني المعروف (ريتشارد بيرتون) قبل ١٢٠ سنة ونيّف. ومن الجدير بالذكر أنه بعد مغادرة السيدة (بيرتون) لسورية بفترة طويلة كان يُطرح عليها سؤال في أغلب الأحيان فيما إذا أحبت مدينة دمشق. وكان جوابها دوماً ممزوجاً بالدهشة «أحببتها!.. إن الدموع تترقرق في عيني ويخفق قلبي لمجرد سماع هذا السؤال..». فقد وصفت السيدة (بيرتون) عصر أحد الأيام الذي قضته في نزهة إلى جبل قاسيون قبل أن يتعين عليها وعلى زوجها مغادرة سورية «إنه آخر يوم سعيد في حياتي»..

أما بالنسبة لي فإني أستطيع تحديد اللحظة التي بدأ فيها قلبي يخفق حباً لمدينة دمشق حين دخلت لأول مرة إلى أحد البيوت الدمشقية الكبيرة وباحته البديعة في الجزء القديم من المدينة. كانت هذه الدار بيت المجلّد لكن يبدو بأني لم أكن مستعدة على الإطلاق لما سيقع عليه بصري حيث هزني جمال هذا المنزل الرائع. وبعد أن تناهى إلى علمي الحالة السيئة التي وصل إليها ذلك المبنى الأثري، انتابني شعور فظيع بالقلق وهرعت مسرعة إلى زوجي في محاولة مني لإقناعه بضرورة بيع منزلنا في إنكلترا من أجل إنقاذ هذا القصر الدمشقي الرائع. ولكن من حسن الحظ أن تدخل أحدهم لإنقاذ بيت المجلّد والحفاظ عليه فقررت أن أركز جهدي على تأليف هذا الكتاب أملاً بأن يقنع الآخرين بروعة دمشق القديمة التي لا مثيل لها وضرورة الحفاظ عليها.

مازال أسلوب الحياة التقليدي مستمراً في الحارات الضيقة والأسواق الشعبية المزدحمة التي يحيط بها سور دمشق القديمة، حيث يصل وقود التدفئة إلى الزبائن بواسطة صهاريج صغيرة تجرها خيول مزودة بلجام مزين بالخرز ويعلو رأسها ريش النعام. كما يشق الفتية طريقهم وسط الحشود بمنتهى الرشاقة حاملين بأيديهم أطباقاً كبيرة من الطعام قادمين بها من المطاعم المجاورة بغرض إيصالها إلى أرباب عملهم، وآخرون يدفعون أمامهم عربات صغيرة محملة بالنباتات المزروعة في صفائح معدنية قديمة تحتوي على الورد الدمشقي والعرائش من أجل



بيعها لأصحاب البيوت الدمشقية القديمة التي تزين باحاتها الداخلية عادة بتلك النباتات. كما تستطيع في دمشق القديمة أن تشرب عصير التوت الطازج أو عصير الرمان وأن تشتري أزهار البنفسج أو أزرار الورد المجفف من أجل تحضير شراب الزهورات الساخن، وتستطيع أيضاً الحصول على الفستق الحلبي الذي سيخبرك الجميع بأنه ألذ طعماً من الفستق الإيراني. وبإمكانك أكل الخبز العربي الطازج والساخن المخبوز في أفران التنور التقليدية، وبوسعك أيضاً العثور على دواء يشفي آلام المعدة في محلات تبيع هذا النوع من الأدوية العشبية حيث تجد رفوف المتجر مليئة بأوعية تحتوي على الأعشاب والمساحيق وغيرها من الوصفات الطبية بالإضافة إلى قوارير ذات فتحات واسعة

تحتوي على صغار التماسيح المجففة. أما في الشتاء بوسعك شراء ثمار الكمأة التي تنبت في الصحراء القاحلة بطريقة تشبه المعجزة والتي يُقال بأنها المن الأصلي الذي نزل من المساء.

وبوسعك مشاهدة الحرفيين يقومون بالحفر على الخشب أو تطعيمه بالصدف من أجل صنع نماذج وأشكال تزيينية رائعة، وبإمكانك أن تلمح من باب الحمام العمومي (حمام السوق) منظراً يشبه لوحات الفنانين المستشرقين التي تبين الرجال ملفوفين بالمناشف ومتكئين على دواوين طويلة يدخنون النارجيلة. أما في محلات القطع الأثرية، فقد تعثر فعلياً على أي شيء من صحون قديمة مزينة برسوم الأزهار والورود (جاءت هذه الصحون بالأصل محملة بالسفن من هولندا إلى لبنان منذ مئة عام تقريباً)، أو ميداليات تركية قديمة، أو أباريق شاي روسية، أو سجاد فارسي جميل، أو مصابيح زجاجية بوهيمية. إن البضائع الموجودة في الأسواق لا تزال تأتي إلى دمشق من كافة أنحاء العالم - التقيت في أحد الأيام برجل عجوز جاء إلى سورية قادماً من أفغانستان بواسطة الحافلات والقطارات حاملاً معه جعبة مليئة بأحجار اللازورد من أجل بيعها في أسواق دمشق القديمة. ولعل أكثر المنتجات المثيرة للفضول هي عشبة المتة المستوردة من الأرجنتين التي أول من أتى بها هم السوريون المهاجرون إلى أمريكا الجنوبية. فالمتة هي أوراق نبتة مجففة ومفرومة توضع في ماء مغلي لفترة وجيزة لتتحول إلى شاي مرّ المذاق لكنه مفيد للصحة تشربه بواسطة شاروقة (مصاصة) مزودة بمصفاة. ويبدو بأن تجارة المتة في سورية تصل قيمتها إلى عشرة ملايين دولار سنوياً.

في الحقيقة أنا لست بباحثة أو مؤرخة وهذا الكتاب لا يعد عملاً أكاديمياً بكل معنى الكلمة وإنما يهدف إلى إعطاء من لا يعرف مدينة دمشق القديمة وبيوتها التقليدية الرائعة لمحة عن الأعاجيب والنفائس المخبأة خلف جدرانها التي تكاد تكون خالية المعالم من جهتها الخارجية، بالإضافة إلى عرض خلفية موجزة من أجل طرح الموضوع على أحسن وجه.

وقبل أن أعبر عن امتناني للكثيرين الذين تكرموا بمشاطرتي خبرتهم ووقتهم، أود أن أتوجه بالشكر في المقام الأول إلى السيد وفيق رضا سعيد وما قدمه من رعاية ودعم لهذا الكتاب الذي لم يكن إنجازه ممكناً من دونه.

كما أني ممتنة جداً لما حصلت عليه من تشجيع من الدكتورة نجاح العطار، نائبة رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية ووزيرة الثقافة السابقة في سورية. وأدين أيضاً للسيد (روس بيرنز) مؤلف كتاب «آثار سورية» - الذي لم نستغن عنه أبداً خلال خمس سنوات ونصف من فترة وجودنا في سورية - لتطوعه في إعداد بعض الخرائط الموجودة في هذا الكتاب، علماً بأن السيد (بيرنز) كان سفير أوستراليا لدى سورية في الثمانينات عندما بدأ العمل في معجمه الجغرافي الرائع عن سورية ثم أنجزه في كانبيرا خلال فترة تعيينه هناك. كما أدين من أعماقي لـ (ستيفان ويبر) من المعهد الألماني لعلوم الآثار بدمشق لما شاطره معي من أبحاثه الأصلية وكان صبوراً في توجيهي وإرشادي في إعداد هذا الكتاب. وأود أن أشكر أيضاً كل من الدكتور (سلطان محسن)، المدير العام لمديرية الآثار والمتاحف في سورية والموظفين التابعين له، بمن فيهم السيدة (سراب أتاسي)، و(ميشيل نيتو) من المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق وذلك عرفاناً مني لهم للمعلومات الكثيرة التي زودوني بها. كما أعبر عن امتناني للدكتور (بيتر كلارك) الذي كان يعمل سابقاً في المركز الثقافي البريطاني في دمشق لقاء ترجمته لقصيدة «رسالة لأمي» للشاعر نزار قباني فضلاً عن غيرها من المساعدة والنصائح. وأتوجه بالشكر للبروفيسور (طلال عقيلي)، عميد كلية هندسة العمارة في جامعة دمشق، كما أعبر عن امتناني لكل من (أسعد مهنا) مدير لجنة دمشق القديمة، والخبير في شؤون ترميم البيوت القديمة المهندس المعماري (نعيم ظابطة) و(جيف سبر) من مكتبة الفنون الجميلة بجامعة هارفارد الذي كرس جزءاً كبيراً من وقته لمساعدتي و(بيدير) و(إينغ مورتنسن) من المعهد الثقافي الدانمركي بدمشق و(فاتح درويش) الذي اصطحبني لأول مرة لزيارة بيت المجلد و(ماري إس. لوفيل) للصور التي قدمتها عن آل (بيرتون) وعبد القادر الجزائري والدكتور (صباح قباني) والدكتور (جيوفري كينغ) والدكتور (فيليب مانسيل) والدكتورة (جوليان رابي) والدكتورة (ناديا خوست) و(مروان مسلماني) والدكتورة (أم الخير العظم) والسيد (زياد العظم) و(أميرة أمل الجزائري) و(مايكل إن. برايس) و(كيت كراو) من وزارة الخارجية البريطانية، والسير (جيمس كريغ) والسير (ريتشارد بيومون) و(جيهان طارق) والبروفيسور (جون كارسويل) والبروفيسور (توماس فيليب) و(كولين ثيوبرون) و(جيسون غودوين) و(إدوارد جيبس) والدكتور (غلين ماركو) من متحف سينسيناتي للفنون و(ي. ماكسينبرونز) من جامعة بيترسبرغ و)جوان آروز) من متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك و(إيلين باول) من وكالة أسوشيتد بريس والدكتور الراحل (نسيب صليبي) و(بسام غراوي) والدكتورة (رنا قباني) و(كرمة قباني) و(باتريك سيل) و(حسناء مردم بيك) و(أنطوان توما) و(كارول روس) و(سونيا قشيشو) و(ربيع الدرة) و(أليكس كراستر) و(حنا نحاس) و(نزيه كواكبي) و(مارييك بوسمان) و(كاثرين رو) و(مايا معمر باشي) و(كينلين فيرن) من مركز لورنس لخدمات المعلومات.

كما أود أن أشكر أصحاب البيوت الذين سمحوا لي «بغزو» خصوصياتهم، وعلى وجه التحديد (نورا جنبلاط) والشيخة (حصة الصباح) و(علي شيرازي) و)حكمت شطه) وعائلة (مردم بيك).

وأخيرا أود أن أتوجه بالشكر إلى زوجي لمحبته وتشجيعه المستمر طوال فترة هذا المشروع.

الصورة في الصفحة المقابلة: : في الأزقة الضيقة من المدينة القديمة تكاد البيوت تلامس بعضها البعض.





الجزء الأول

دمشق المدينة المقدسة والعلمانية

«.. لم يُسجَل حدث في العالم إلا وكانت دمشق حاضرة تتلقى أخباره. فمهما رجعت بذاكرتك إلى الماضي السحيق، فستجد بأن دمشق كانت دوماً قائمة. فالسنوات بالنسبة لدمشق ليست سوى لحظات، وعقود الزمن تمر كلمح البصر. فدمشق لا تقيس الوقت بالأيام والشهور والسنين وإنما بالإمبراطوريات التي شهدت قيامها وازدهارها ومن ثم انحطاطها وفناءها. دمشق شكل من أشكال الخلود.. فقد شهدت قيام بلاد الإغريق وازدهارها منذ ألفي سنة كما شهدت نهايتها. وشهد تاريخها القديم أيضاً بناء الإمبراطورية الرومانية وكيف ألقت بظلها على العالم بواسطة قوتها ثم شهدت فناءها.. لقد قلبت دمشق النظر في رفات أهالي ألف إمبراطورية وستشهد أيضاً قبور ألف إمبراطورية أخرى قبل أن تندثر وتفنى.»

مارك توين «الأبرياء خارج البلاد» ١٨٦٩

يُقال بأن دمشق هي أقدم مدينة مأهولة على وجه الأرض ولعل هذا ما يجعلها أغنى موقع أثري في العالم لم يتم التنقيب عن آثاره كلها حتى الآن. لم يتمكن أحد على الإطلاق من استكشاف ما يوجد تحت أرض هذه المدينة لأنها كانت مأهولة باستمرار. فأسرار دمشق مدفونة تحت الأرض بعمق مترين ونصف (٨ أقدام) من التراب والأنقاض التي ساهم في وضع كل طبقة من طبقاتها كل حاكم وكل حضارة نشأت على أرضها. وفي كل مرة تقريباً يقوم فيها العمال بحفر أرض أزقتها وحاراتها لإصلاح أحد الكبلات أو مواسير المياه يتم العثور على حجر أو جدار أثري. فعندما جرى تنفيذ بعض الإصلاحات تحت سطح الأرض في الشارع المستقيم في الأربعينيات، تم اكتشاف قنطرة ثلاثية رومانية فجرى رفعها ونصبها مجدداً كما نراها اليوم. وعندما بدأ الحفر أيضاً في منطقة مجاورة لوضع أساسات مبنى جديد في الستينيات تم اكتشاف أربعة أعمدة من رواق روماني معمّد.

أما أعمال الحفريات الوحيدة المنظمة فتجري حالياً في موقع سوق الصاغة الذي احترق بأكمله في الستينيات حيث اكتشف علماء الآثار

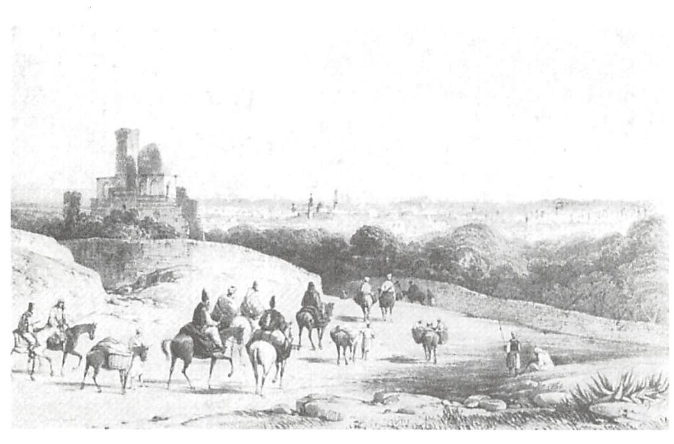


الصورة المقابلة: الجامع الأموي. مئذنة العروس والفسيفساء على قبة الخزينة.

الصورة في الأعلى: قاعة استقبال في بيت اليوسف تظهر روعة أعمال الرسم والحفر والتذهيب لكنها بحاجة للترميم.

قاعدة لمبنى روماني تحت جدران متصالبة مع بعضها شيّدت في فترة لاحقة.

تتوسط دمشق موقعاً بين جبال لبنان من جهة وصحراء ممتدة لآلاف الأميال وصولاً إلى المحيط الهندي من جهة أخرى. يصف (روس بيرنز) مؤلف كتاب «آثار سورية» مدينة دمشق بأنها «المرفأ والموطئ الطبيعي الأول لمسافري الصحراء». لقد نشأت المدينة في هذا الموقع بسبب وجود نهر بردى الذي ينبع من الجبال بمسافة تبعد عن المدينة



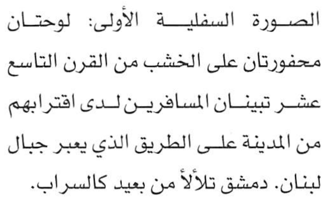
الصورة المقابلة: منظر لمدينة دمشق رسم عام ١٦٦٨ يظهر سور المدينة والنهر الذي يتدفق عبرها.

الصورة في الأعلى: رسم محفور على الخشب يعود إلى القرن التاسع عشر يصور مجموعة من المسافرين يقتربون من مدينة دمشق.

١١ كم (سبعة أميال)، ثم يعبر السهل مشكلاً بذلك واحة ضخمة تعرف باسم الغوطة، وهي رقعة خضراء يصل عرضها إلى ٥٠ كم (٣٠ ميل) تقريباً وسط رمال الصحراء. وهناك بعض التلال التي خلفتها مستوطنات عديدة في الغوطة تعود إلى فترة ما قبل التاريخ لكن دمشق هي الوحيدة التي حافظت على بقائها واستمرار تطورها والسبب في ذلك على الأرجح هو نهر بردى. عندما زار (مارك توين) مدينة دمشق عام ١٨٦٧ قال عنها «لا يمكن لدمشق أن تفنى طالما المياه تجري فيها وستبقى حية لدهور طويلة..». ففي العصور القديمة تمكن الآراميون والإغريق والرومان من تطويع نهر بردى وتوزيعه إلى جداول وقنوات لا تغذي الحدائق المزروعة في تلك الواحة فحسب بل كانت تمد منازل وبيوت المدينة نفسها بالماء. فكل من زار مدينة دمشق أدهشه نظام إمداد الماء المعقد فيها. وقد أشار (المقدسي)، وهو عالم جغرافي عربي، عام ٩٨٥ ميلادية بقوله «إن دمشق مدينة تتشابك فيها جداول الماء التي تحيط بها الأشجار من كل جانب. فالأسعار في هذه المدينة معتدلة وأسواقها عامرة بالفواكه والثمار ومنتجات المناخين البارد والحار. وفي الحقيقة فإن الحمامات الساخنة الرائعة والبحرات الفوارة الجميلة ليس لها مثيل في العالم بأسره..».

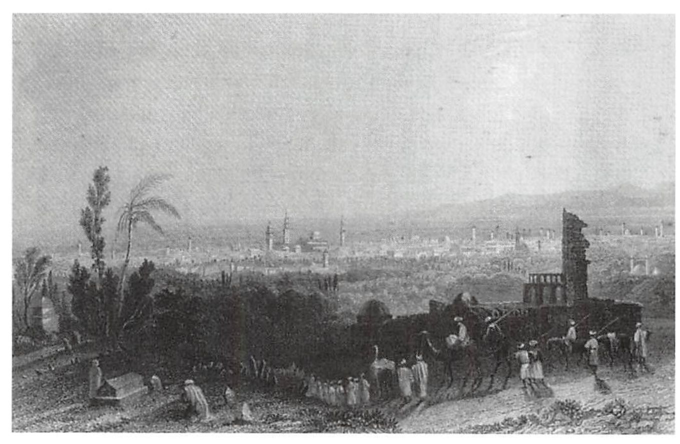
وبعد مضي حوالي ٨٥٠ سنة تقريباً عبر المؤرخ والرحالة البريطاني (الكسندر كينغليك) عن الفكرة ذاتها بطريقة أكثر تفصيلاً بقوله «إن إكسير حياة دمشق هو سيل الماء البارد المتدفق من السفوح التي تغطيها الثلوج في جبال لبنان. وبالقرب من ضفة النهر وعلى امتداد سبعة أميال من الظل الناتج عن كثافة الأغصان المتشابكة تنتشر المدينة بأكملها. وكرجل يستلقي على الأرض ووجهه نحو غدير الماء يشرب منه، فإن دمشق أيضاً تشعر دائماً بالظمأ وتمد شفتيها إلى جدول الماء وتنهل من مياهه المتدفقة».


DAMASCUS
in Syrien
Volgens de Afteeckening gedaen int Iaer 1668

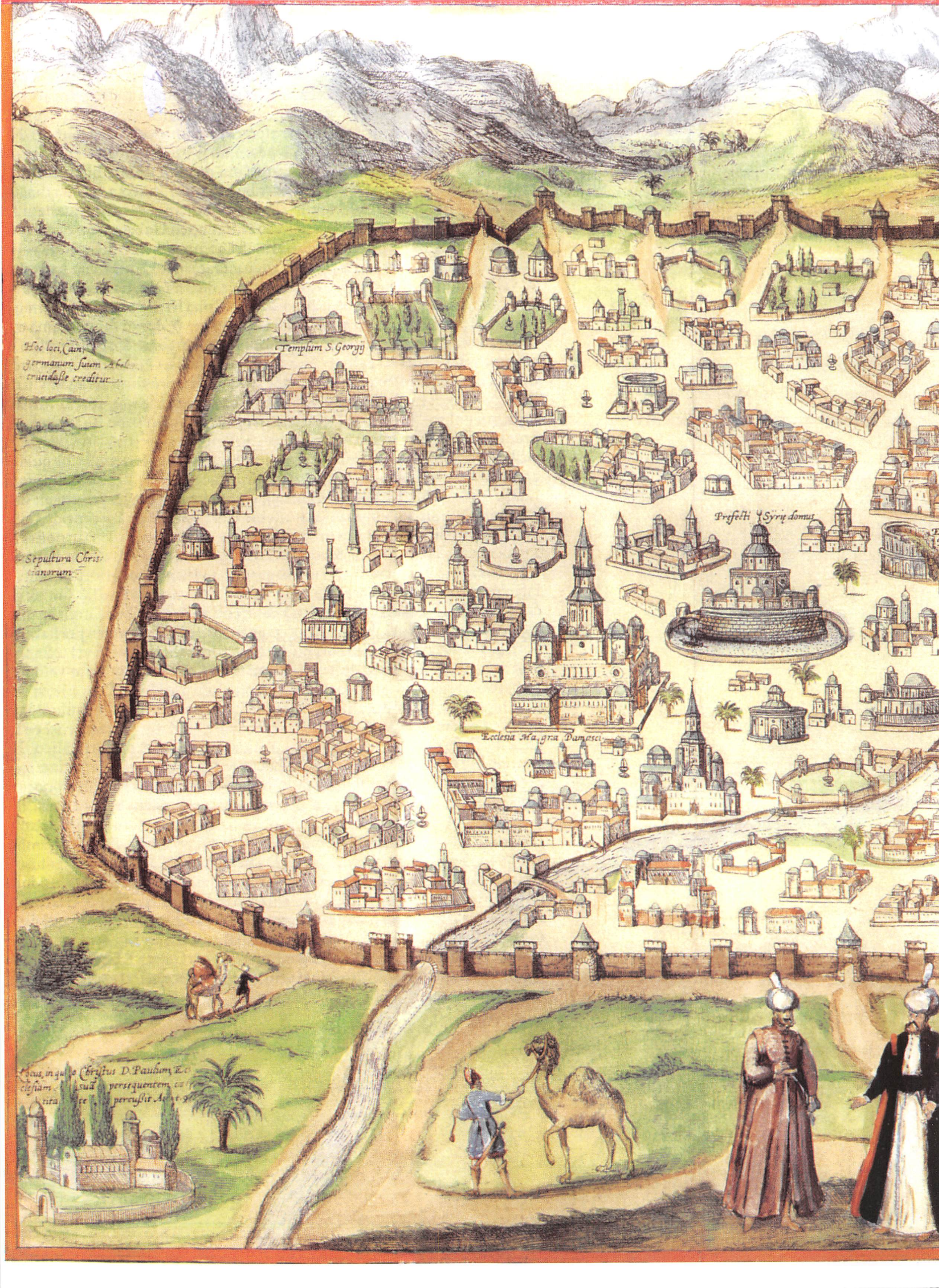

الصورة السفلية الأولى: لوحتان محفورتان على الخشب من القرن التاسع عشر تبينان المسافرين لدى اقترابهم من المدينة على الطريق الذي يعبر جبال لبنان. دمشق تلألأ من بعيد كالسراب.

الصورة السفلية الثانية: خريطة مدينة دمشق مرسومة عام ١٥٧٢. على الأرجح أن هذه الخريطة مستوحاة من اللوحتين الواردتين في الصفحتين ١٤ و١٥.





كان المسافرون حتى حلول القرن العشرين يقتربون من مدينة دمشق عبر مسار جبلي حيث يقع بصرهم على المدينة لأول مرة من الأعلى. إن منظر المدينة البيضاء المتلألئة وسط واحتها الخضراء المتصلة بصحراء جافة تمتد إلى خط الأفق، كان منظراً مثيراً يشبه السراب. وتفيد بعض الروايات بأن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) قد سافر إلى دمشق عبر ذلك الطريق الجبلي ولكن عندما رأى مشهد المدينة الساحر قرر عدم المتابعة، إيماناً منه بأن «الإنسان لا يدخل الجنة إلا مرة واحدة فقط.» أما السيدة البريطانية (إم.إي. روجرز) التي زارت سورية عام ١٨٦٥ عندما كان شقيقها قنصلاً لبلاده في دمشق فقد سمعت رواية مختلفة تقول بأنه عندما قفل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عائداً إلى دياره، توقف الدليل الذي كان بصحبته بعد أن فتنه ذلك المنظر الرائع وصاح قائلاً «دعوني ألاقي منيتي هنا». وتضيف الرواية بأن ضريحاً صغيراً على الهضبة هو قبر ذلك الدليل. وهناك رواية أخرى أيضاً تقول بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم)


Hoc loci, Cain germanum suum Abel trucidasse creditur.
Templum S. Georgij
Sepultura Christianorum
Prefecti Syrię domus
Ecclesia Magna Damasci
Locus in quo Christus D. Paulum, Ecclesiam sua persequentem percussit

اقترب من دمشق من ضاحيتها الجنوبية المعروفة باسم «القدم» ثم عاد أدراجه لكن عدم استمراره في رحلته إلى دمشق لم يكن بسبب جمال المنظر وسحره وإنما لأنه تعثر في طريقه وأن ذلك كان بمثابة إشارة لعدم الاستمرار في رحلته. وفي المسجد الذي يقع في منطقة القدم هناك قطعة من الرخام عليها شكل يشبه مداس قدم يقال بأنه موطئ قدم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). أما في الماضي البعيد فقد ساد الاعتقاد بأن طبعة موطئ ذلك القدم إنما يعود إلى النبي موسى عليه السلام.

في شهر نيسان من عام ١٨٣٣ وصل الشاعر والسياسي والرحالة الفرنسي (ألفونس دو لامارتين) إلى الهضبة المؤدية إلى دمشق وتوقف فجأة ليقول «وقع بصري من خلال فتحة بين الصخور على أغرب وأروع منظر يمكن أن يشاهده الإنسان في حياته. إنها مدينة دمشق بصحرائها التي لا حدود لها. وعلى مسافة عدة مئات من الأقدام نحو الأسفل بدت المدينة بسورها الذي يحيط بها من كل جانب.. كانت غابة من المآذن بأشكالها المختلفة.. يرويها نهرها بفروعه السبعة وعدد لا يحصى من جداول الماء على مدّ النظر وسط متاهة من حدائق الورود والأزهار والأشجار.. توقفنا عن المسير لنتأمل ذلك المشهد الساحر ونستمتع بالنظر إليه..».

ربما كان هذا هو المفتاح المؤدي إلى مدينة دمشق، فإن لم يكن سحر جمالها هو السرّ فلابد أن مكانتها الروحية هي التي أبرزتها للوجود، لاسيما أن الدين لعب دوراً رئيساً في تاريخ الأمم. فقد مرت أحداث مثيرة للفضول في تلك البلاد كان أشهرها تلك التي وضعت مدينة دمشق على خريطة العالم المسيحي، ألا وهي قصة الشاب (شاؤول) الذي امتهن صناعة الخيام وكان معروفاً بتعصبه المعادي للمسيحية. توجه (شاؤول) إلى دمشق بناء على أوامر رجالات الدين اليهود من أجل اضطهاد أتباع السيد المسيح. ويروي الإنجيل هذه القصة بقوله إن (شاؤول) اقترب من مدينة دمشق وفجأة سطع نور عجيب في السماء باتجاهه، فوقع أرضاً وسمع صوتاً يخاطبه «شاؤول.. شاؤول لماذا تضطهدني؟».. ثم فقد بصره. وفي ذات الوقت كان هناك أحد رجال الدين النصارى من أهالي دمشق يدعى حنانيا تلقى أمراً في الرؤيا بأن يذهب إلى الشارع المستقيم ليهتم بشأن ذلك المسكين الأعمى الذي انتابته الحيرة، فقام بتعميد (شاؤول) (Saul) في نهر بردى ليصبح اسمه (بولس) (Paul) وارتد بصره فوراً وأصبح يرى الأمور على حقيقتها وصار من الصالحين. وفي نهاية المطاف كان لابد من تهريب (بولس) من دمشق خوفاً من خطر انتقام اليهود أعدائه الجدد، لكن أبواب دمشق كانت موضع مراقبة أولئك اليهود لذا وُضع (بولس) في سلة وتدلى بواسطتها فوق السور الخارجي ولاذ بالفرار.

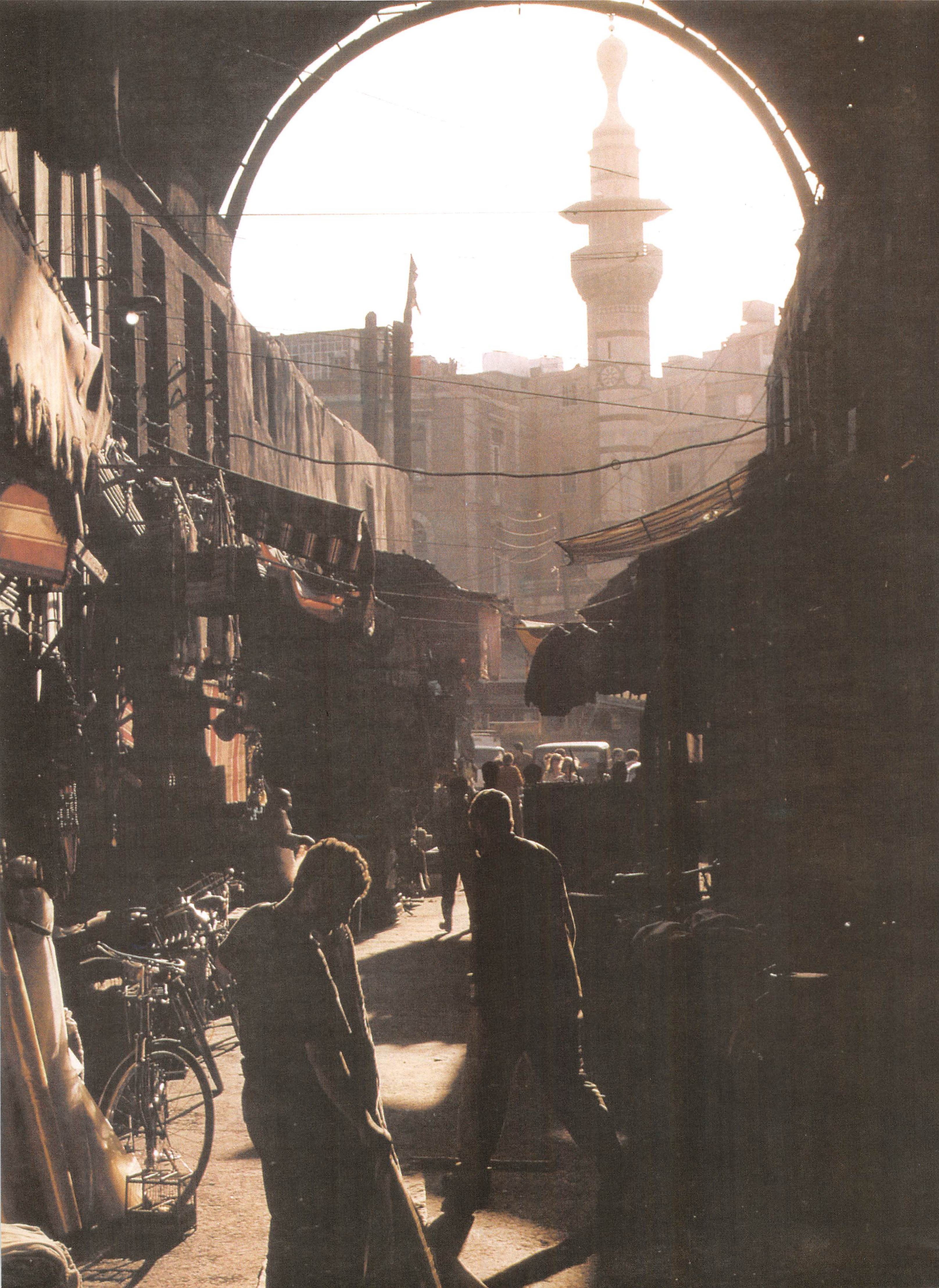
الصورة في الصفحة المقابلة: سوق السروجية ومئذنة جامع السنجقدار.

أما اليوم فهناك منطقة مسيحية في دمشق تدعى «الصوفانية» توجد فيها شابة اسمها (ميرنا) تقول بأنها استلمت رسالة من السماء ورؤى للسيدة العذراء. فعندما تراءت لها السيدة العذراء، ركعت (ميرنا) أمامها وقالت: «لقد وضعت يدي على قدميها وكانتا دافئتين». وهناك بركة غامضة من الزيت تركت بقعة من الزيت حيث وقفت السيدة العذراء ولاتزال هذه البقعة موجودة إلى الآن. ويأتي الحجاج من مختلف أنحاء العالم لزيارة (ميرنا) والتبرك بها. (هناك موقع خاص بها على شبكة الإنترنت).

إن مضمون هذه الرسالة المقدسة التي استلمتها (ميرنا) - كالتي وصلت إلى القديس (بولس) - كان في غاية البساطة: الدعاء من أجل توحيد الكنائس المسيحية، وهو أمر يُسلط عليه الضوء في المقطع المتعلق بسورية ضمن دليل مكتبة «هاشيت الشرق وسورية وفلسطين» (١٨٩٠). وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ذلك الدليل صنف تعداد سكان دمشق إلى الفئات التالية:

المسلمون	٧٤٤٦٤
الدروز	٥٠٠
المسيحيون اليونان	٥٩٤٥
المسيحيون اليونان الكاثوليك	٦١٩١
المسيحيون السوريون	٢٦٠
المسيحيون السوريون الكاثوليك	٤٦٠
المسيحيون الآراميون والكلدانيون	٤٠٥
المسيحيون الأرمن الكاثوليك	٢٣٥
المسيحيون الموارنة	٤٠٦
المسيحيون اللاتينيون	١١٠
المسيحيون البروتستانت	٧٠
الغرباء والجنود	١٥٠٠٠
اليهود	٤٦٨٠

يعود تقسيم بعض هذه الفئات إلى جهود الإرساليات التبشيرية التي بعثت بها الكنائس الغربية إلى المنطقة ووصلت إلى سورية في القرن السادس عشر. وبما أن هذه الإرساليات لم تتمكن من تبشير الديانة المسيحية للمسلمين، فقد اقتصر نشاطها على الأهالي المحليين من الأرثوذكس اليونان والمارونيين مما جعل قسماً كبيراً منهم ينقلب لاعتناق الكاثوليكية الرومانية أو غيرها من الطوائف البروتستانتية.





الصورة في الصفحة المقابلة: الواجهة الشمالية للجامع الأموي ومئذنة العروس كما صورها (بونفيس) في سبعينيات القرن التاسع عشر.

كما اعتاد الحجاج المسلمون القدوم إلى دمشق «أرض الأنبياء» والتي تعد رابع أقدس مدينة عند المسلمين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس، حيث كانت تشكل نقطة تجمع بالنسبة للحجاج لما يزيد عن ألف سنة من أجل الانطلاق باتجاه الحج السنوي الأكبر إلى مكة المكرمة. كما لجأ الحجاج في سالف الزمان إلى زيارة بعض الكهوف المقدسة الموجودة على جبل قاسيون، ككهف آدم عليه السلام، وهو المكان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام حسب ما تفيد به الروايات المحلية؛ وكهف الدم، حيث قام قابيل بقتل هابيل (لا تزال الصخور إلى الآن تبكي حزناً على هابيل)؛ وكهف النائمين السبعة (أصحاب الكهف) وهم مجموعة من الشبان الصالحين اختبؤوا في ذلك المكان هرباً من الاضطهاد ثم استيقظوا بأعجوبة بعد ٣٠٠ سنة؛ وكهف الأربعين الذي يحتوي على مقام أربعين شهيداً ممن ماتوا جوعاً بعد أن اختبؤوا خوفاً من بطش الظالمين. وهناك كهوف كثيرة غيرها ذات طابع قدسي.

وتستقبل دمشق في الوقت الحاضر عدداً من الحجاج الإيرانيين يتراوح عددهم بين مئة ومئتي ألف حاج إيراني معظمهم من النساء ممن يعبرن الأزقة الضيقة في دمشق القديمة لزيارة الأماكن الدينية، كقبور السيدة زينب حفيدة الرسول والسيدة رقية ابنة حفيدته ومشهد الحسين حفيد الرسول في الجامع الأموي. ويقال بأن رأس الحسين حفيد الرسول مدفون في ذلك الضريح ولكن في الواقع أن رأسه مدفون في مسجد يحمل اسمه في القاهرة. ومن المحتمل أن الرأس ظل محفوظاً لفترة من الزمن في الجامع الأموي بعد وفاة الحسين مما جعل البعض يعتقد بأن الرأس مازال مدفوناً في الجامع الأموي.

إن كل حجر من حجارة الجامع الأموي الكبير يروي تاريخ دمشق الديني. فقد شيّد الجامع الأموي ضمن جدران المعبد الروماني جوبيتر الذي كان يستعمل جزء منه فيما سبق ككنيسة مسيحية. كما أن ذلك المعبد الروماني بني على موضع معبد «حدد» الآرامي الذي ورد ذكره في الإنجيل نظراً لأهميته حيث يقول الإنجيل بأن مذبح المعبد الكبير في دمشق كان محط إعجاب أحد الملوك الفاتحين الذي أمر قساوسته بصنع نسخة عن ذلك المذبح. وبما أن المعبد الآرامي يقع حالياً تحت الجامع فلا يمكن رؤية شيء منه باستثناء تمثال طائر العنقاء الذي عثر عليه في الجدار الشمالي للجامع خلال تنفيذ بعض أعمال الإصلاح عام ١٩٨٤ ثم وضع في المتحف الوطني.



امتد المعبد الروماني على مساحة شاسعة – أكبر من مساحة معبد بل في تدمر – بحيث يمكن رؤية أعمدة المعبد وحجارته الضخمة التابعة لجداره الخارجي ضمن أزقة المدينة القديمة التي تغلغلت داخل منطقة المعبد الخارجية منذ زمن بعيد. في الحقيقة إن دمشق القديمة هي مزيج من الحجارة المعاد تدويرها في المكان ذاته، فعلى سبيل المثال هناك تمثال نصفي روماني متآكل في أعلى الجدار الجنوبي للجامع الأموي مقابل سوق الصاغة والمراحيض العامة (التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر) ونجد بأن ذلك التمثال النصفي قد استعمل مجدداً في هذا الموضع كحجر ضمن البناء. أما المدخل الروماني للمعبد فهو عبارة عن بوابة متصلة برواق من الأعمدة الضخمة المنتصبة خلف الجامع الحالي. وفي زمن المبشر الديني البريطاني (جوسياس بورتر) في دمشق (١٨٥٠-١٨٥٥) كانت هناك خمسة أعمدة قائمة في مكانها لم يتبق منها في وقتنا الحاضر إلا النذر اليسير.

الصورة في الأعلى: حجاج إيرانيون داخل المسجد الجديد الذي شيّد فوق قبر السيدة رقية، ابنة حفيدة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

الصورة في الصفحة التالية: صورة للبوابة الغربية في المعبد الروماني قبل إخلاء السوق الذي كان يحيط به في الثمانينيات.

فقد كتب الإمبراطور الروماني (جوليان) (٣٦١-٣٦٣) الذي كان معروفاً باسم (أبوستل) لأنه حاول أن يعكس تيار المسيحية التي سادت الإمبراطورية الرومانية في الشرق، كتب عن «دمشق العظيمة والمقدسة ومعابدها الجميلة ومدافنها الرائعة ووصفها بمدينة جوبيتر وعين الشرق بأكمله».

ولكن في نهاية القرن الرابع الميلادي عندما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية في المنطقة مع نشوء الإمبراطورية البيزنطية، فإن الجزء الداخلي من معبد جوبيتر – وهو الجزء المحجوب من هيكل المعبد – قد جرى اعتماده في كنيسة يوحنا المعمدان ثم جرى فتح ممرّ حجري في الجدار الجنوبي. ومع أن نصف هذا الممرّ الحجري مدفون الآن تحت الأرض، إلا أن عبارة منقوشة باليونانية لاتزال واضحة في القسم البارز منه كُتب فيها • مملكتك يا سيدي المسيح هي مملكة خالدة وسيسود حكمك الأجيال كلها».

ظلت «مملكة الرب» آمنة في معبد جوبيتر لمدة ٣٠٠ سنة من الحكم البيزنطي إلى أن فتح العرب على دمشق عام ٦٣٥ ميلادية ثم توصل الجانبان المسيحي والمسلم إلى اتفاقية يتشاطران بموجبها تلك المساحة المقدسة. فعند دخول ذلك المبنى الروماني ذي الشكل المستطيل من البوابة المسيحية اتجه المسلمون يميناً لأداة الصلاة بينما اتجه النصارى يساراً لأداء الصلاة في كنيستهم واستمرت هذه الحالة الهنيئة لمدة تزيد عن ٥٠ سنة تقريباً.

أصبح معاوية - الرجل الذي عينه العرب الفاتحون كي يكون حاكماً لسورية - علماً من أعلام الإسلام وعند وفاة الخليفة الثالث (الخليفة هو لقب أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) نشب صراع حاد على السلطة لتولي زعامة العالم الإسلامي. فمن جهة طالب "علي" ابن عم الرسول وزوج ابنته بأن الخلافة من حقه الوراثي، ومن جهة ثانية طالب معاوية بالخلافة أيضاً بالرغم من أن درجة قرابته بالرسول أبعد من علي، لكن معاوية حظي بدعم أكبر وأقوى، فانقسم العالم الإسلامي إلى فئتين إحداهما تساند علي (ومن ثم مساندة حسين ابن علي بعد مقتله) أصبحت معروفة بالشيعة بينما ساندت الفئة الثانية معاوية وصارت معروفة بالسنّة.

ساد حكم معاوية وأسس قاعدة الحكم لعهد الأمويين في دمشق التي أصبحت عاصمة العالم الإسلامي بدلاً من المدينة المنورة حيث كان الخلفاء يتخذونها مقراً لقيادتهم. وبعد وفاة معاوية (الذي دفن في مقبرة باب الصغير في دمشق) قام ولده يزيد بتعزيز دور سلالة حكم السنيين عن طريق قتل حسين بن علي وأسر أفراد أسرته وإحضارهم إلى دمشق كسجناء (وهذا يفسر وجود قبري شقيقته وابنته في دمشق حالياً).



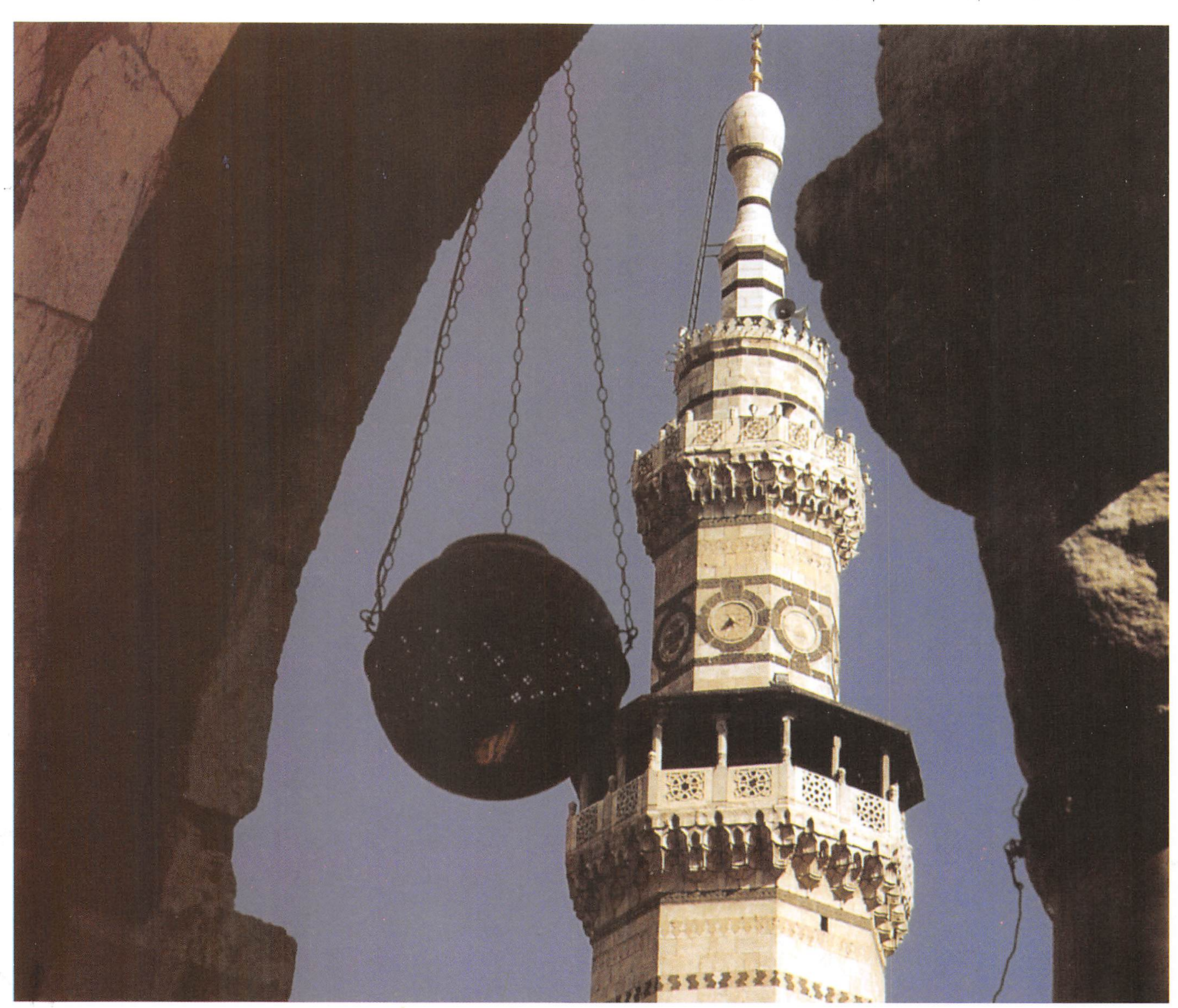


كان العهد الأموي بالنسبة لدمشق عصر الازدهار والمجد وتجلى ذلك ببناء الجامع الكبير عام ٧٠٥ ميلادية على يد الوليد بن عبد الملك، أحد أنصار معاوية الذي تسلم خلافة المسلمين. لكن الجدل احتدم بين الباحثين فيما إذا قام الوليد بتحويل الكنيسة المسيحية إلى جامع أو أنه هدم الكنيسة وبنى الجامع على أنقاضها. أما الرأي السائد حالياً فهو أنه بنى الجامع من نقطة الصفر ضمن جدران المعبد الروماني.

يشير المؤرخون العرب إلى أنه عندما طلب الوليد من النصارى التنازل عن حصتهم من المبنى كي يتسنى له بناء الجامع، رفض المسيحيون طلبه فثارت ثائرته وهددهم بأنه سيهدم أكبر كنائسهم إلا إذا وافقوا على مغادرة المبنى فوافق النصارى على طلب الوليد على مضض. ويُقال بأن الوليد حمل فأساً بيده وبدأ بهدم ما يُعرف الآن بمئذنة عيسى في الزاوية الجنوبية الشرقية حيث كان يعيش فيها ناسك مسيحي.

وحسب ما ورد في كتابات الرحالة العربي الأندلسي (ابن جبير) عام ١١٩٤، طلب الوليد من الإمبراطور في القسطنطينية قبل أن يشرع في بناء الجامع إرسال اثني عشر ألف من البنّائين والحرفيين البارعين الموجودين في مملكته وفي الوقت ذاته هدده أيضاً بتأديبه وعقابه إذا توانى عن تلبية طلبه. لكن الإمبراطور اليوناني نفذ أمر الوليد بكل طواعية..».

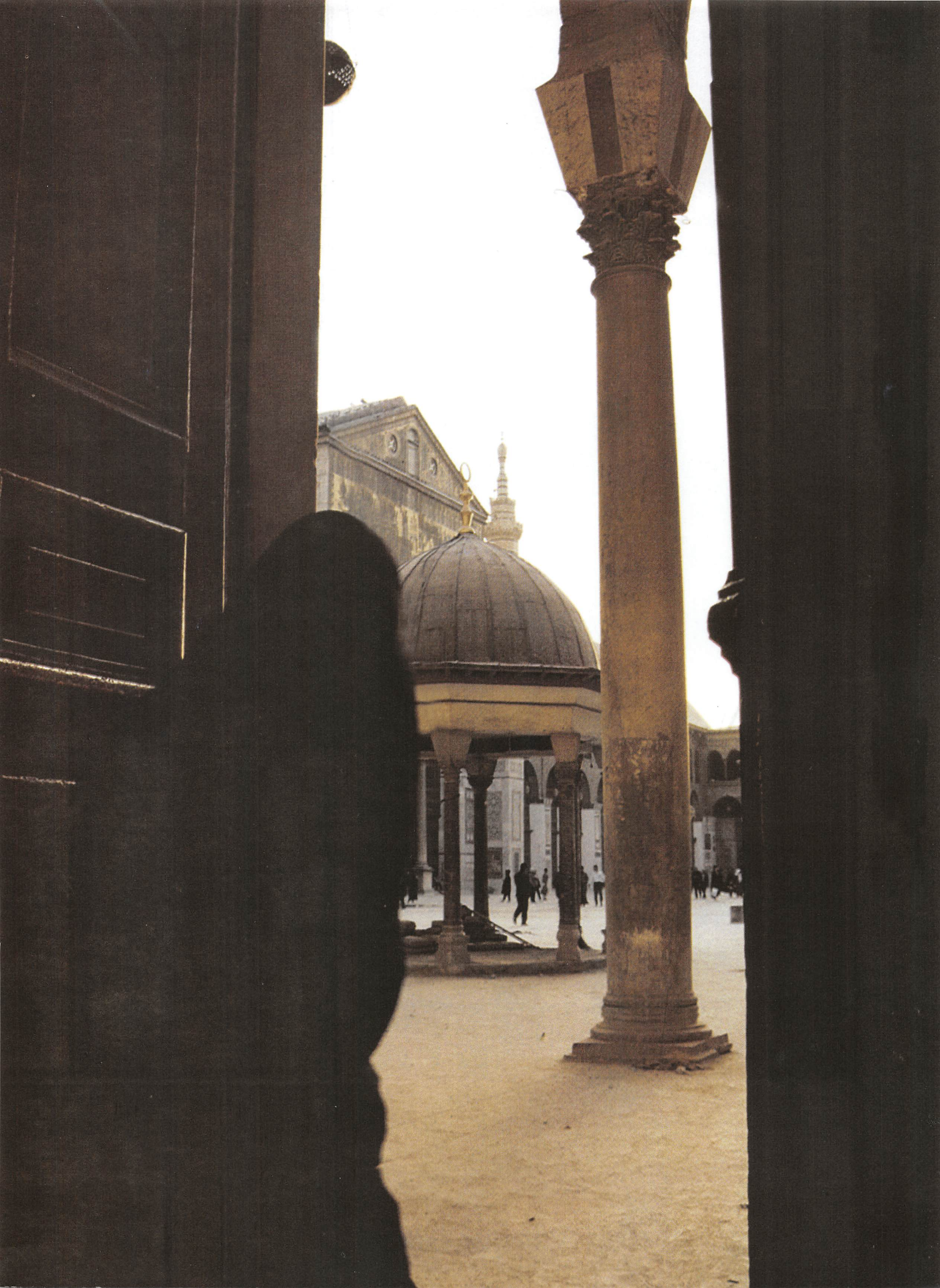
استغرق بناء الجامع الأموي ثماني سنوات ولم يشارك في بنائه الفنانون والحرفيون من الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل جرى



الصورة في الصفحة السابقة: رجل مسن يتلو القرآن عند الباب الشرقي في الجامع الأموي الكبير.

الصورة في الأعلى: أحد مآذن الجامع الأموي كما تبدو من خلال الأقواس الرومانية التي كانت جزءاً من المدخل الغربي.

الصورة في الصفحة التالية: لمحة من صحن الجامع الأموي كما تبدو من خلال المدخل الشرقي.



إحضار أمهر الحرفيين أيضاً من بلاد فارس والهند وشمال إفريقيا. وطبقاً لما رواه (المقدسي)، فإن الجامع الأموي كلف الوليد بن عبد الملك دخل سورية الكامل لمدة سبع سنوات. وهذا لم يتضمن بالطبع ما قدمه الإمبراطور البيزنطي والأمراء المسلمون من الحجارة الكريمة والنفيسة وغيرها من المواد اللازمة لأعمال الفسيفساء. فقد ذكر (ياقوت)، وهو عبد يوناني أصبح واحداً من أعظم علماء الجغرافية المسلمين، عام ١٢٢٥ أن ثمن نبات الملفوف لوحده الذي كان ضمن طعام العمال وصل إلى ٦٠٠٠ دينار (وهو مبلغ قام بمعادلته باحث بريطاني في القرن التاسع عشر فوجد أنه يساوي ٣٠٠٠ جنيه إسترليني تقريباً).

لقد قدم (المقدسي) صورة مفصلة تماماً عن الجامع الأموي. فبالإضافة إلى صحن الجامع الواسع المرصوف بالرخام الأبيض وقبته الضخمة المحمولة على أعمدة من الرخام (يُقال بأن اثنين منها من الرخام المجزع تم إحضارهما من معبد ملكة شبعا)، وصف (المقدسي) التزيين الداخلي للجامع بقوله «وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزع ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة في صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة. أما تيجان الأعمدة فهي ملبسة ومرصعة بالذهب وزينت قناطر الأروقة كلها بالفسيفساء.. أما المحراب فهو مزين بأفضل أنواع العقيق والفيروز المستعمل في ترصيع الخواتم والحلي.. ولكن من أكثر الأشياء العجيبة والمذهلة هي الرخام المجزع (الرخام المجزّع هو قطع من الرخام الملون ترصف حسب رسم هندسي. «المترجم») الملون والمنوع، والتناسق المدهش بين عروق كل حجر مع عروق الرخام الملاصق له، ما يجعل القطع مع بعضها البعض تبدو وكأنها كتلة واحدة ضخمة من الرخام. ولو أن أحد الفنانين تردد يومياً إلى الجامع ولمدة عام كامل ووقف أمام الفسيفساء البديع، فلابد أنه سيكتشف في كل مرة أشكالاً وتصاميم جديدة...».

وطبقاً لما رواه الرحالة العربي الشهير (ابن بطوطة) - الذي يعود أصله إلى شمال إفريقيا - عام ١٣٢٦ كان هناك سبعون مؤذناً يرفعون أذان الصلاة بصوت واحد (وحتى يومنا هذا فإن أذان الصلاة من الجامع الأموي تؤديه مجموعة من المنشدين بصوت متناغم). كما كتب المؤرخ (اليعقوبي) عام ٨٧٤ قائلاً بأن الفسحات المخصصة للصلاة في الجامع (الحرم والصحن) كانت تتسع لعشرين ألف مصل، وفيه ستمئة مصباح متدلٍ بسلاسل ذهبية. وذكر (اليعقوبي) أنه أثناء بناء الجامع وجد العمال كهفاً في أساسات البناء فأسرعوا باستدعاء الوليد ليرى ذلك بنفسه «نزل الخليفة ليلاً إلى ذلك الكهف فرأى مصلى كنيسة في غاية الجمال وفيه صندوق يحتوي على سلة كتب عليها .. هذا هو رأس يوحنا ابن النبي زكريا. فأمر الوليد بدفن السلة تحت أحد الأعمدة ضمن الحرم وبنى ضريحاً للقديس يوحنا بالقرب منه».

الصورة في الصفحة التالية: أعمال الفسيفساء الشهيرة في الجامع الأموي يعود تاريخها إلى القرن الثامن ومن المعتقد أنها تصور مدينة دمشق كما كانت تبدو في ذلك الزمن، مدينة من الأشجار والأنهار والبيوت الكبيرة.

وختم (اليعقوبي) روايته بوصف تقشعر له الأبدان «في الوقت الذي دفن فيه الرأس هنا يقول زيد (المشرف) بأنه رأى الرأس ذاته وبأن الشعر واللحم على حالهما لم يطرأ عليهما أي تفسخ».

لقد نسجت أساطير وروايات كثيرة حول الجامع الأموي. فمنهم من يقول بأن أداء الصلاة في ذلك الجامع توازي ثلاثين ألف صلاة في مكان آخر في ثوابها.. وبأن العناكب لا تنسج أبداً بيوتها داخل الجامع ولا تبني طيور الخطاف أعشاشها في ذلك المكان وبأن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض يوم القيامة عند مئذنة عيسى. ومن أكثر الأمور المثيرة للاهتمام حسب ما أجمع عليه معظم المؤرخين فإن الجامع يمكن تنظيفه بالكامل وبمنتهى السهولة بغمر صحن الجامع بالماء الذي يُصرف عن طريق منفذ آخر.

توفي الوليد عام ٧١٥ ميلادية واستلم الخلافة من بعده ابن عمه عمر الذي كان على العكس من سلفه تقياً وبسيطاً ومتقشفاً وشعر بالذنب حيال البذخ والإسراف في بناء الجامع بالإضافة إلى موضوع الاستيلاء عليه من النصارى (الذين لم يكفوا عن تقديم الشكاوى إليه حول هذا الأمر) وهذا ما دفعه إلى التفكير ببيع كنوز الجامع وإعادة المبنى للمسيحيين لكن أهالي دمشق اعترضوا على تلك الفكرة ما جعل الخليفة عمر يكتفي بدفع مبلغ ضخم من المال للنصارى الذين استعملوه في بناء كنيسة القديس يوحنا في باب توما. وذكر (ياقوت) بأن الأمر الذي جعل الخليفة يغير من رأيه هو محادثة جرت في الجامع بين سفيرين يونانيين تم الاستماع إليها خلسة حيث قال أحدهما للآخر «لقد أخبرت مجالس الشعب في بيزنطة بأن قوة العرب لن تدوم طويلاً، لكن عندما أرى الآن ما قاموا ببنائه هنا فإني على ثقة بأن نفوذهم سيبقى قائماً لعهود مديدة». في الحقيقة إن الجامع الذي بناه الوليد قد جمع بين مهارات المصممين والحرفيين من ثقافات وحضارات مختلفة جمعها ضمن عمل متناغم ومتناسق في غاية الروعة وهو بذلك يُعدّ ثاني أضخم كنز من كنوز الفن الإسلامي بعد قبة الصخرة في القدس.

اندلع حريق هائل في الجامع الأموي عام ١٠٦٩، ثم قام (تيمورلنك) بإحراقه ثانية عام ١٤٠١، وشب فيه حريق كبير عام ١٨٩٣ ألحق به أضراراً جسيمة، فاجتمع جميع حرفيي دمشق وأصحاب اليد الماهرة فيها وتعاونوا على ترميم الجامع. فالعربة ذات الشكل الغريب في صحن الجامع والتي تبدو كسلاح الكبش ما هي إلا اختراع خاص تم

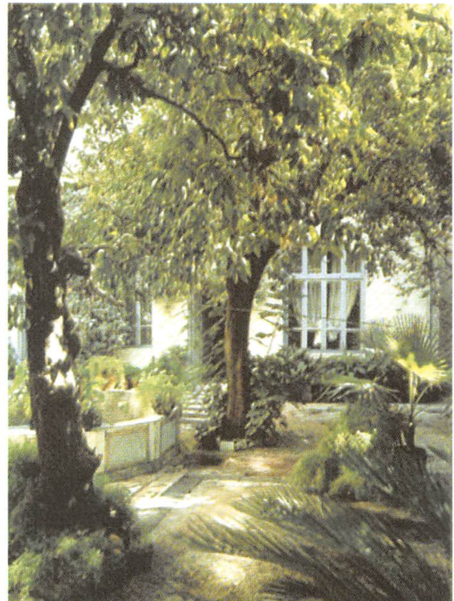






البحرات الفوارة (الفسقيات)

تحتوي البيوت الدمشقية التقليدية على بحرات فوارة داخلية وخارجية، حيث كانت البحرة الفوارة الخارجية تبنى بأشكال بسيطة من الحجر في منتصف باحة المنزل (أرض الديار) إلى أن ظهر الرخام المزين والمزركش في القرن التاسع عشر. أما البحرات الفوارة (الفسقيات) التي تبنى داخل الغرف فتميزت بتزيينها المفرط وكانت تطعم إما بالرخام المحفور أو الفسيفساء. وكانت تحيط بهذه البحرات أرض مرصوفة برخام يتناغم مع رخامها الزيني. كما أن الفسقيات الجدارية (السلسبيل) كانت تستعمل داخل المنزل أو في باحة الدار.

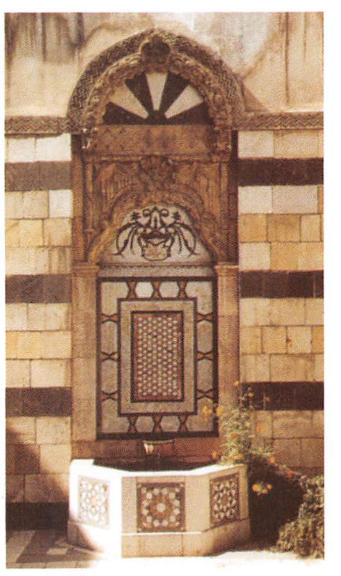


الصورة في الصفحة المقابلة: بحرة فوارة (فسقية) من الحجر مطعّمة بالفسيفساء كانت تستعمل أحياناً لتبريد الفواكه موجودة في المتحف التاريخي بدمشق.

الصورة في الأعلى: لقطة مقربة لحوض بحرة فوارة منحوتة من الحجر في المتحف التاريخي.

الصورة في اليسار: باحة (أرض ديار) هادئة في أحد البيوت الدمشقية الموجودة في منطقة القيمرية تتوسطها بحرة فوارة.

البحرات الفوارة (الفسقيات)



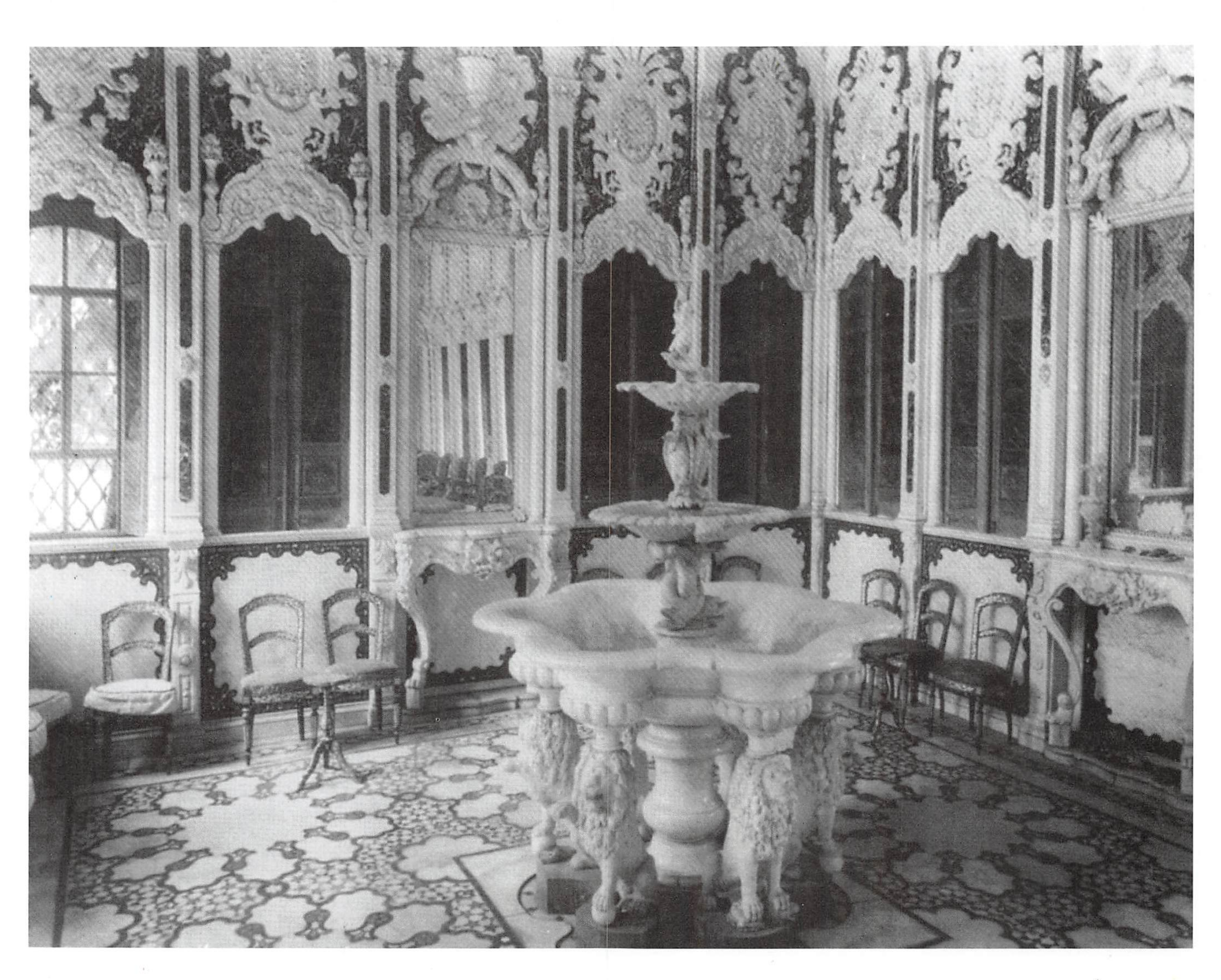
الصورة اليسارية: فسقية داخلية تقليدية ملبسة بالرخام والفسيفساء تحيط بها أرضية تتماشى مع تزيينها في بيت (نيادو) الاستنبولي.

الصورة في الأعلى: سلسبيل (فسقية جدارية) منحوت في الحجر ومطعّم بالأحجار الملونة أيضاً في المتحف التاريخي.

الصورة في الصفحة المقابلة: فسقية داخلية بديعة الشكل مغطاة بالرخام الأسود والأحمر والأبيض في بيت قاسم.



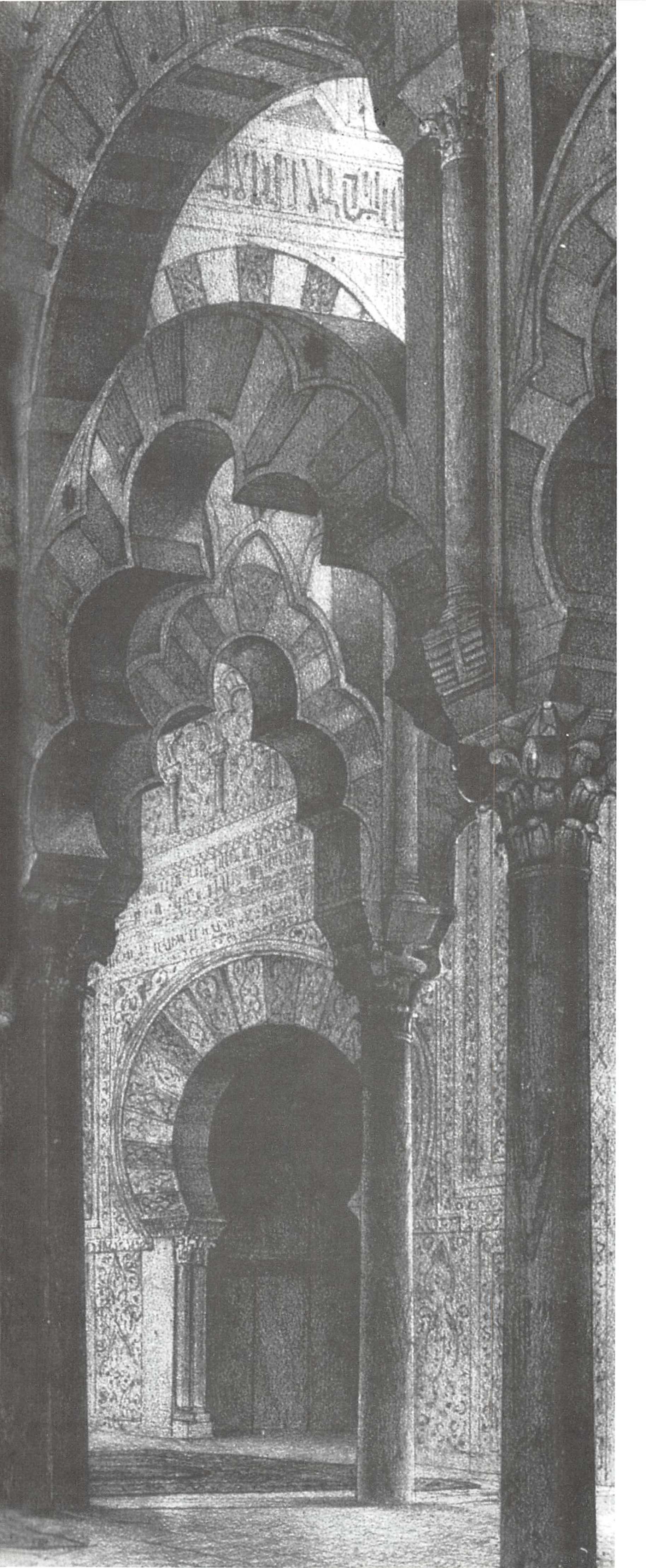
البحرات الفوارة (الفسقيات)



الصورة في الأعلى: فسقية من الرخام الأبيض المزخرف في بيت شمعايا في سبعينيات القرن التاسع عشر.

الصورة في الصفحة المقابلة: فسقية رائعة من الرخام على شكل متاهة في المتحف التاريخي.



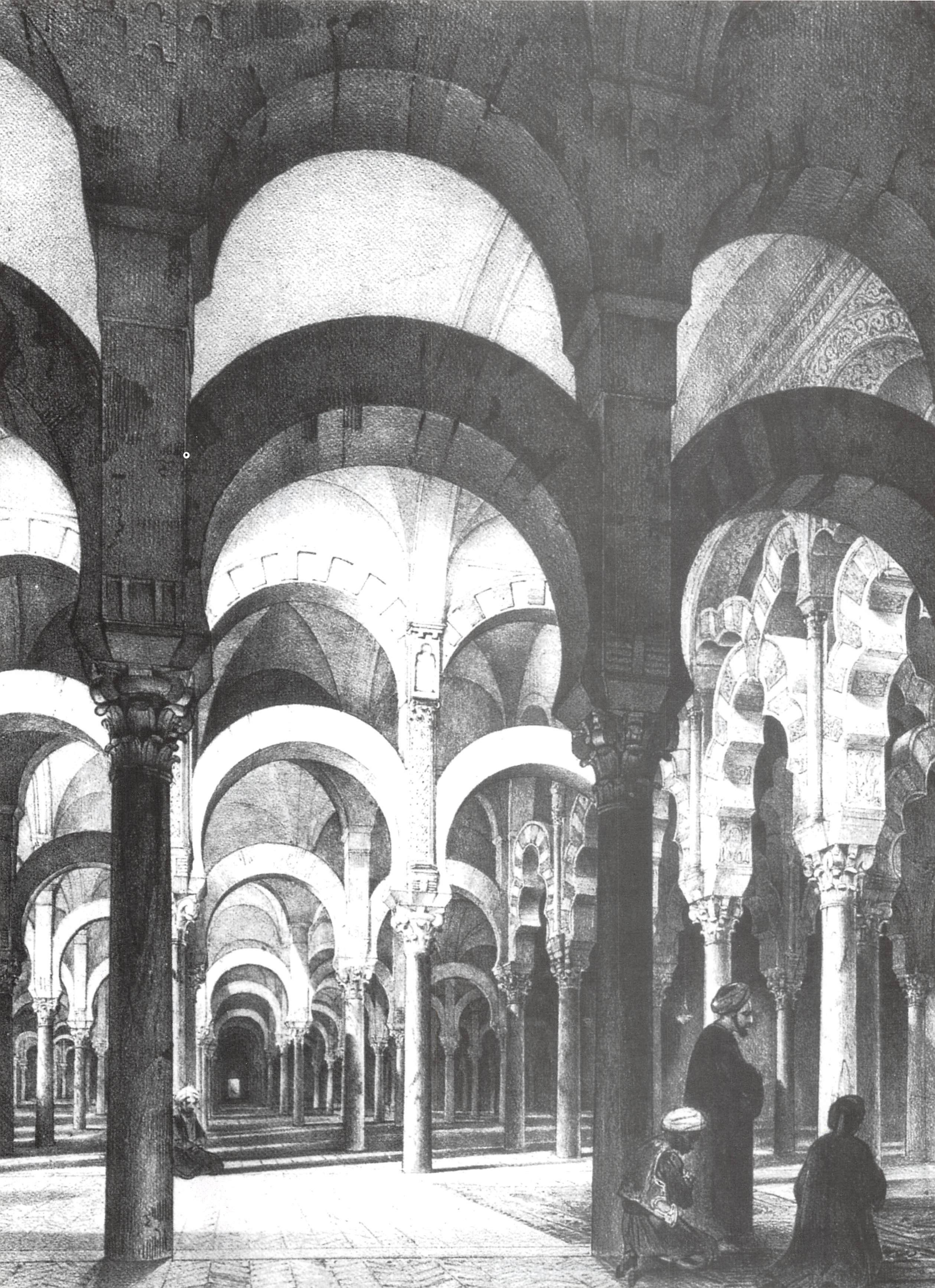


الجامـع الكبير في قرطبة الذي شيّد في عهد الأمويين في إسبانيا.

ابتـكاره في تلك الفـترة لسحب الأعمـدة وجرها من المقالع الحجرية الموجـودة في منطقة المزة. (الكبش هـو آلة حربيـة كان يستعملهـا القدماء لـدك أسوار المدن المحاصرة. «المترجم») ثم جرى ترميم الجامع مجدداً في التسعينيات.

وفي عـام ٧٥٠ ميلادية أطيح بالحكم الأموي من جانب مجموعة جديدة تدعي الحق بالخلافة من عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) «عباس»فكانت بذلك آخـر أسعد أيام دمشق. فقـد قام أول خليفة عباسي بدعوة آخر الأمـراء الأمويين إلى مأدبة «صلح» لكنه قـام بذبحهم جميعاً عندما أتوا تلبية لدعوته. ويقال بأنه أمـر بوضع السجاد فوق جثثهـم وتناول عشاءه فوقها معلناً بأنها كانـت ألذ وجبة تناولها في حياته. استطـاع أمير واحد فقط الهروب مـن تلك المذبحة وفـرّ إلى الأندلـس في إسبانيـا التـي فتحهـا العرب حينـذاك وضموها إلى إمبراطوريتهم الواسعة. وقد تجلـى شغف الأمويين بالبنـاء في تلك البلاد بتشييد الجامع الكبـير في قرطبة. ثم تحول ذلك المكان إلى مـكان مسيحـي للعبادة - أي بعكس مـا حدث تماماً في دمشـق. عندما رأى قداسة الإمبراطور الروماني (تشارلـز) الخامس ما جـرى ارتكابه داخل الجامع حيث هدمـت عشرات الأعمـدة الرائعة الموجودة في قلـب الجامـع من أجـل بنـاء كاتدرائيـة ضخمة في الموضع ذاته، يُقال بأنـه ثار غاضباً وقال «لقد قمتم أو سواكم هنا أو في أي مكان آخر بتشييد هذا البناء لكنكم دمرتم ما ليس له مثيل في العالم كله».

استمـر حكـم المسلمـين في إسبانيـا ٧٠٠ عـام فكانـت تلـك الفترة بمثابـة صلة الوصـل التي ترك فيهـا العرب أثراً واضحـاً في أوروبا بطرق لا حصر لهـا. فالفواكـه والخضـار - كالأرضـي شوكـي والكوسـا والنـارنج - انتقلت مـن العالم العربي إلى أوروبـا ناهيك عن بعض المفـردات - «كالكحول» و«الكيمياء» و«القلي» أو «قلوي» - التي انتقلت أيضاً إلى اللغات الغربية بما أن مواضيعها لم تكن معروفة أصـلاً قبل قدوم العرب. علاوة على ذلك فإن تقنية تقطـير المـاء جاءت من العـرب الذين قامـوا أيضاً





بالحفاظ على الثقافة اليونانية فدرسوا موادها من كيمياء ورياضيات وطب وعلم فلك وفلسفة بينما كانت أوروبا في ذلك الوقت غارقة في عصور الظلام. وقد ذكر الفيلسوف والمؤرخ (جوزيف ماكابي) في كتابه «روائع إسبانيا في عهد المسلمين» بقوله «بلغ عدد سكان قرطبة في القرن العاشر الميلادي مليون نسمة وتمتعت قرطبة بنظام تمديد كاف من الماء الصافي وأميال من الطرقات المرصوفة والشوارع المنارة بالفوانيس في الوقت الذي لم يبلغ فيه عدد سكان أية مدينة في أوروبا باستثناء إسبانيا العربية وصقلية ثلاثين ألف نسمة ولم تتمتع أياً من المدن الأوروبية آنذاك بنظام صرف صحي حتى ولو كان بدائياً ولم يكن فيها طرق معبدة أو مرصوفة ولم تعرف شوارعها الإنارة كما لم تحظ بنظام إمداد لمياه الشرب..».

من أكثر الكلمات الشائعة في اللغة الإسبانية للدلالة على التعجب أو الدهشة هي (Olé) ولعلها جاءت من العربية «الله!» وهي كلمة لاتزال تسمعها في سورية إلى الآن عندما يصيح الجمهور، على سبيل المثال، للتعبير عن إعجابه بشيء معين أو بأداء ممثل أو ممثلة ما.

بعد أن استلم العباسيون زمام السلطة من الأمويين غادروا دمشق وحكموا العالم الإسلامي من بغداد. وبمعزل عن فترة قصيرة خلال عهد نور الدين (انظر للأسفل) لم ترجع دمشق لتصبح عاصمة إلا بعد مرور ألف سنة تقريباً. وقد استندت سعود ونحوس دمشق على الأنظمة التي تعاقبت على حكمها. فقد ازدهرت دمشق عندما عمّ السلام المنطقة واستطاعت قوافل الجمال الضخمة المحملة بالبضائع من مختلف أصقاع العالم العمل بأمان دونما خوف من مهاجمتها. ولكن في أحقاب أخرى عانت دمشق من عدم الاستقرار بسبب صراع الفصائل المتناحرة في المنطقة على السلطة أو نتيجة ظلم واستبداد بعض الجماعات التي استولت على الحكم. ويمكن القول أنه لم يمرّ نظام حاكم (أو حاكم يمثل ذلك النظام) على دمشق دون محاولة لاعتصار أقصى ما يمكن من موارد الأهالي. ولعل خير مثال على الثروة والمبالغ التي استطاع المسؤولون اكتسابها من الأهالي هو أسعد باشا العظم الذي حكم دمشق أربع عشرة سنة. وحين صادر السلطان العثماني ثروة أسعد باشا العظم عام ١٧٥٨، اضطرت الإمبراطورية إلى إعادة تقييم الوحدة النقدية المتداولة آنذاك بسبب الأموال الطائلة التي كانت بحوزة أسعد باشا العظم. كما أحضرت مجموعة أواني الخزف الصيني الخاصة بباشا العظم إلى السلطان نفسه حيث تشكل الآن جزءاً من مجموعة الخزف الصيني الموجودة في متحف قصر توبكابي باستنبول.

بالرغم مما ورد في كتابات التاجر والرحالة ابن حوقل عام ٩٧٨ ميلادية عن الأسلوب الثوري العنيف الذي اتبعه أهالي دمشق في الدفاع عن أنفسهم، إلا أنهم تعلموا فن البقاء في ظل حكامهم الأجانب على مرّ الزمن. فقد حاول الذين اشتركوا في روابط تجمع فيما بينهم وتوحد صفوفهم – كالأسر والطوائف الدينية وأفراد المجموعات الواحدة – العيش بجانب بعضهم البعض في أحياء معينة من المدينة وأحياناً في

الصورة في الصفحة السابقة: زخرفة شجرة الحياة بالرخام المرصع بالذهب على خلفية محراب في المتحف التاريخي.

الصورة في الأسفل: محراب قبر صلاح الدين مزين بأزهار خزفية وألواح زخرفية دمشقية (ألواح قاشاني).



الحارات التي يمكن إغلاق بواباتها ليلاً من أجل تحقيق الأمن لهذه الجماعات. وكل حيّ كان له زعيم يعينه الأهالي وله مساجده وحماماته العمومية ومدارسه وأسواقه الخاصة به كي يتجنب الأهالي مخاطر الابتعاد عن حيهم الأساسي وأصبحت شبكة الشوارع التي شُقت على الطراز الروماني حين قسمت المدينة القديمة في الماضي بشكل منتظم أصبحت متداخلة بشبكة من الأزقة والحارات الضيقة التي تشبه عش النمل. ولا تزال دمشق القديمة إلى الآن تتمتع بخصوصية كبيرة يصعب سبر أغوارها من جانب أي دخيل على المنطقة. وهناك قول مأثور يردده السوريون «السرّ لا يُحفظ إلا بين اثنين فقط»، والمقصود بذلك حفظه بين الشفتين. ثم ظهر نظام الأوقاف الذي يلزم جمع ريع موارد الحارة أو الحمام العمومي أو السوق لإقامة مبان دينية ومدارس ومشافٍ معينة ورعايتها، وهذا يعني بأن العقارات المستحدثة من الريع لا يمكن مصادرتها من أصحابها حسب أهواء ونزوات الحاكم أو السلطان.

لقد لعبت الطبيعة دوراً مهماً سواءً في الرخاء الذي عمّ دمشق أو الأوقات العصيبة التي ألقت بظلها على المدينة. فقد مرّت سنوات

الصورة في الأسفل: منظر نموذجي لأحد شوارع دمشق في القرن التاسع عشر في حيّ مدحت باشا قام بتصويره (بونفيس) إلا أنه أخطأ في التعليق الذي أضافه على الصورة بتعريف الشارع على أنه الشارع المستقيم.

الصورة في الصفحة المقابلة: الشارع المستقيم وقد أغلقت فيه المتاجر يوم الجمعة. يُقال بأن الثقوب الموجودة في سقف الشارع أحدثتها طلقات الجنود الفرنسيين.



عديدة من الجفاف والقحط وأصبح الماء فيها شحيحاً لا يكفي لتدوير دواليب الطواحين الكثيرة المنتصبة على طول النهر. (لا تزال بعض الطواحين موجودة حتى الآن لكنها توقفت عن العمل بواسطة الطاقة المائية ولجأت إلى الوسائل الحديثة). كما مرّت بعض السنين حين جرفت فيها السيول نصف المدينة تقريباً، وسنوات أخرى التهم فيها الجراد المحاصيل الزراعية، وسنوات أخرى دُمرت فيها الأبنية بفعل الزلازل، وسنوات اجتاح فيها الطاعون المدينة وحلت المصائب بالأهالي - انتشر آخر تلك الأوبئة في القرن التاسع عشر. وقد ذكر مسؤول حكومي بريطاني يدعى (جون باورينغ) في تقريره عن الإحصائيات التجارية في سورية عام ١٨٤٠ «لقد سمعت بأن السبب وراء انتشار الطاعون كان توقيع وثيقة بقلم ملوث جاء من منزل مصاب بالوباء ثم انتقل هذا الوباء إلى خيط تم شراؤه في سوق تركي بغرض استعماله في إصلاح صحيفة من الورق، ثم إلى ريشة داخل سرير أتت بالأصل من دجاجة مصابة هربت من حي المحمدي». لكن دمشق كانت دائماً قادرة على التعافي من تلك الكوارث بما أنها تمتعت بتلك المزايا الطبيعية الاستثنائية التي يوفرها نهرها وواحتها الخصبة التي تتيح زراعة جميع أصناف المحاصيل، بالإضافة إلى أن حقول القمح الشاسعة امتدت إلى عتبة دمشق تقريباً من حوران في جنوب سورية. كل هذه المقومات جعلت من دمشق مدينة قادرة على التكيف واستعادة الحيوية بعد الكوارث التي حلت بها وحافظت على هيئتها بالرغم من صروف الزمان. ولا غرو بأن كل من زار المدينة على مرّ التاريخ أعجب بها أيّما إعجاب.

قال عالم الجغرافيا ابن محمد الإدريسي عن دمشق عام ١١٥٤ «تحتوي المدينة على كل ما هو حسن وفيها شوارع تضم في أركانها مختلف الحرَف والمهن بينما يبيع فيها التجار الحرير والبروكار الذي يُعدّ نادراً في جماله وروعته، وهي أمور ليس لها مثيل في مكان آخر من العالم. فالمواد والمنتجات التي تصنع هنا تجد طريقها إلى كل العواصم القريبة والبعيدة. كما أن حرفيي المدينة ذاع صيت براعتهم ومهارتهم في كل مكان في حين أن بضائعها مطلوبة في كل أسواق العالم بينما تعدّ المدينة بحد ذاتها من أجمل مدن العالم قاطبة». وفي عام ١٥٩٠ كتب رحالة فرنسي يدعى (جاك دو فيلامون) عن دمشق قائلاً «إنها مدينة عظيمة تتمتع بالقوة والنفوذ. ومما يسترعي الانتباه أن معظم شوارعها مسقوفة ومقنطرة مما يجعل المرء لا يخشى المشي تحت أشعة الشمس الحارقة أو تحت الأمطار الغزيرة، بالإضافة إلى إنارة تلك الشوارع ليلاً. وكل من يفكر بالجمال الذي تتمتع هذه المدينة به فلا بد أنه سينظر إليها على أنها الفردوس على الأرض». كما كتب القنصل الفرنسي في حلب (شوفالبير دارفيو) عام ١٦٦٠ وصفاً عن دمشق قال فيه «.. إن سكان المدينة أثرى من سواهم ولا يتعرضون لاستبداد الحكام. وبغض النظر عن ديانة الأهالي أو جنسياتهم فإنهم يحبون الظهور بالمظهر اللائق والأنيق والسكن في دور مريحة كما أنهم يعشقون حريتهم بالدرجة الأولى. ومع أن أهالي دمشق تابعون لحكم السلطان إلا أنهم ليسوا عبيداً له».

من ناحية ثانية، وصف الرحالة البريطاني (جون غرين) الشارع المستقيم كما كان يبدو آنذاك أثناء رحلة قام بها إلى سورية عام ١٧٣٦ بقوله «تصطف المحلات والمتاجر على جانبي الشارع حيث تباع البضائع النفيسة التي تأتي كل سنة عن طريق القوافل القادمة من أوروبا وأرمينيا وإفريقيا وبلاد الفرس والسند. كما أن الأسلوب الذي تعرض فيه تلك البضائع تحث المرء على شرائها».

تدهور حكم العباسيين وخسروا السلطة لصالح الأتراك السلاجقة حيث تمكن أحد ضباطهم المعروف باسم «الزنكي» من أن يصبح الشخصية المهيمنة في المنطقة ومنح اسمه للسلالة الحاكمة من بعده فأطلق على أفرادها لقب الزنكيين، وهي الفترة التي عمت فيها الفوضى السياسية في المنطقة حين كانت تشهد تدهور وانحلال الحكم العباسي. إن ظهور الأتراك السلاجقة ومن بعدهم الصليبيين من أوروبا، ثم ظهور زمرة شيعية جديدة من مصر أطلق على أفرادها اسم الفاطميين بالإضافة إلى البيزنطيين والقبائل المحلية وشيوخ وزعماء العشائر شكلت بمجموعها قوى متناحرة على السلطة في المنطقة. وقد أمضى الزنكي حياته يحارب تلك الفصائل في محاولة منه لتأسيس مملكة خاصة به، لكن ابنه نور الدين الزنكي كان أنجح من والده وتمكن من إحلال سلام نسبي دام زهاء ثلاثة عقود من الزمن.

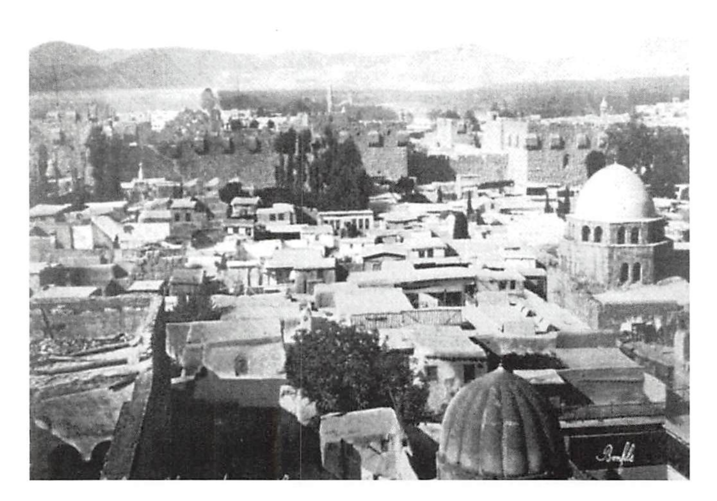
وقبل أن يتبوأ نور الدين مقاليد الحكم في دمشق، حاول الصليبيون عام ١١٤٨ الاستيلاء على المدينة وكانوا على ثقة كاملة بأن النصر سيكون حليفهم لدرجة دفعتهم حسبما أفاد به المؤرخ السوري ابن المنقذ «إلى أن يشرعوا في إعداد الصفقات فيما بينهم لاقتسام بيوت دمشق وحماماتها العمومية وأسواقها..». ولكن ما إن وصل الصليبيون



مطبعة
كروما
واولاده
مشغل عكل
للرياضة

الصورة في الأسفل: صورة فوتوغرافية لمدينة دمشق ملتقطة في القرن التاسع عشر حيث يبدو قبر صلاح الدين في مقدمة الصورة.

الصورة في الصفحة المقابلة: مقطع من قلعة دمشق جرى ترميمه حديثاً، علماً بأن شقيق صلاح الدين أعاد بناء القلعة في أواخر القرن الثالث عشر. يبدو في الصورة تمثال حديث لصلاح الدين ممتطياً صهوة جواده.



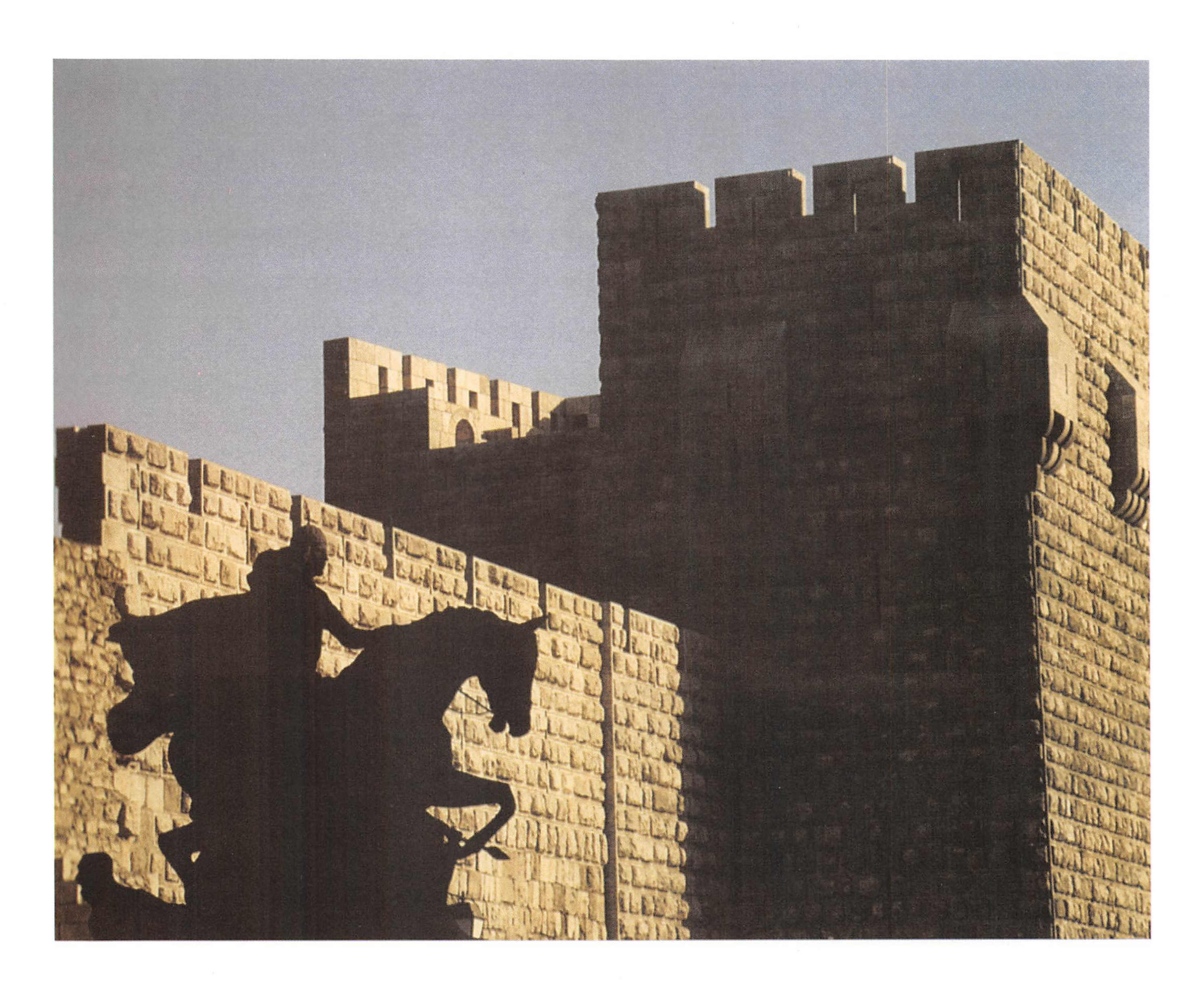
إلى أسوار المدينة وفرضوا حولها الحصار، حتى اضطروا لفكه بعد ثلاثة أيام فقط نتيجة الحرّ وشحّ الماء وتفشي الأمراض بين صفوفهم بالإضافة إلى شراسة وبسالة المدافعين الدمشقيين. تراجع الصليبيون لكنهم كرروا محاولة الاستيلاء على دمشق عام ١١٥٤، وفي هذه المرّة هبّ نور الدين مع جيشه لإنقاذ المدينة وأرغم الصليبيين على فك حصارهم لمدينة دمشق مرة ثانية.

شكل حكم نور الدين الزنكي مرحلة ذهبية قصيرة الأجل بالنسبة لدمشق، حيث ازدهرت الأعمال لاسيما في مجال أعمال البناء والعمارة بما في ذلك ترميم أسوار المدينة القديمة وتنظيم وإصلاح أبوابها وأبراجها (ومنها على سبيل المثال نقش الحاكم الذي نجده مخبأ في باحة إحدى المتاجر جانب مدخل الشارع المستقيم.) كما بنى نور الدين حماماً عمومياً في سوق البزورية (سوق التوابل) الذي يُعدّ أقدم حمام مازال إلى الآن يفتح أبوابه لاستقبال عامة الناس. كما بنى نور الدين المستشفى الرائع المعروف باسم بيمارستان نور الدين والذي جرى ترميمه منذ فترة ليست ببعيدة ويقع بالقرب من سوق الحميدية وذلك باستعمال مال فدية أمير صليبي لتسديد تكاليف الترميم. كما نفذ نور الدين بعض أعمال الترميم في الجامع الأموي ووضع بالقرب من بوابته الشرقية ساعة معقدة وعجيبة استعمل فيها طيوراً نحاسية تسقط الأوزان داخل أكواب لإصدار صوت يدل على مرور الساعات. وفتح نور الدين أيضاً دور القضاء وأسس حوالي ١٢ مدرسة أهمها «المدرسة النورية» التي دفن فيها آخر المطاف. وقد ذكر القديس (جوسياس بورتر) عام ١٨٥٥ واصفاً تلك المدرسة بأنها «أروع مبنى في المدينة كلها». ولكن من دواعي الأسف أنه أعيد بناء جزء من تلك المدرسة عام ١٩٩٠ لكن المقطع الذي يقع فيه قبر نور الدين ما يزال على حاله واحة من الهدوء وسط سوق الخياطين الذي يعج بالحركة والضوضاء.

أرسل صلاح الدين الأيوبي، أحد قادة نور الدين العسكريين وهو من أصل كردي، كمبعوث إلى بلاط الفاطميين في مصر لكن الأمر انتهى به كقائد استولى بنفسه على مصر، وبعد وفاة نور الدين عام ١١٧٤ هزم صلاح الدين ورثة الحكم وفرض سيطرته على سورية أيضاً وتزوج من أرملة نور الدين كي يمنح لنفسه الشرعية اللازمة لفرض سلطته على البلاد.

عندما عاش صلاح الدين في دمشق اتخذ من قلعة دمشق مقراً لإقامته كما فعل نور الدين الزنكي من قبله، لكن صلاح الدين قلما تواجد في تلك القلعة بسبب حملاته التي لا تعد ولا تحصى ضد الصليبيين وسجل أعظم فترة من حكمه حين أخرج الصليبيين من القدس ثم عاد إلى دمشق عام ١١٩٢ بعد حملة أخرى ضد (ريتشارد قلب الأسد) لكن المنية وافته في العام التالي عن عمر يناهز الخامسة والخمسين. ويُقال أنه بالرغم من سنوات المعارك التي خاضها صلاح الدين وفتوحاته والانتصارات التي حققها إلا أن ثروته الشخصية لم تبلغ سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً فقط وذكر أحد معاصريه بأنه كان الحاكم الوحيد الذي حزن السوريين بالفعل على فراقه.

دُفن صلاح الدين في قبر يقع على الجهة الشمالية من الجامع الأموي وبالقرب منه شيّد ابنه العزيز مدرسة رائعة لم يتبق منها للأسف سوى مدخل مقنطر فارغ وبحرة فوارة في حديقة جميلة. يحتوي ضريح صلاح الدين على تابوتين أحدهما حجري والآخر خشبي، لكن التابوت المحفور من الخشب هو التابوت الأصلي وقد وصفه المستشرق والمعماري الفرنسي (جان سوفاجيه) بأنه من أروع القطع الفنية المتبقية من القرن الثاني عشر في سورية. أما التابوت الآخر الحجري المزخرف بالرخام فيُقال بأنه هدية قدمها (القيصر ويلهيلم) الألماني الثاني عندما زار دمشق عام ١٨٩٨ ولكن في الحقيقة حسب ما أفاد به (ستيفان ويبر) – وهو مؤرخ معماري يعمل حالياً في معهد الآثار الألماني بدمشق – لابد أن ذلك التابوت الحجري قدمه شخص آخر لأن التاريخ المحفور عليه هو ١٨٧٨، أي قبل ٢٠ سنة من زيارة (القيصر ويلهيلم) إلى دمشق لكن من المؤكد أنه أهدى صلاح الدين إكليلاً برونزياً صنع في ألمانيا، علماً بأن الملك فيصل قدم ذلك الإكليل للورنس العرب بعد دخولهما المؤزر إلى دمشق عام ١٩١٨. ثم أحضر لورنس ذلك الإكليل البرونزي إلى إنكلترا وتبرع به للمتحف الحربي الإمبراطوري في لندن حيث لايزال معروضاً إلى الآن. ذكر



المبشـر الأمريكي (هنري جيسوب) – الذي مارس نشاطه في بيروت لمدة ثلاث وخمسين سنة في القرن التاسع عشر – قائلاً حول هذا الأمر أنـه بعد أن قدم القيصـر ذلك الإكليل البرونزي كان أحد رجال الدين المسلمـين يصلي داخـل ضريح صـلاح الدين حين لاحظ بـأن الإكليل مزيـن بصليب فرسان مالطا فصاح قائـلاً «خذوه بعيداً.. صليب على قبر صلاح الدين!.. أعوذ بالله!». جرى ترميم الضريح في بداية القرن السابع عشر وتمت زخرفته ببعض ألواح الخزف الدمشقي (القاشاني) ولايـزال بهـذا الشـكل إلى الآن. خلف صلاح الديـن في الحكم شقيقه الملك العادل الذي قام بإعادة بناء جزء كبير من قلعة دمشق – كما يتم حاليـاً ترميم القلعة مجدداً وعند إنجاز العمل ستفتـح القلعة أبوابها للزوار والسائحين. (افتتحـت قلعة دمشق للعموم مؤخراً. "المترجم") عندما توفي الملك العادل دُفن في المدرسة العادلية الجميلة في دمشق.

ترك صلاح الدين الأيوبي سبعة عشر ولداً تصارعوا بعده على إرثهم من الأراضي. وهذا ما جعل الأيوبيين – وهم أفراد أسرة صلاح الدين التـي ورثت الحكم مـن بعده – يفشلون في الحفـاظ على إمبراطورية صـلاح الدين سليمة دون أن يلحق بهـا الضرر. ففي الحقيقة وقع أحد الأيوبيـين اتفاقية أجرّ بموجبها القدس لعـدة سنوات لمجموعة جديدة من الصليبيين. كما لم يتمكن الأيوبيون من حكم إمبراطوريتهم لفترة تزيد على ٦٧ سنة لكن عهدهم اشتهر بفن العمارة.

تنتشـر قبـور الأيوبيـين في جميع أنحـاء دمشق ومنها قـبر شقيقته ست الشام الذي أنقـذ في اللحظة الأخيرة عندمـا كان العمل قائماً في تطويـر منطقة سوق ساروجـة في الثمانينيات. كما يقـول الناطور الذي يقوم برعاية قبر فروخ شاه، أحد أبناء شقيق صلاح الدين، في حي زقاق الصخر – الذي يقع خلف الحديقة المواجهة للمتحف الوطني من الشارع المقابل – إنه في أكثر الأحيان يرى الأشباح تحوم ليلاً في ذلك المقام.

إن أول واجهة بناء مبنية بمداميك باللونين الأبيض والأسود (صف الحجـر في البنـاء يسمـى مدمـاك أو مداميـك باصطـلاح البنّـائين. «المترجـم») في دمشق تعود إلى مبنـى أيوبي هو المدرسة القليجية التي

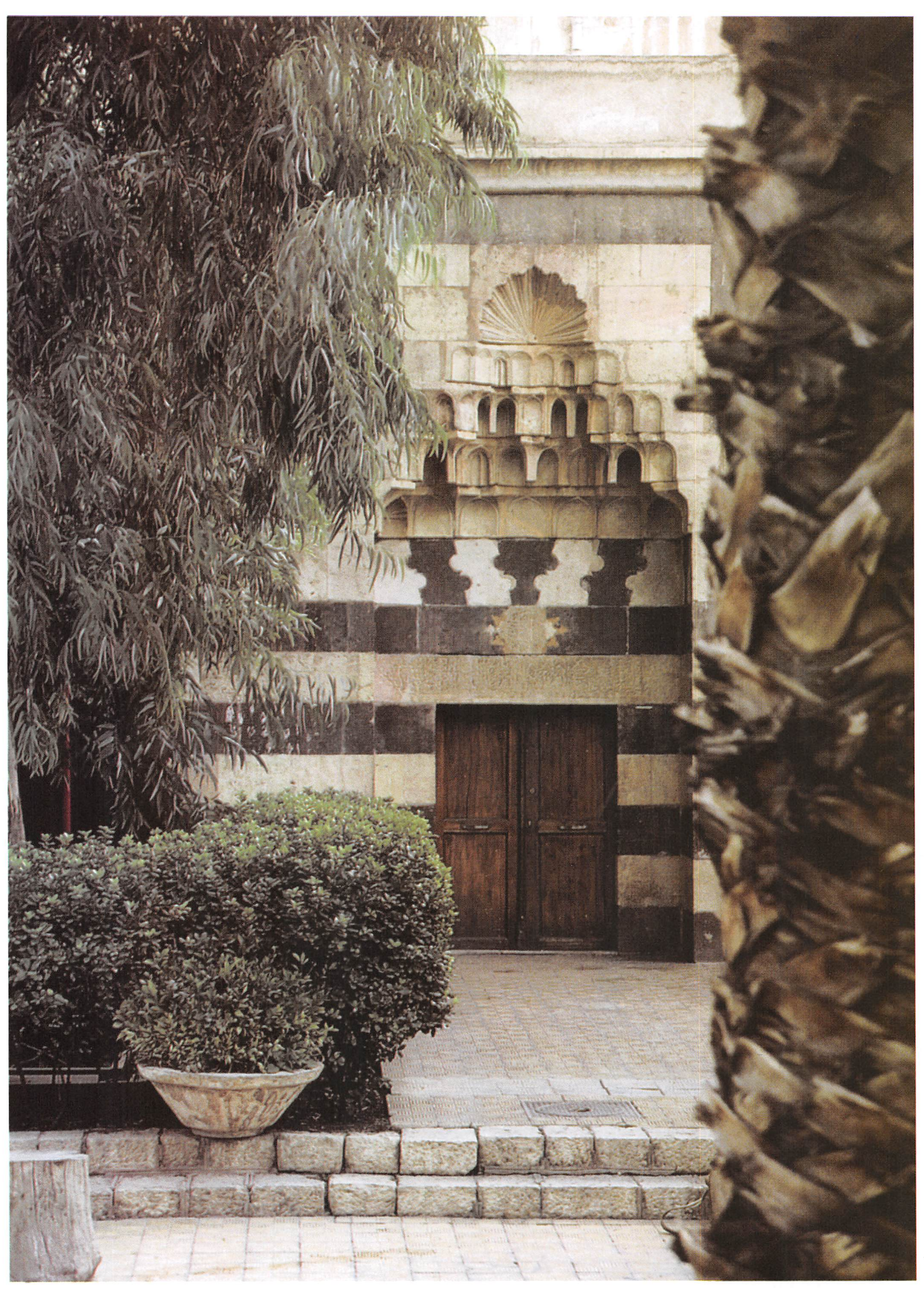
تقع في حارة ضيقة مقابل سوق البزورية. كما أن الحي المزدحم خلف الجامع الأموي المعروف باسم القيمرية قد سمي على اسم أحد النبلاء الأيوبيين الذي بنى مدرسة في تلك المنطقة ومازالت موجودة إلى الآن مع أنه لم يتبق سوى النذر اليسير من فنون عمارتها الأيوبية الأصلية. لكن الأيوبيين شيّدوا معظم أبنيتهم في منطقة الصالحية - ومن تلك الأبنية جامع الحنبلي – واستعملوا فيها الأعمدة والتيجان على النمط الروماني، وهذا ما جعل الكاتب الفرنسي (جيرارد دوجورج) يطلق على منطقة الصالحية لقب «متحف فن العمارة الأيوبية».

في الوقت الذي كان يتصارع فيه كل من أبناء صلاح الدين وأبناء أخوته وأبنائهم وأبناء عمومهم، ظهرت جماعتان جديدتان في الأفق كسحب الرعد التي هزت المنطقة بدويّها. ففي عام ١٢٦٠ اجتاح المغول البلاد من شرقها إلى وسطها وكأنهم جراد بشري ولم يترددوا في قتل ونهب وتخريب كل ما يصادف طريقهم، حيث بدؤوا بتدمير بغداد ثم حلب وأخيراً دمشق. وفي مصر قام جيش العبيد المعروفين بالمماليك الذين خدموا الحاكم (ابن شقيق صلاح الدين) بالانقلاب على أسيادهم واستلموا منهم زمام السلطة في البلاد. وكان المماليك من أشد وأشرس المقاتلين – من الجدير بالذكر أن المماليك أحضروا صغاراً من وسط عائلاتهم في بلدانهم الأم في آسيا الوسطى والقوقاز وتم بيعهم في أسواق الرقيق. لذلك فإن سبيلهم الوحيد لارتقاء السلطة اعتمد على براعتهم العسكرية الفائقة. وكان المماليك معروفين بقسوتهم وذكر أحد الرحالة الأوروبيين بقوله عن المماليك وقد صعقته شراستهم «لا يتورعون عن قتل الشخص بمنتهى البساطة كمن يقوم بقتل دجاجة». لكن هؤلاء المماليك كانوا مناسبين بالفعل لمواجهة المغول الهمجيين. استطاع المماليك بقيادة (بيبرس) - الذي جرى بيعه سابقاً بثمن بخس في سوق الرقيق بدمشق لأن إحدى عينيه كانت تعاني من إعتام في عدستها – دحر المغول عبر نهر الفرات وطاردوا الصليبيين وأخرجوهم من الشرق الأوسط. ولا غرو بأن (بيبرس) قيل أنه أمضى ١٧ سنة من الحكم على صهوة جواده. استعمل (بيبرس)



الصورة في الأعلى: مداميك مملوكية مطلية باللونين الأصفر والأسود في زاوية أبو الشامات.

الصورة في الصفحة المقابلة: المدخل المملوكي الأصلي لجامع يلبغا، وهو موجود الآن في المتحف الوطني.




حمام التيروزي
بناه الامير خليل التيروزي حاجب الحجاب

الصورة في الصفحة السابقة: مداميك نموذجية حجرية بالأبيض والأسود في مدخل حمام التيروزي.

دمشق كقاعدة أثناء القتال في سورية وبنى قصراً عظيماً على ضفة نهر بردى حيث تقع اليوم التكية السليمانية. وعُرف قصر (بيبرس) بقصر الأبلق الذي زينه بمداميك باللونين الأبيض والأسود وكان فيه قاعات من الرخام والسقوف المذهبة. توفي (بيبرس) هناك عام ١٢٧٧ عندما تناول كأساً مسموماً عن طريق الخطأ كان يستهدف به أحد نبلائه. ثم اشترى ابنه منزلاً كبيراً بالقرب من الجامع الأموي. وكان ذلك المنزل سابقاً ملكاً لوالد صلاح الدين الأيوبي وحوله إلى مدرسة دينية عرفت باسم المدرسة الظاهرية ودفن فيها (بيبرس) ووضع رفاته في ضريح بديع الشكل.

لقد عانت دمشق الكثير في عهد المماليك بسبب قسوتهم وعنفهم كمحاربين أشداء، لكنهم أظهروا الطيبة والإذعان في الأمور المتعلقة بالدين الإسلامي. فقد تبرع (بيبرس) شخصياً بالمال للأماكن المقدسة في مكة المكرمة وحفر آبار الماء على طول طريق الحجاج. وفي عام ١٢٦٩ أدى بيبرس فريضة الحج ونفذ بعض أعمال الترميم في الجامع الأموي. فالأبواب البرونزية في الجهة الخلفية من الجامع هي من صنع المماليك ومع أن بعض الزخارف الموجودة على تلك الأبواب قد اختفت مع مرور الزمن إلا أن شعار المماليك «كأس القربان» يمكن رؤيته إلى الآن.

قام نائب مملوكي آخر يدعى (تنكز) بحكم مدينة دمشق بشكل حسن حيث قام بتنظيف وترميم نظام إمداد الماء في المدينة بالإضافة إلى بناء الجسور وتنفيذ بعض أعمال الترميم في الجامع الأموي، كما يعود إليه الفضل في شن حملة للتخلص من الكلاب الشاردة في المدينة. بنى (تنكز) مسجداً ومدرسة لتعليم القرآن (مواجه القليجية الأيوبية) وضريحاً جميلاً لزوجته في الساحة الصغيرة الموجودة قبالة سوق الخياطين.

أما النبلاء المماليك الذين جاؤوا في فترة لاحقة فقاموا ببناء جامع يلبغا (١٣٤٧) وجامع التيروزي (١٤٢٣)، كما شيّد المماليك المدارس والمقابر والحمامات العمومية والجوامع على طول طريق الميدان الذي كان يتخذه الحجاج مركزاً للانطلاق في رحلتهم الكبرى إلى الحج كل عام. ويمكن القول بأنه إذا كانت منطقة الصالحية متحفاً لفن العمارة الأيوبية فلعل الميدان هي متحف فن العمارة المملوكية. لكن الحظ لم يحالف المماليك في الحفاظ على أوابدهم الأثرية حيث لم يتبق منها في حالة سليمة نسبياً سوى مدرسة تنكز لتعليم القرآن. أما ضريح زوجته المعروف بزخارفه الجصية فقد تعرض للتخريب وكذلك الأمر بالنسبة للصروح المملوكية الواقعة في منطقة الميدان، فهي إما مخربة أو أمست ضحية التحديث العمراني الفظيع في تلك المنطقة. علاوة على ذلك فإن جامع يلبغا الذي كان قائماً في ساحة المرجة قد جرى هدمه في سبعينيات القرن العشرين لفسح المجال أمام بناء نسخة جديدة ضخمة من الجامع ولا يزال الهيكل الإسمنتي العملاق قائماً في المكان إلى الآن حيث تأخرت أعمال البناء لأن الأرض التي شيّد عليها هذا المبنى الضخم يبدو بأنها بدأت تنخسف تحته وأخذ المبنى يغوص ببطء في الأرض. أما مدخل جامع يلبغا الأصلي فقد نقل إلى حديقة المتحف الوطني بدمشق بالقرب من المقهى، في حين تحول مسجد تنكز الموجود في شارع ناصر إلى مدرسة عسكرية كما تحول الدار الذي بناه (تنكز) ليكون مقر إقامته والمعروف بقصر الذهب إلى موضع قصر العظم، وهو متحف كبير للفنون والتقاليد الشعبية.

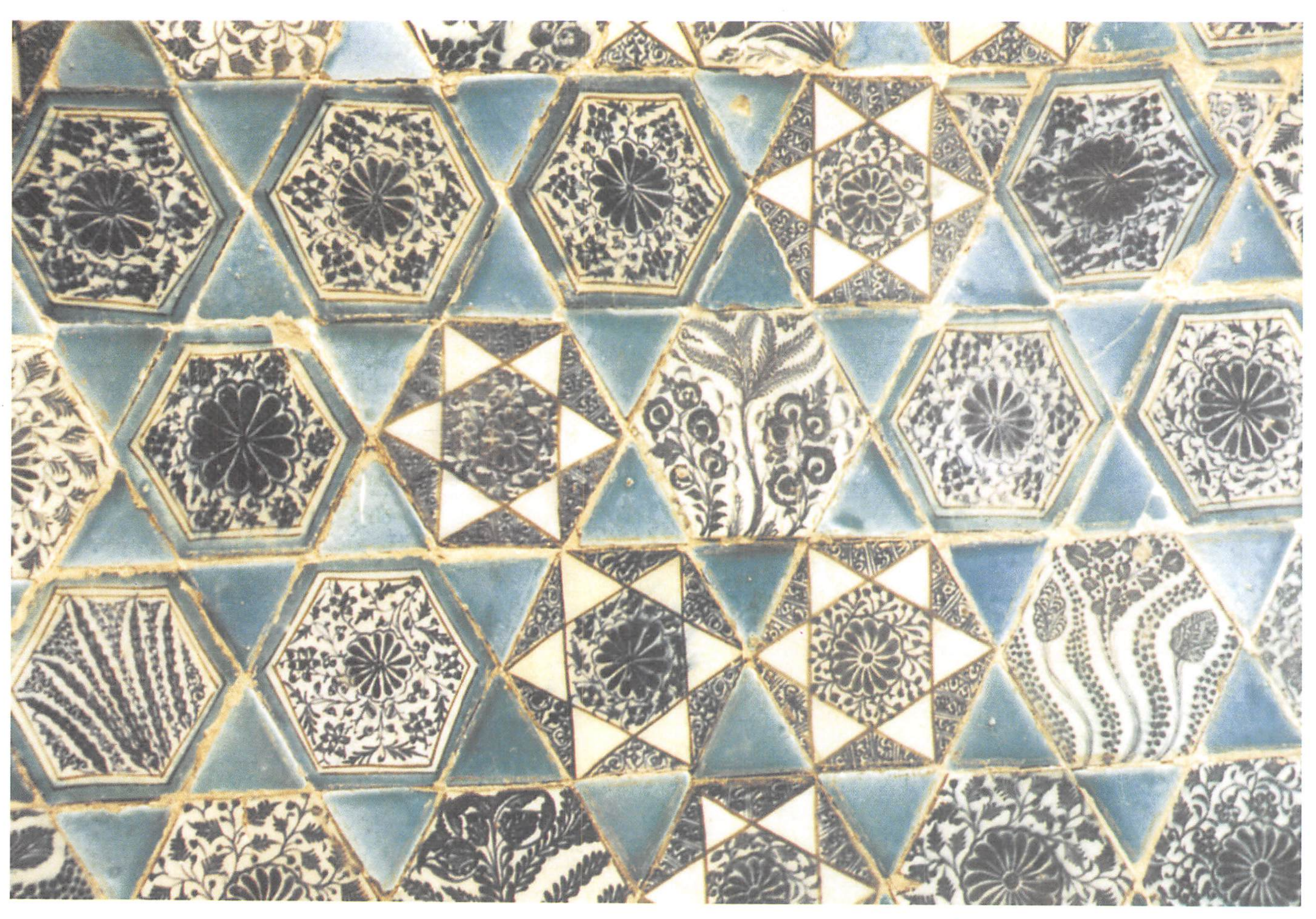
لكن يبدو بأن جامع التيروزي وألواح الخزف العربي الإسلامي (القاشاني) البديعة القديمة والحمام الذي يقع بالقرب منه قد تمت المحافظة عليها بشكل معقول. ولعل الآثار الأقدم التي خلفها المماليك قد تعرضت للخراب على يد المغول (التتر) وذلك عندما أغاروا ثانية على دمشق عام ١٤٠١ بزعامة تيمورلنك فعاثوا فساداً وخراباً في المدينة. وقد ذكر أحد المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة قائلاً «إن دمشق التي كانت مدينة اتسمت بازدهارها وروعتها ومبانيها الفاخرة أمست كومة من الخراب والأنقاض المهجورة وتجردت من جمالها وفنونها وانتشرت على آثار الدمار الجثث التي أصابتها الحروق وغطاها الغبار والذباب وأصبحت فريسة للكلاب». غادر (تيمورلنك) مدينة دمشق بعد ثلاثة شهور وأخذ معه إلى عاصمته في سمرقند الحرفيين وأصحاب الأيدي الماهرة ممن صنعوا نصول السيوف الدمشقية الشهيرة بالإضافة إلى أشهر حرفيي الحياكة وصائغي المجوهرات وحرفيي التطريز وصانعي السجاد وسروج الخيل وغيرها من الحرف والمهن اليدوية واصطحبوا معهم أيضاً الحيوانات ومئات الأسرى، ناهيك عن أعمال السلب والنهب التي ارتكبوها في البلاد.

بعد الحرب الأهلية التي نشبت بين الفصائل المعارضة، عاد المماليك وأسسوا حكمهم من جديد إلى أن تعرضوا لهزيمة نكراء عام ١٥١٦ على يد جماعة جديدة ظهرت على الساحة، ألا وهي العثمانيين.

بنى السباعي، آخر حكام المماليك في دمشق، مدرسة ومسجداً ومدفناً (لنفسه) مقابل مدخل الشارع المستقيم، لكن السباعي استخدم في أبنيته موادا كثيرة أخذها من جوامع أخرى - كالرخام والأعمدة الحجرية وغيرها - ما جعل رجال الدين في دمشق يطلقون على جامع السباعي «جامع الجوامع».

كان العثمانيون بالأصل (الذين أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى زعيمهم الأول «عثمان») من الأتراك القادمين من آسيا الوسطى لكن جيوشهم قامت بغزو نصف أوروبا تقريباً بالإضافة إلى مصر ومعظم البلاد الواقعة في شمال إفريقيا، كما وصلوا إلى بحر قزوين وجنوباً إلى شبه الجزيرة العربية. هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف التي

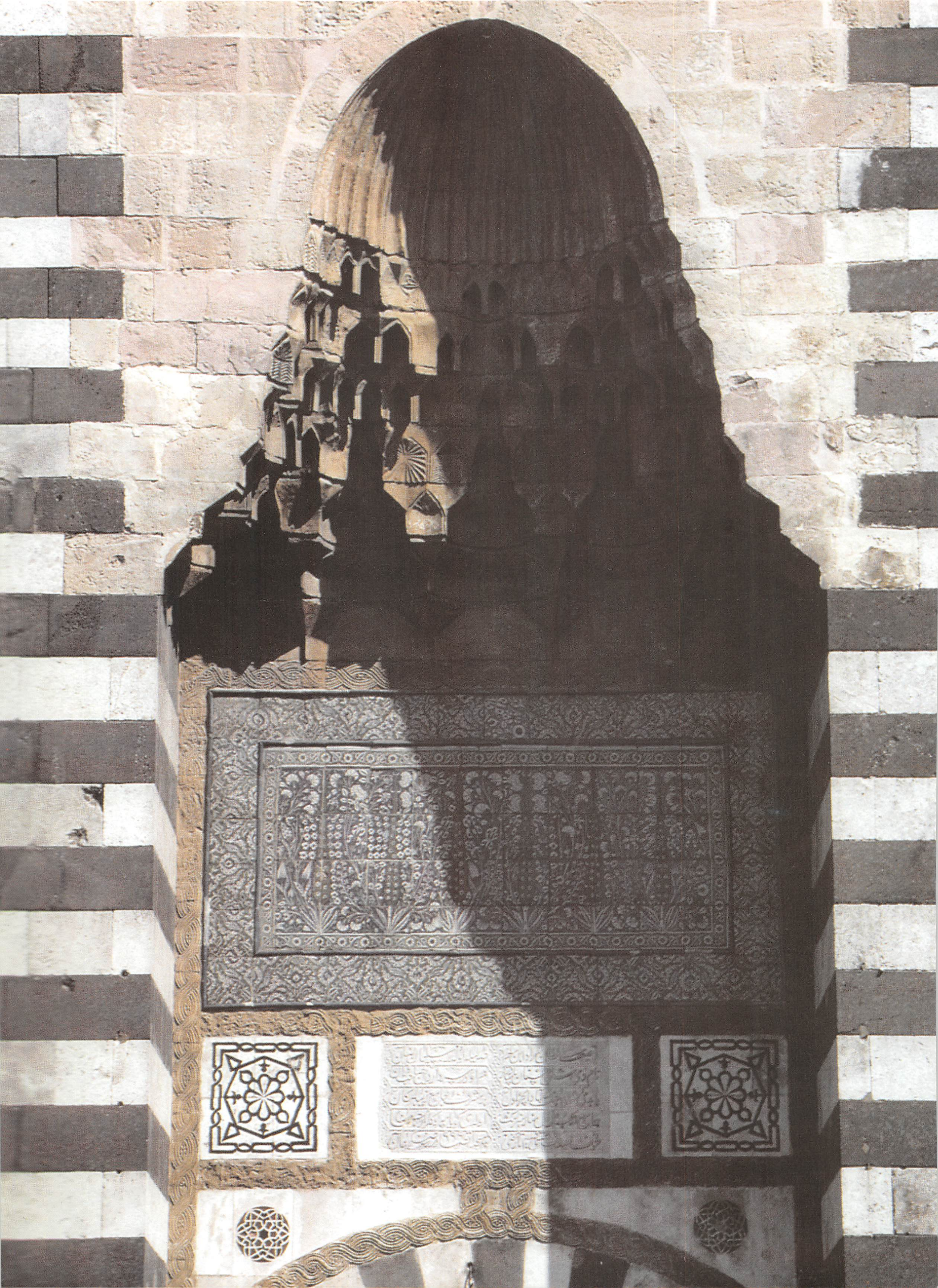
ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني)



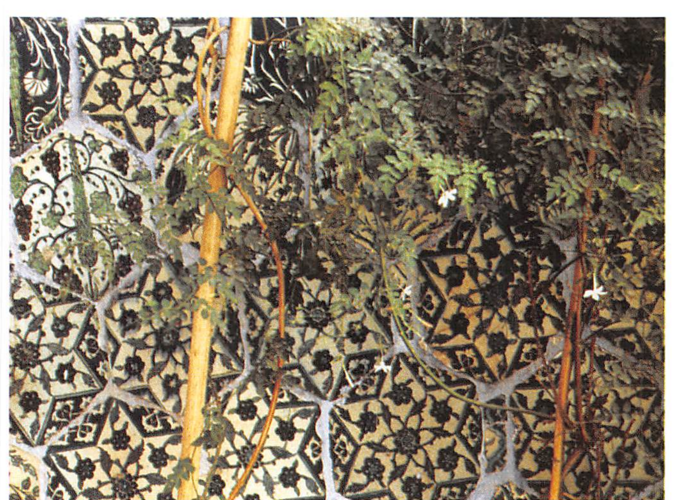
إن أقدم ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني) التي نشاهدها في دمشق في الزمن الحاضر صنعت على الأرجح في عهد المماليك على يد عمال جاؤوا من إيران. ومن أبدع النماذج عن تلك الألواح موجودة إلى الآن في جامع التيروزي. أرسل السلطان العثماني سليمان البلاطين من تركيا بغرض ترميم قبة الصخرة في القدس بالإضافة إلى تنفيذ بعض الأعمال في التكية الجديدة في دمشق، حيث مكث هؤلاء البلاطون فيها لتنفيذ بعض المهام الأخرى مسجلين بذلك ولادة صناعة الألواح الخزفية الزخرفية في دمشق. وازدهرت هذه الصناعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ومع أن الألواح الزخرفية الدمشقية (القاشاني) لم ترق إلى مستوى روعة الألواح الموجودة في (إيزنك) بتركيا إلا أنها اكتسبت سحراً خاصاً بها. ويمكن رؤية أعمال الألواح الزخرفية السورية في لندن في دار «لايتون» ومتحف «فيكتوريا وألبرت».

الصورة في الأعلى: ألواح خزف زخرفية (قاشاني) بديعة باللونين الأزرق والأبيض في جامع التيروزي صنعت في عشرينيات القرن الخامس عشر.

الصورة في الصفحة المقابلة: تلاقح وتناغم رائعان بين الزخرفة الحجرية وألواح القاشاني الزخرفية في مدخل جامع سنان باشا المبني في أواخر القرن السادس عشر.



ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني)



الصورة في الأعلى: ألواح زخرفية (قاشانية) دمشقية من أواخر القرن السادس عشر في باحة جامع درويش باشا.

الصورة في الصفحة المقابلة: جدار رائع من ألواح خزف زخرفية (قاشانية) من القرن السادس عشر في مقام الشيخ محي الدين ابن عربي.


محمد
الله
محمد ابو بكر عمر
العزة لله
علي
عثمان



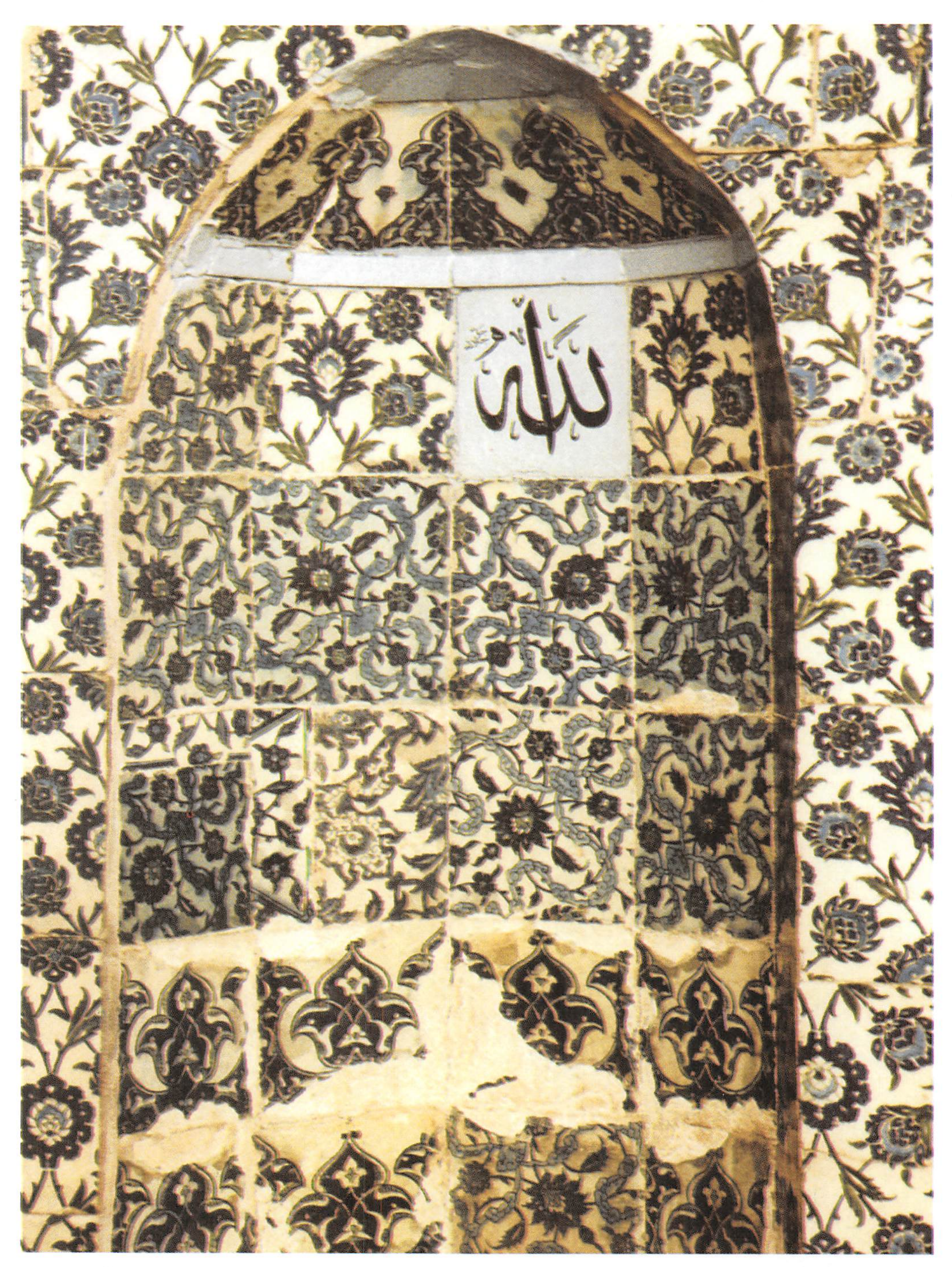
ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني)



الصورة في الأعلى: ألواح خزف زخرفية (قاشانية) دمشقية في قبر صلاح الدين يعود تاريخها إلى أعمال ترميم جرت في القرن السابع عشر.

الصورة في الصفحة المقابلة: ألواح خزف زخرفية (قاشانية) دمشقية قديمة ومدفأة أعيد استعمالها في بيت عرقتنجي في ثلاثينيات القرن العشرين.

ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني)



الصورة في الأعلى: محراب مصنوع من ألواح الخزف الزخرفية (القاشانية) في جامع درويش باشا.

الصورة في الصفحة المقابلة: لوحة جدارية من ألواح الخزف الزخرفية (القاشاني) الدمشقية تشبه شكل المحراب في جامع درويش باشا.


الله
یا ناظرا المثال نعل نبیه
قبل مثال النعل لا متکبرا
وامسح بوجهك نعلا اذ مسته
قدم النبی مروحا ومبکرا

أسسها العثمانيون حكمها السلطان قسطنطين لكن المسؤولين الأتراك التابعين له جاؤوا من أصقاع مختلفة: ألبانيا وبلاد الصرب واليونان وغيرها. وقد ذكرت الرحالة (غيرترود بيل) عام ١٩٠٥ بقولها «عندما نتحدث في أوروبا عن تركيا كما لو أنها كانت إمبراطورية متجانسة، فإن ذلك يشبه حديثنا عن الإمبراطورية البريطانية التي تضم في أرجائها الهند ودول الشانيين وهونغ كونغ وأوغندة». وقد تبين بأن دم السلطان نفسه لم يحتوِ إلا على النذر اليسير من الأصل التركي ويعود السبب في ذلك إلى أسلافه الذين ارتبطوا بالزوجات والخليلات الأجنبيات.

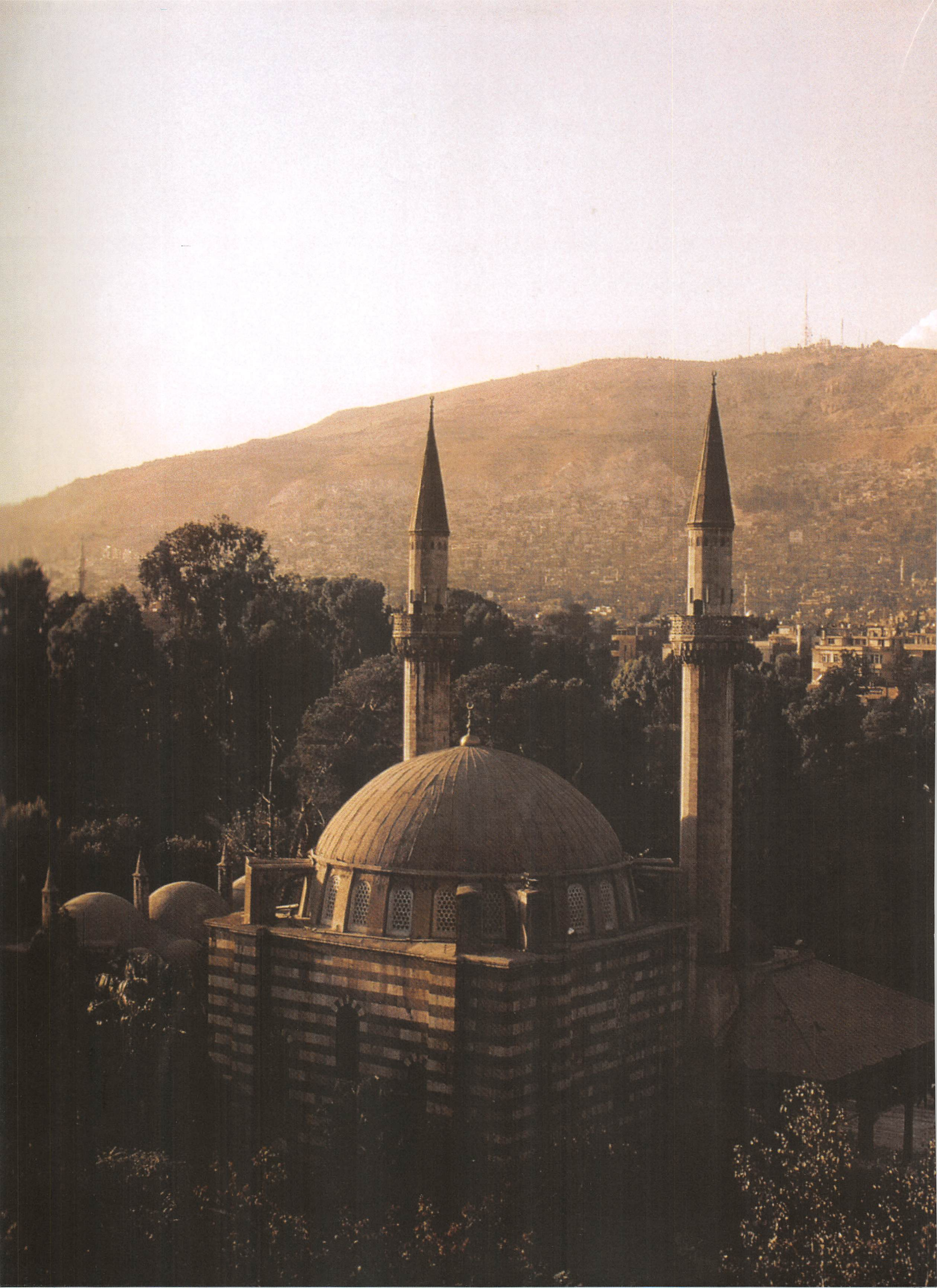
دخل السلطان العثماني سليم الأول مدينة دمشق في خريف ١٥١٧ وظهر في اليوم التالي في صلاة الجمعة في الجامع الأموي حيث أعلن القاضي الأول بأن السلطان سليم الأول هو «خادم الحرمين الشريفين»: مكة المكرمة والمدينة المنورة. لم تكن تلك الكلمات التي تفوه بها القاضي مجرد مفردات طنانة أو رنانة لأن دور عاهل الأماكن المقدسة في الإسلام أسند إلى السلاطين العثمانيين مسؤولية الحفاظ على سلامة الحج السنوي إلى مكة المكرمة، كما مُنحت دمشق أهمية محورية كبيرة في العالم الإسلامي لأنها كانت تعدّ الميناء الأخير قبل الصحراء فأصبحت نقطة التجمع الرسمية للحجاج القادمين من الشمال والأصقاع البعيدة كالصين في الشرق. لذلك كان تقييم الولاة العثمانيين الذي حكموا دمشق لاحقاً يُقاس بمقدرتهم على تأمين سلامة الحج أكثر من أية ناحية أخرى في حكمهم.

إن أول ما قام به السلطان سليم الأول تمثل في تنظيم بناء الجامع الجديد المبني على موضع قبر الصوفي الأندلسي الشيخ محي الدين (المعروف أيضاً بابن عربي) في حي الصالحية. وقد أنجز بناء الجامع من أجل السلطان سليم كي يؤدي فيه الصلاة قبل أربعة شهور من مغادرته مدينة دمشق. ولايزال الجامع قائماً إلى الآن بضريحه المزين بألواح الخزف الزخرفية الدمشقية (القاشاني) البديعة باللونين الأبيض والأزرق، لاسيما الجو اللطيف الذي يخيم على الجامع حيث يؤمه الحجاج لأداء الصلاة والدعاء. ويقع بالقرب من جامع محي الدين سوق الجمعة – وأطلق عليه هذا الاسم لأن محلاته التجارية تفتح يوم الجمعة الذي تغلق فيه باقي أسواق المدينة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان سليم أمر بإجراء إحصاء لسكان مدينة دمشق بغرض جمع الضرائب وبين ذلك الإحصاء أن عدد سكان



الصورة في الأعلى: رجال يتوضؤون قبل أداء صلاة الظهر في الباحة الجميلة بجامع الوالي العثماني سنان باشا.

الصورة في الصفحة المقابلة: التكية السليمانية ومآذنها المدببة المشيّدة على الطراز التركي والتي تشبه أقلام الرصاص في شكلها، وهي من تصميم المعماري الشهير سنان وشيّدت في منتصف القرن السادس عشر.





المدينة في ذلك الزمن وصل إلى ٥٥ ألف نسمة. عاد السلطان سليم إلى القسطنطينية وترك مكانه والياً عثمانياً وقاضي قضاة وأمين خزينة المدينة وعدداً من الجنود وبعض الموظفين المدنيين العثمانيين. وجرت العادة على تبديل هؤلاء الحكام على نحو متكرر للحيلولة دون تعاظم نفوذهم بحيث لا تتجاوز فترة حكم الوالي مدة السنة الواحدة.

خلف السلطان سليم في حكمه ابنه سليمان (والذي كان معروفاً بلقب «البديع»). ولعل دمشق تدين له بأجمل وأروع مبانيها: التكية السليمانية التي صممها المعماري التركي الشهير سنان وشيّدت على الموضع الذي انتصب فيه قصر الأبلق الذي بناه (بيبرس) ثم دمره تيمورلنك. وقد شيّدت التكية السليمانية من أجل الحجاج الذين اعتادوا التخييم في البساتين المطلة على طول نهر بردى. وقد وصفها (جوسياس بورتر) في «دليل المسافرين إلى سورية وفلسطين» الصادر عام ١٨٥٨ بأنها «بقعة جميلة ومفعمة بالحياة بوجود قوافل الحجاج التي تخيم فيها بخيولهم وجمالهم وخيامهم وأزيائهم المختلفة، منوهاً إلى أن بعض الأماكن في المدينة القديمة تستحق الزيارة».

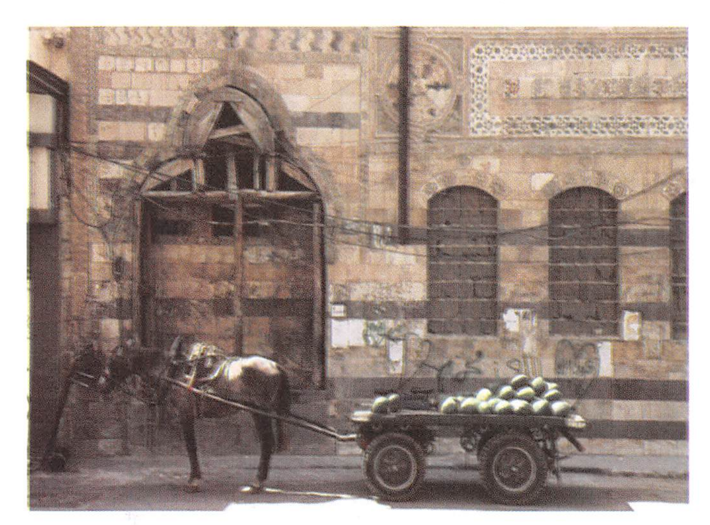
لقد وفر مجمع التكية السليمانية مكاناً مناسباً للحجاج لأداء الصلاة وتناول الطعام والمعالجة الطبية. كما وصفها الرحالة البريطاني (جون غرين) عام ١٧٣٦ بأنها «مستشفى ضخم أو فندق كبير تبيت فيه القوافل، وجوّه يشبه جو الدير. يتألف الطابق الأول من أروقة تستند إلى أعمدة رخامية وتحيط بباحة كبيرة مربعة الشكل. أما الغرف فهي موزعة كما في المهاجع، أي الغرفة تلو الأخرى. والباحة مرصوفة بالرخام الملون يتوسطها حوض رخامي كبير يُزوَد بالماء من نهر بردى».

ثم جاء السلطان سليم الثاني بن سليمان البديع الذي خلفه في الحكم ليضيف على مجمع التكية السليمانية مدرسة تحولت الآن إلى سوق للصناعات اليدوية الجميلة.

بالرغم من الفترة القصيرة نسبياً التي كان يُعين فيها الولاة العثمانيون إلا أنهم استطاعوا بناء العديد من الجوامع والخانات والأسواق التي مازلنا نشاهدها في دمشق إلى الآن. فدرويش باشا، الذي كان الوزير الأول في القسطنطينية، عُيّن والياً على دمشق عام ١٥٧١ حيث بنى جامعاً معروفاً بجمال ألواحه الخزفية الزخرفية (القاشاني). دُفن درويش باشا في ذلك الجامع الذي يحمل اسمه ويقع على الطريق المؤدي إلى مدخل الشارع المستقيم. كما قام درويش باشا ببناء خان الحرير – الذي لايزال قائماً إلى الآن – مع أنه أصبح كالعديد من الخانات الأخرى بقعة تخنقها المحال التجارية المجاورة وتسود عليها فوضى وضوضاء العصر الحديث. أما سنان باشا (وهو غير سنان المعماري) الذي كان سابقاً الوزير الأول في تركيا، عين والياً على دمشق عام ١٥٨٧ حيث شيّد فيها مباني عديدة لكن أشهر إنجازاته تمثلت في بناء جامع سنان باشا الجميل وخصوصاً مئذنته

الصورة في الصفحة السابقة: داخل أحد المباني في دمشق: المدرسة الفتحية في القيمرية التي أنشئت عام ١٧٤٣.

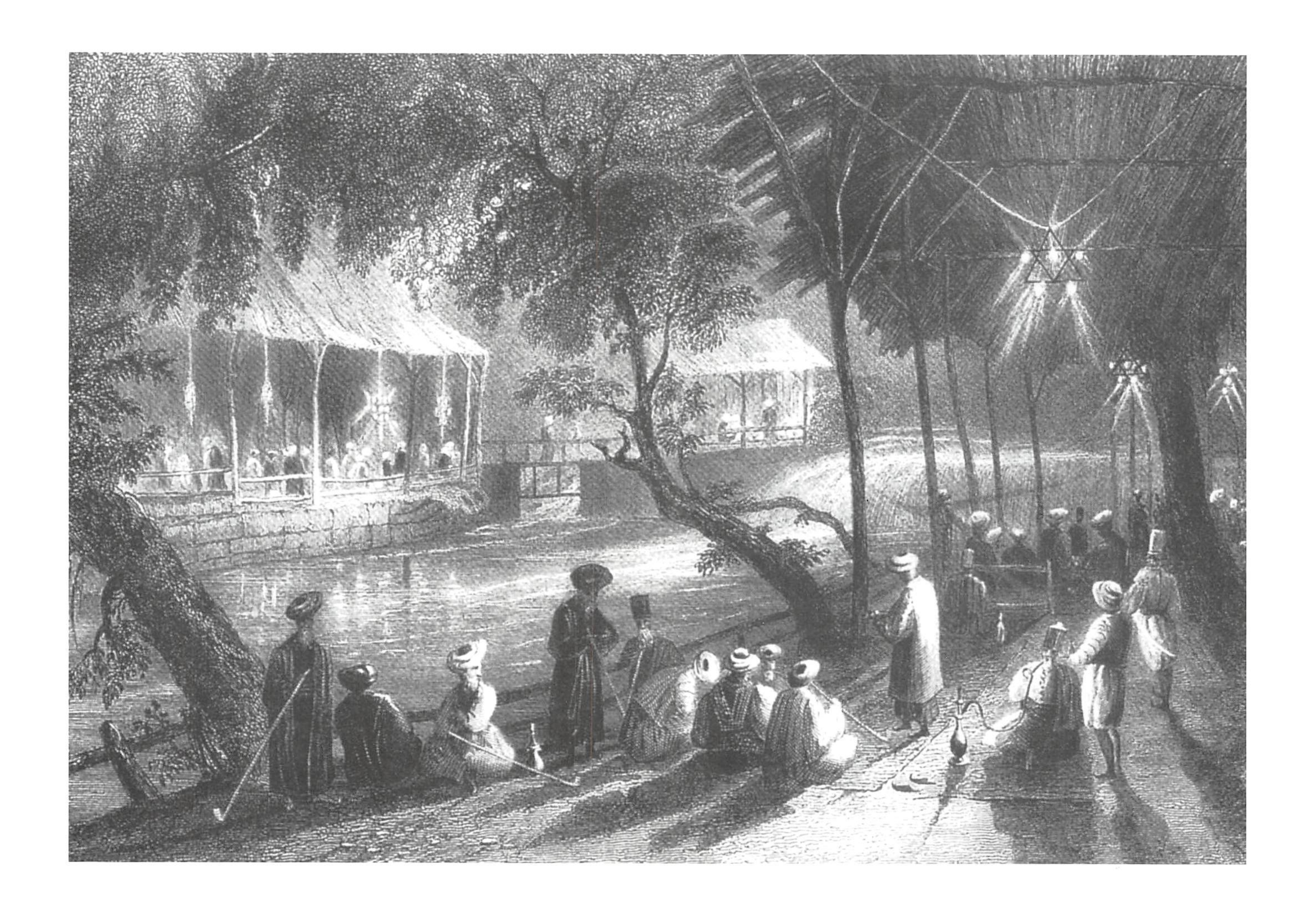
الصورة في الأسفل: الواجهة التي كانت جميلة سابقاً للحمام الذي بناه فتحي قلانسي في الميدان.



المكسوة بالألواح الزخرفية (القاشاني) الخضراء، ووصفته إيزابيل بيرتون بأنه «أجمل جامع في المدينة»، لكن المبنى المنافس لجامع سنان باشا من حيث الجمال هو المدرسة الفتحية الواقعة في حي القيمرية خلف الجامع الأموي. بُنيت هذه المدرسة الدينية والجامع في آن واحد عام ١٧٤٣ على يد أكثر الشخصيات غرابة في دمشق: (فتحي قلانسي)، وهو رجل من عائلة كانت تعمل في مجال الحياكة. أصبح فتحي «دفتردار» (أمين الخزينة) وتعاظم نفوذه حتى بات يُعرف باسم سلطان دمشق. ويبدو بأنه كان من أصحاب الذوق الرفيع فمسجده كان في غاية الجمال والأناقة كما أن الحمام الذي بناه على طريق الميدان مازالت واجهته حسنة المظهر مع أن مبنى الحمام من الداخل قد أهمل على مرّ السنين.

كان فتحي معروفاً بخيلائه وبشعبيته ونفوذه الكبير في وجه الوالي حينذاك، سليمان باشا العظم. فعلى سبيل المثال، كان حفل الزفاف الذي أقامه فتحي لابنته بعد أيام قليلة فقط من الحفل المتواضع الذي أقامه الوالي احتفالاً بختان ولده احتفالاً مهيباً وعظيما بالمقارنة مع حفل الوالي. وضم احتفال زفاف ابنة فتحي – الذي استمر سبعة أيام بلياليها – مجموعات مختلفة من المدعوين في كل يوم من الأيام السبعة: الوالي وأعوانه ورجال الدين والقادة العسكريين والتجار والنصارى واليهود والفلاحين.

كان فتحي يتصرف وكأنه الوالي بذاته فيقوم بتعبيد الطرقات وإصلاح المساجد والجوامع وكان يطمح إلى أن يصبح والياً على دمشق لدرجة أنه كان بمثابة الشوكة في خاصرة أسعد باشا العظم وسليمان الذي خلفه في حكم دمشق إلى أن تلقى أسعد باشا العظم إذناً من السلطان للتخلص منه (على الأرجح لأنه وعد السلطان بألف كيس من ثروة فتحي إذا أجهز عليه.)



كان آل العظم من أشهر الولاة العثمانيين الذين حكموا دمشق، مع أن هذه العائلة أصبحت سلالة حاكمة صغيرة تتناوب على حكم دمشق بشكل متقطع على امتداد ٣٧ سنة في القرن الثامن عشر ولم تعد تنتمي إلى العثمانيين وإنما أصبحت سلالة سورية صغيرة حاكمة من بلدة معرة النعمان بعد أن أتاح لها السلطان فرصة السيطرة على القبائل الصحراوية. كان إسماعيل العظم أول أفراد عائلة العظم الذين حكموا دمشق، حيث بنى مدرسة وحماماً عمومياً ومقهى في سوق الخياطين، علماً بأن فكرة إنشاء المقهى في دمشق ظهرت في القرن السادس عشر وازدهرت تلك المقاهي بعدها بشكل كبير. وقد أشار القنصل البريطاني لدى دمشق عام ١٨٣٨ بقوله عن تلك المقاهي «إن وسائل الترفيه بالنسبة للطبقة العاملة بسيطة وهادئة حيث انحصرت إمكانية التدخين علناً بالذكور فقط..». اكتسبت المقاهي في دمشق شهرة واسعة حتى كتب عنها كل من زار المدينة، لاسيما تلك المقاهي الواقعة على ضفاف نهر بردى. ووصفها (هنري موندريل) الذي زار سورية عام ١٦٩٧ بقوله «يتسع المقهى لأربعمئة أو خمسمئة شخص.. حيث تجري جداول الماء من كل جهاته، بينما تغطيه الأشجار وأرضه مفروشة بحصائر مصنوعة من القش. وقد شاهدنا عدداً من الأتراك يجلسون على الأرائك يستمتعون بوقتهم في ذلك المكان اللطيف». كما كتبت إيزابيل بيرتون عن مقهى مماثل حيث شاهدت الناس يستمعون إلى «الحكواتي» بينما يرتشفون القهوة من فناجين صغيرة ويدخنون النارجيلة. وفي مقهى النوفرة الذي يقع خلف الجامع الأموي مازال آخر حكواتي دمشقي يستأثر باهتمام المسنين من الحضور في الأمسيات التي يروي فيها حكاياته التقليدية. (تدور إحدى تلك القصص عن قصة حب بين عنترة وعبلة وتشبه إلى حد بعيد مسرحية عطيل لشكسبير).

خلف إسماعيل العظم في حكم دمشق ابنه سليمان الذي بنى الخان الضخم في الشارع المستقيم وسُمي بخان سليمان (وهو حالياً تحت الترميم) نسبة إلى الوالي سليمان. كان يُستعمل ذلك الخان لحفظ البوتاس (هيدروكسيد البوتاسيوم) الذي شكل أهم الصادرات السورية حينذاك، وخصوصاً إلى مصنعي الصابون والزجاج في مرسيليا. اعتمد إنتاج البوتاس على إحراق عشبة معينة تنمو في سورية وبما أن سليمان كان الوالي فقد احتكر تلك التجارة.



الصورة في الصفحة المقابلة: ظهرت المقاهي في دمشق في القرن السادس عشر ومن أكثر المواقع المحبذة لإقامة المقاهي عليها هي ضفة النهر كما هو واضح في اللوحة التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر.

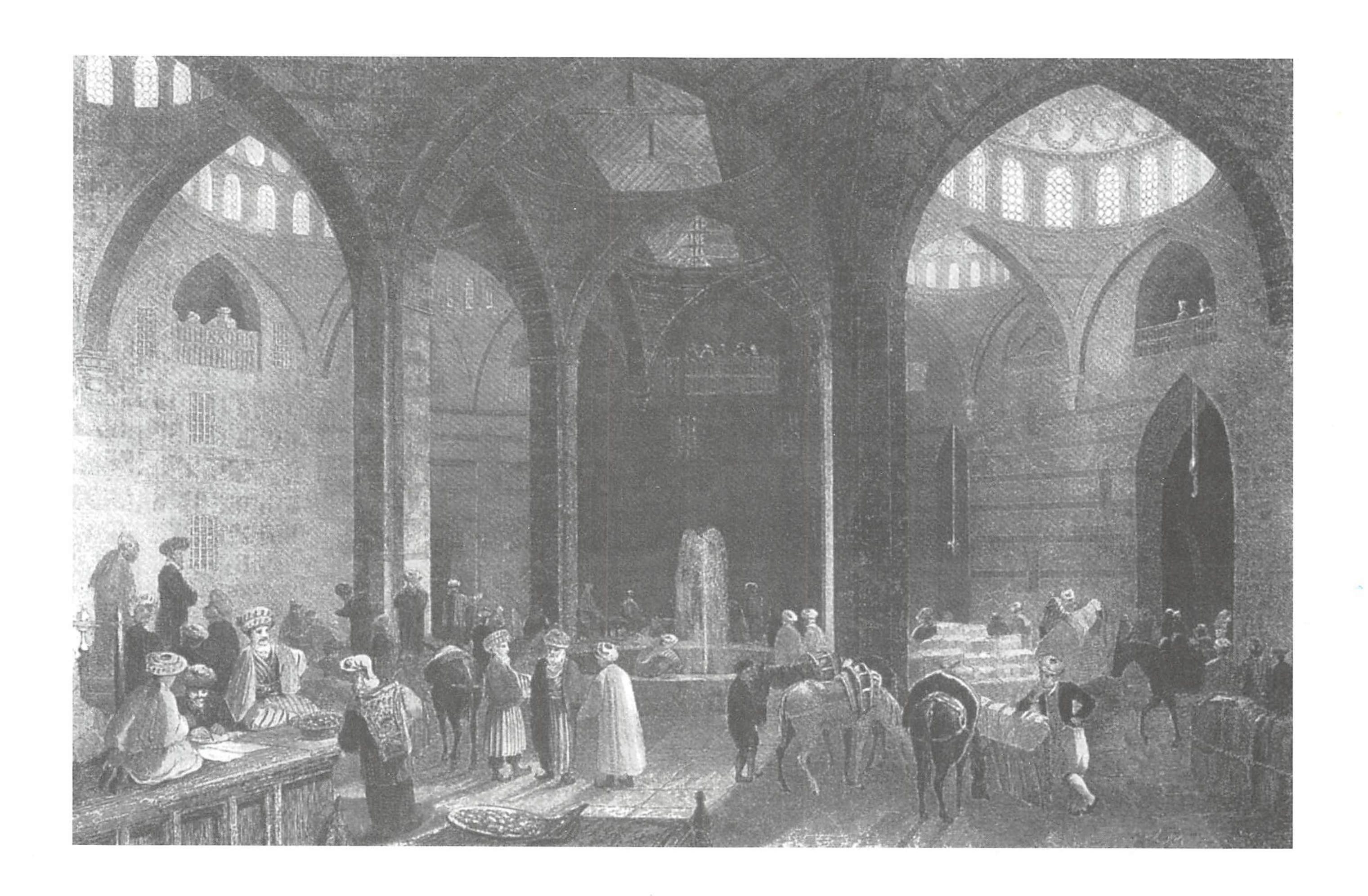
الصورة في الأعلى: النوفرة من أشهر المقاهي الموجودة في دمشق وتقع خلف الجامع الأموي. يظهر مقهى النوفرة إلى اليمين في هذه الصورة وقد أغلق أبوابه عند التقاط الصورة في الصباح الباكر.

الصورة في اليمين: مخطط الطابق العلوي من خان أسعد باشا. الباحة الموجودة في الوسط تحيط بها الغرف والمحلات التجارية والمكاتب.

الصورة في الصفحة التالية: منظر رائع للأقواس ذات المداميك والقبب المزينة بالرسوم التي جرى ترميمها مؤخراً في خان أسعد باشا.







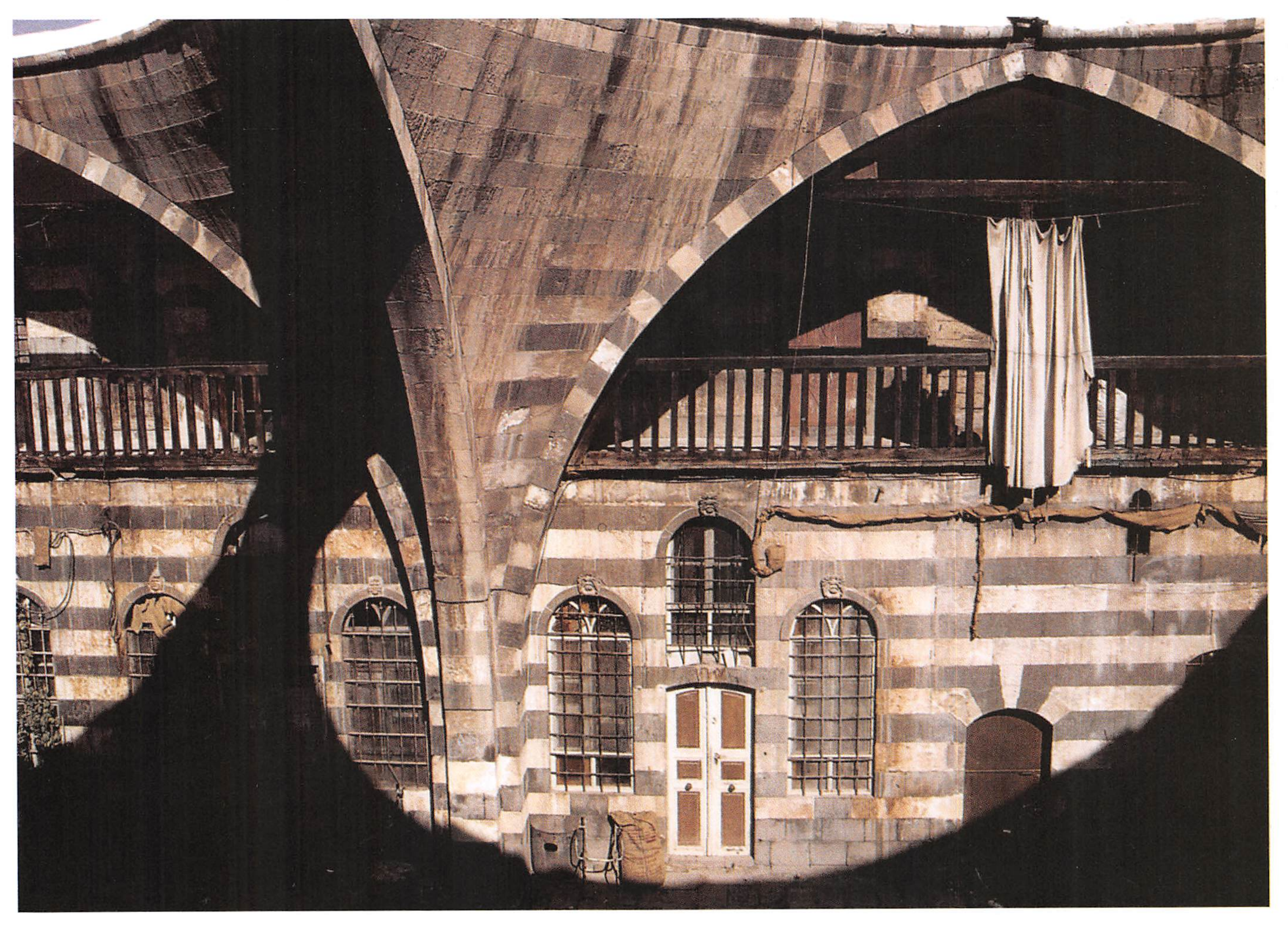
دخل أسعد باشا شقيق سليمان إلى دمشق عام ١٧٤٣ والياً أيضاً وظل ممسكاً بزمام السلطة لفترة لم يسبق لها مثيل حين امتدت فترة حكمه إلى ١٤ سنة كان مسؤولاً خلالها عن أهم بناءين في المدينة: قصر العظم – الذي سيأتي وصفه في الجزء الثاني من هذا الكتاب – وخان أسعد باشا في سوق البزورية. إن هذا الخان المثير بمساحته الواسعة تحت الأقواس السامقة المزينة بمداميك بالأبيض والأسود يكاد يكون مكاناً خيالياً. فعندما وقع عليه نظر (ألفونس دو لامارتين) عام ١٨٣٣ وصفه قائلاً «إن الشعب الذي يضم بين أبنائه معماريين وعمال قادرين على تصميم وبناء هكذا صرح لا يمكن أن يصبح مجرداً من الفن في يوم من الأيام». وفي عام ١٧٥٩، أي بعد سبع سنوات من إنجاز بناء خان أسعد باشا، ضرب زلزال عنيف مدينة دمشق مما أدى إلى انهيار ثلاث من قبب الخان فعمدوا إلى سدّ مكانها بالخشب. لقد كان خان أسعد باشا الضخم في أوجه فندقاً ومركزاً تجارياً ومستودعاً وتطل فيه المحلات والدكاكين على الباحة في الطابق الأرضي، بينما احتلت المكاتب الطابق الأول منه. وأشار لامارتين إلى أن كل واحد من تجار دمشق البارزين استأجر غرفة في ذلك الخان. وقال تشارلز أديسون، وهو رحالة بريطاني زار دمشق بعد سنتين من زيارة لامارتين، «يوجد في هذا الخان تاجران إنكليزيان مقيمان في دمشق». وقد حافظ الخان على دوره الأصلي في مطلع القرن العشرين ثم جرى ترميمه في التسعينيات.

أما مستقبله فقد كان موضعاً للجدل ثم تقرر آخر الأمر عام ١٩٩٨ تحويله إلى متحف دمشق للتاريخ الطبيعي مع أن العديد من الناس كانوا يفضلون مشاهدته كمقهى تقليدي تزينه المحلات التجارية.

طالت فترة حكم أسعد باشا لأنه تمكن من ترتيب شؤون الحج إلى مكة المكرمة كل سنة على أفضل وجه، وكذلك الأمر بالنسبة لعودة الحجاج دون مشكلات تذكر، وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لسمعة وهيبة السلطان العثماني بصفته زعيماً للعالم الإسلامي. كما كانت سلامة الحج لها أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية. وبمعزل عما يأخذه كل حاج بغرض بيعه في طريق رحلته إلى الحج كي يسدد قسماً من نفقات تلك الرحلة الطويلة، اعتاد العديد من التجار مرافقة قافلة الحجاج من أجل العبور الآمن الذي توفره مسيرة الحجاج عبر الصحراء. كان التجار يحملون معهم إلى مكة الحبوب وزيت الزيتون والأسلحة والمنسوجات والصابون والفواكه المجففة. أما في طريق العودة لم يأت هؤلاء التجار بالبضائع - كالقهوة - من شبه الجزيرة العربية فحسب، بل من الهند أيضاً: الموصلين (وهو نسيج قطني رقيق) والحرير والصوف الكشميري والمعادن الثمينة والتوابل والأدوية والنيلة والكافور والمسك العربي، ثم كان يباع قسم من تلك البضائع من دمشق إلى استنبول ثم تجد بعد ذلك طريقها إلى الغرب.

إن الحج إلى مكة المكرمة هو أحد الفرائض والأركان الخمسة في الدين الإسلامي بعد الشهادة والصيام والصلاة والزكاة. وقد علق الباحث البريطاني (غاي لوسترينج) في القرن التاسع عشر على موضوع الحج بقوله «إن فريضة الحج تجعل من كل مسلم رحالة لمرة واحدة على الأقل في حياته»ومنذ فتح العرب دمشق عام ٦٣٥ ميلادية، اعتاد الحجاج التجمع في دمشق كل سنة للقيام معاً بتلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلى مكة. وفي الحقيقة إن العديد من الروايات والوصف للآثار والحياة في دمشق في الماضي البعيد إنما تأتي من كتاب قاموا بالرحلة بأنفسهم إلى دمشق بما أنها كانت نقطة الانطلاق إلى الحج (نذكر منهم ابن جبير الذي جاء من إسبانيا عام ١١٨٥ وابن بطوطة القادم من شمال إفريقيا عام ١٣٥٥).

وفي عهد العثمانيين أصبح الحج أمراً أكثر تنظيماً، فقد كان ولاة دمشق يُعفَون من مهمة مرافقة السلطان في حملاته ويعينون بدلاً من ذلك بمنصب «أمير الحج» الذي كان يسافر أحياناً مع الحجاج ويأخذ على عاتقه مسؤولية سلامتهم بشكل كامل ولم يكن ذلك بالمهمة السهلة بما أن الصحراء كانت مليئة بقطاعي الطرق البدو الذين تضطر قوافل الحجاج والتجار إما لإرضائهم بدفع المال أو تقديم بعض البضائع أو مواجهتهم بالقتال. كان هؤلاء البدو يرتكبون أحياناً أفعالاً لا رحمة فيها حيث يعملون على سد آبار الماء سراً للقضاء على الحجاج من شدة العطش ثم سلبهم كل ما بحوزتهم وتركهم عراة إلى أن يفارقوا الحياة في الصحراء. ويبدو أن الخطر الذي كان يشكله البدو استمر إلى فترة ليست ببعيدة جداً تعود إلى عام ١٩٢٧. فقد شاهد مسافر أمريكي يدعى (ويليام سيبرووك) كان نزيلاً في فندق فكتوريا بدمشق، شاهد زوجاً من السائحين ينطلقان في رحلة بواسطة السيارة. ولكن بعد ساعات قليلة عاد السائحان، وقال (سيبرووك) في ذلك «جاء الرجل ماشياً حافي القدمين وشبه عار باستثناء لباسه الداخلي، بينما ركبت زوجته حماراً استعاراه من طرف المدينة ويبدو بأنهم سمحوا لها بالاحتفاظ بتنورتها وقميصها. لقد استطاع الزوجان العودة لأنهما اتخذا قراراً صائباً بعدم المقاومة».



الصورة في الصفحة السابقة: خان أسعد باشا كما يبدو في رسم محفور في القرن التاسع عشر وقد ازدحم الخان بالتجار والبضائع.

الصورة في الأعلى: خان سليمان باشا قبالة الشارع المستقيم. تجري حالياً أعمال الترميم على الخان.

الصورة في الصفحة التالية: خان سليمان باشا قبالة الشارع المستقيم. تجري حالياً أعمال الترميم على الخان.





لم يقع الحجاج تحت رحمة قطاعين الطرق البدو فحسب، بل عانوا أيضاً من عوامل الطبيعة القاسية حيث كانوا يتعرضون أحياناً للسيول الجارفة أو العواصف الثلجية التي تقضي على قوافلهم، أو حرارة الطقس الرهيبة التي تنهك قواهم. وكانت قوافل الحجاج أحياناً تضل طريقها بالكامل، وهذا ما جعل العديد من الحجاج في عداد المفقودين ممن لم يرجعوا أبداً إلى أوطانهم. ففي عام ١٦٩٤ توفي يوسف النابلسي في إحدى ليالي الصيف بين ذراعي شقيقه عبد الغني، وهو أحد الصوفيين المعروفين في دمشق، لكن القافلة التي كانت تتابع مسيرها ليلاً بسبب الحر الشديد لم تتوقف لدفن الميت، حيث كانت الجثث في ظروف كهذه تنقل على الدواب من أجل دفنها في المحطة التالية.

كان أداء الحج أمراً يتطلب الشجاعة، وفي كل مرة تغادر فيها قافلة الحجاج كانت دمشق تنتظر بفارغ الصبر أن تسمع عن مصيرها. وفي طريق عودة القافلة كان يأتي رسول خاص ليعلم أهالي دمشق بأن الحجاج في طريق العودة فيخرج سكان المدينة جميعاً لاستقبالهم والاحتفال بعودتهم كما يُستقبل الأبطال.

كانت الرحلة من دمشق إلى مكة المكرمة تستغرق خمسة وثلاثين يوماً سيراً على الأقدام بسرعة لا تتجاوز ثلاثة كيلومترات في الساعة تقريباً، بالإضافة إلى خمسة وثلاثين يوماً للعودة ثانية بعد أسبوع من أداء مراسم الحج وعيد الأضحى. اختلف عدد الحجاج من عام لآخر لكن العدد الأكبر كان يصل أحياناً إلى نحو عشرين ألف شخص ينطلقون في رحلتهم مع آلاف الحمير والجمال والخيول التي تتبعهم على امتداد أميال عديدة في الصحراء. وفي مؤخرة القافلة كانت تسير مجموعة من الرجال مهمتها التأكد من عدم وجود التائهين، بينما تتبعها قطعان الضباع وابن آوى التي تقتات على الفضلات. فالمخاطر كانت جسيمة. في عام ١٧١١، على سبيل المثال، وصل ألفا حاج فارسي إلى دمشق فوجدوا بأن القافلة قد غادرت لتوها فقرروا البقاء في المدينة لمدة عام كامل بانتظار موعد انطلاق القافلة في العام التالي.

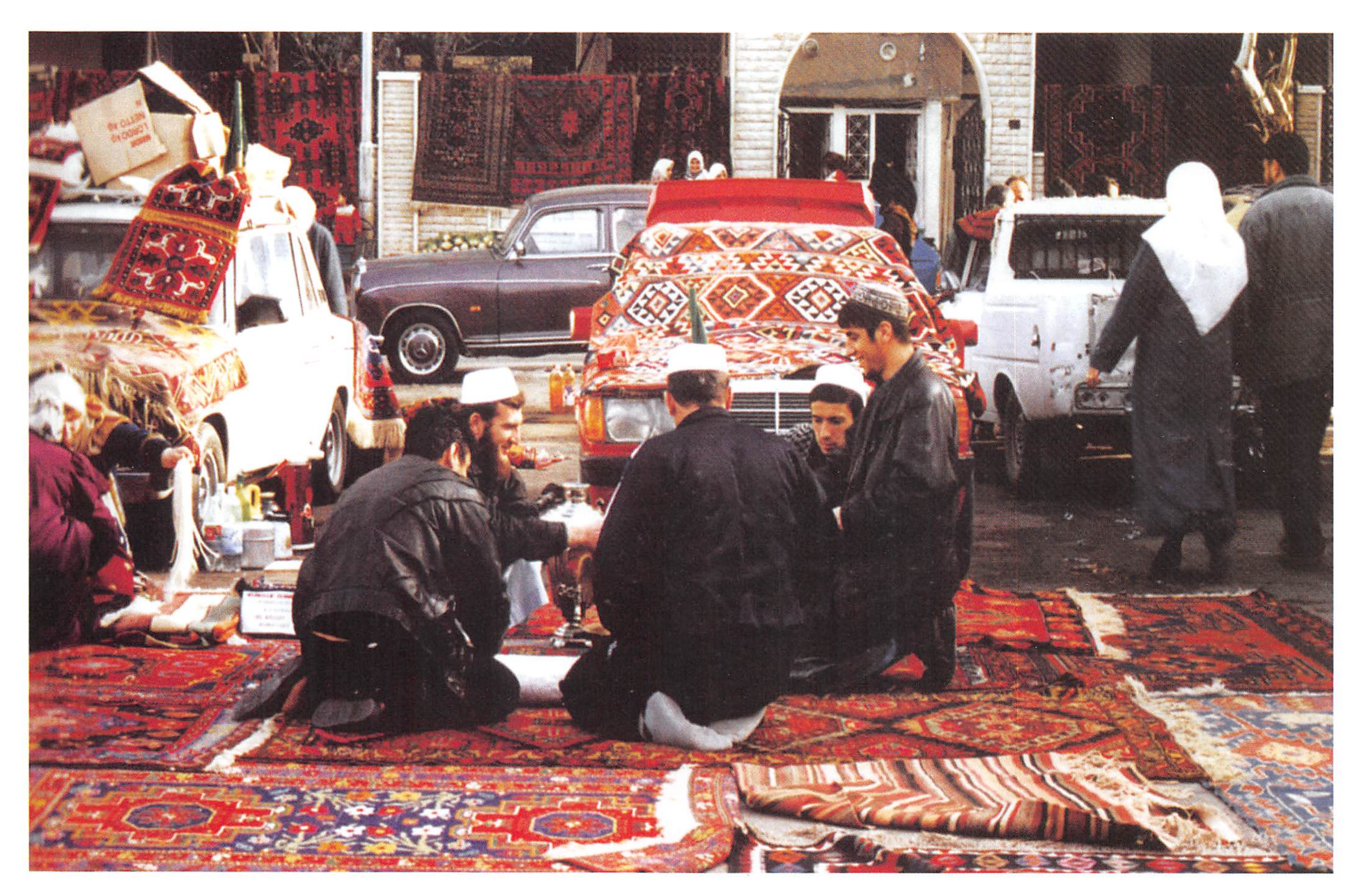
اعتاد معظم الحجاج التجمع في دمشق قبل عدة أسابيع من موعد انطلاق القافلة إلى مكة المكرمة حيث كانوا يجتمعون بالقرب من التكية السليمانية أو الإقامة المؤقتة في الخانات أو المدارس الدينية أو المنازل الخاصة لتجهيز المؤن لرحلتهم الطويلة. كتب الباحث والرحالة البريطاني (تشارلز داوني) الذي سافر مع قافلة الحجاج فيما كتب «كانت الأسواق تعج بالمسافرين لشراء السلع والبضائع على عجل من أجل طريق الرحلة الطويل». وكانت هناك كتيبات لإرشاد الحجاج عن الاستعدادات التي ينبغي على الحاج القيام بها قبيل السفر. وحسبما ورد في إحدى تلك الكتب الذي حمل عنوان «الكتاب المنسق»، فإن مدينة دمشق كانت عامرة بالأسواق الرائعة والفواكه الوفيرة والحمامات العامة والماء النظيف والمقاهي الأنيقة والمتنزهات الجميلة.

الصورة في الصفحة المقابلة: سوق السجاد السنوي في دمشق الذي يقيمه القادمون من بلاد القوقاز خلال طريق رحلتهم إلى الحج.

عندما كان يحين موعد مغادرة القافلة، كان الحجاج يغادرون المدينة عن طريق الميدان في موكب يشبه مواكب الكرنفالات وتحيط بهم دمشق بأكملها التي تعلن يوم رحيل القافلة يوم عطلة في المدينة، حيث يظهر أفراد ملة الدراويش لأداء طقوس الدوران السريع كالدوامة ويعرض الباعة الجوالون كل ما يخطر بالبال من طعام وشراب بينما يؤدي مبارزو السيف عروضاً راقصة يسمع فيها صليل السيوف في الوقت الذي يقرع فيه الطبالون على طبولهم. وذكرت إيزابيل بيرتون التي انضمت إلى قافلة الحجاج لمدة يومين أثناء الاحتفال برحيلها وسجلت ملاحظتها حول تحرك القافلة بقولها «يتقدم القافلة الدليل الرئيسي ورجاله ومن ورائهم المدفعية تليها خيام المسؤولين والحجاج والجنود وتابعو القافلة. ثم تأتي فرقة من الخيالة يليها الحجاج من أهل السنة ويكون في المؤخرة أمير الحج وحاشيته وخلفهم (المحمل)، وهو الشعار المقدس في كل حجة ويتألف من خيمة مزينة محمولة على ظهر جمل ضخم ويأتي بعدها مكان أمين الخزينة وحاشيته، ثم تتقدم فرقة ثانية من الخيالة يتبعها الحجاج من أهل الشيعة والفرس وفي مؤخرة القافلة الثانية يأتي ركاب الجمال العربية». لقد فتنت السيدة (بيرتون) بمظاهر قافلة الحجاج والاحتفالات المواكبة للرحلة، فذكرت «لا يسعني القول سوى أن الحج هو من أكثر المراسم أو المناظر التي شهدتها في حياتي إثارة، كما أنها من أعظم المظاهر التي يمكن للمرء مشاهدتها في أجواء البراري». ويتفق «دليل موراي السياحي» مع وجهة نظر السيدة (بيرتون) حين ذكر «إن بداية الحج منظر لابد من مشاهدته من قبل كل رحالة في فلسطين يستطيع التواجد في دمشق أثناء انطلاق القافلة...».

كان الحج هو تلك الرحلة العقائدية الرائعة التي استطاع الوالي أسعد باشا العظم تنظيمها وتسييرها بسلام لمدة ١٤ سنة. ولكن في عام ١٧٥٧ تم خلع الوالي أسعد باشا العظم وفي العام التالي وتحت قيادة الوالي الجديد تعرضت قافلة الحجاج لهجوم قطاع الطرق البدو الذين أبادوا القافلة بأكملها تقريباً وكانت شقيقة السلطان بين الضحايا الذين زهقت أرواحهم في تلك المذبحة. اتهم أسعد باشا العظم بتدبير الهجوم كي يشوه سمعة الوالي الجديد ويضعف الثقة به لذلك قطع رأس أسعد باشا وصادر السلطان ثروته الهائلة وأملاكه الواسعة. أما عبد الله باشا العظم، آخر والي من آل العظم الذي عين في القرن الثامن عشر لحكم دمشق، فكان أفتر نشاطاً وديناميكية من أسعد باشا ومع ذلك استمر في الحكم لمدة عشر سنوات لغاية ١٧٨٣، وهو أمر يكاد يكون فذاً بما أن المنطقة كانت في حالة اضطراب في تلك الفترة. قام عبد الله العظم ببناء مدرسة رائعة حملت اسمه لكنها تحولت الآن إلى متجر للسائحين وفقدت رونقها وجمالها السابقين.

كانت إيزابيل بيرتون تشعر بالقلق إزاء موضوع قناة السويس والخطر القادم مع السكك الحديدية لأنها كانت تخشى من أن وسائل المواصلات الحديثة ستضع حداً لطقوس وشعائر قوافل الحج التقليدية



القديمة. وبالفعل كانت مخاوفها في محلها. ففي عام ١٩٠٨ تم افتتاح سكة حديد الحجاز في دمشق خصيصاً لنقل الحجاج إلى مكة المكرمة (فالحجاز هي المنطقة التي تضم كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة في المملكة العربية السعودية). ومع ذلك ظلت دمشق نقطة تجمع الحجاج حتى ذلك التاريخ. إلا أن ظهور النقل الجوي وضع حداً نهائياً لدور مدينة دمشق فيما يتعلق بالحج - فالحجاج الآن ينطلقون من بلدانهم المختلفة ببساطة بالسفر جواً وبشكل مباشر إلى مكة. لكن هناك استثناء واحداً ظهر في الأفق مع انهيار الاتحاد السوفيتي حيث أصبحت الدول المسلمة في القوقاز لها كامل الحرية في أن تفعل ما تشاء. وفي عام ١٩٩٢ بدأت دمشق تستضيف آلاف الحجاج القادمين من الدول الواقعة على جبال القوقاز خلال طريق رحلتهم إلى الحج. وقبل أسبوعين من الموعد المحدد لوصول الحجيج إلى مكة لأداء شعائر الحج والعيد (يتغير تاريخ تلك الشعائر كل عام حسب التقويم القمري) تصل حافلات قديمة إلى دمشق تقلّ أولئك الحجاج — الذين يبيتون فيها أيضاً — وترفع علم الإسلام الأخضر. يقيم الحجاج القوقازيون سوقاً للسجاد أمام جامع الأنصاري في باب مصلى. وعند رؤية مئات اللفائف من السجاد أمام بائعيها الداغستانيين والشيشان وغيرهم من أبناء دول القوقاز، ينتابك شعور مثير كيف كان يبدو هذا المنظر منذ مئة سنة.

لقد ظلت دمشق لقرون طويلة مدينة مغلقة تقريباً في وجه الغرب إلى أن حدث أمر عام ١٨٣٢ بدل من تلك الحقيقة حين قام المصريون بغزو سورية وبقيت دمشق ثمانية أعوام يحكمها باشا مصري بأسلوب تميز بمزيد من الانفتاح حيث تم الترحيب بالأجانب واستقبالهم في المدينة وتشجيع التجارة الأجنبية أيضاً. أجبر المصريون على مغادرة دمشق عام ١٨٤٠ لكن يبدو بأن النظام الجديد قد رسخ قواعده وتأكد ذلك بالإصلاحات الشاملة (التنظيمات) في الإمبراطورية العثمانية. فقد بدأت التجارة في دمشق مع أوروبا بواسطة وكلاء محليين متحمسين وجادين قاموا بتمثيل الشركات الأجنبية، مما جعل ثروتهم تتعاظم مع الأيام لكن المشكلة أن هؤلاء الوكلاء كان يتم اختيارهم من الجاليتين المسيحية أو اليهودية وهذا ما أثار استياء المسلمين وخصوصاً فيما يتعلق بالقوانين الجديدة التي منحت أبناء هاتين الجاليتين مزايا عديدة في الوقت الذي بدأت فيه القنصليات الغربية بفتح مكاتبها في دمشق وكان أولها القنصلية البريطانية، لكن الأشخاص المحليين الذين جرى اختيارهم كقناصل فخريين كانوا إما نصارى أو يهوداً. وحتى عندما كان القنصل أجنبياً (كما كان الحال بالنسبة للقنصل البريطاني) كانت محاباة المسيحيين واليهود واضحة وعلنية علاوة على الحماية التي توفرت لهم. وسرعان ما اكتشف تقرير باورينغ عام ١٨٤٠ تصعيد الخلافات الطائفية «لقد تحسنت أوضاع المسيحيين وأصبحوا نسبياً أفضل حالاً من المسلمين الذي لم يكسبوا شيئاً وإنما فقدوا الكثير من دفع ضرائب أكبر وظلم أشد وتبرعات إلزامية قاسية.. فكلما ازداد



الصورة في الأعلى: لورنس العرب في دمشق على شرفة فندق فكتوريا (الذي لم يعد له أثر الآن بعد هدمه).

الصورة في الصفحة المقابلة: الأمير فيصل في صورة التقطت له في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩ (من المحتمل أن عقيلة الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» هي التي التقطت الصورة).



الاتصال مع الأوروبيين على الصعيدين الرسمي والشعبي ازدادت النزعة إلى إضعاف كبرياء وثقة المسلمين».

وفي عام ١٨٦٠ انقلب هذا الاستياء فجأة ليتحول إلى غضب عارم وعنيف حين قام بعض المسلمين في دمشق بمهاجمة المسيحيين وسفكوا دماء الكثيرين منهم وأحرقوا منازلهم في الوقت الذي حاول فيه العديد من المسلمين وقف أعمال العنف، كما حاول عدد كبير منهم مساعدة المسيحيين لكن كل قنصلية غربية تعرضت للنهب باستثناء القنصلية البريطانية لأنها الوحيدة بين مثيلاتها لم تقع في منطقة المسيحيين علماً بأن الأحياء المسيحية قد تحولت إلى خراب بفعل أعمال العنف وهذا ما روّع الدول الأوروبية وأثار مخاوفها فطالبت بالانتقام والعقوبة. لذلك أرسل السلطان أهم وزير في بلاطه لمعالجة الآثار الناجمة عن تلك الاضطرابات لكن الوالي العثماني شنق مع عشرات غيره بينما أرسل العديد إما إلى المنفى أو السجن. ذكر (هنري جيسوب) الذي كان موجوداً في بيروت آنذاك «لقد شاهدنا مجموعات من المسلمين ... مئة ومئتين وخمسمئة.. بعضهم كانوا أبناء أرقى العائلات.. أحضروا مكبلين إلى بيروت بهدف نفيهم إلى أماكن مختلفة من الإمبراطورية العثمانية». وحصل المسيحيون على التعويضات وأعيد بناء مناطقهم السكنية المدمرة وحصل الأوروبيون بشكل عام والفرنسيون بشكل خاص على نفوذ أكبر في سورية.

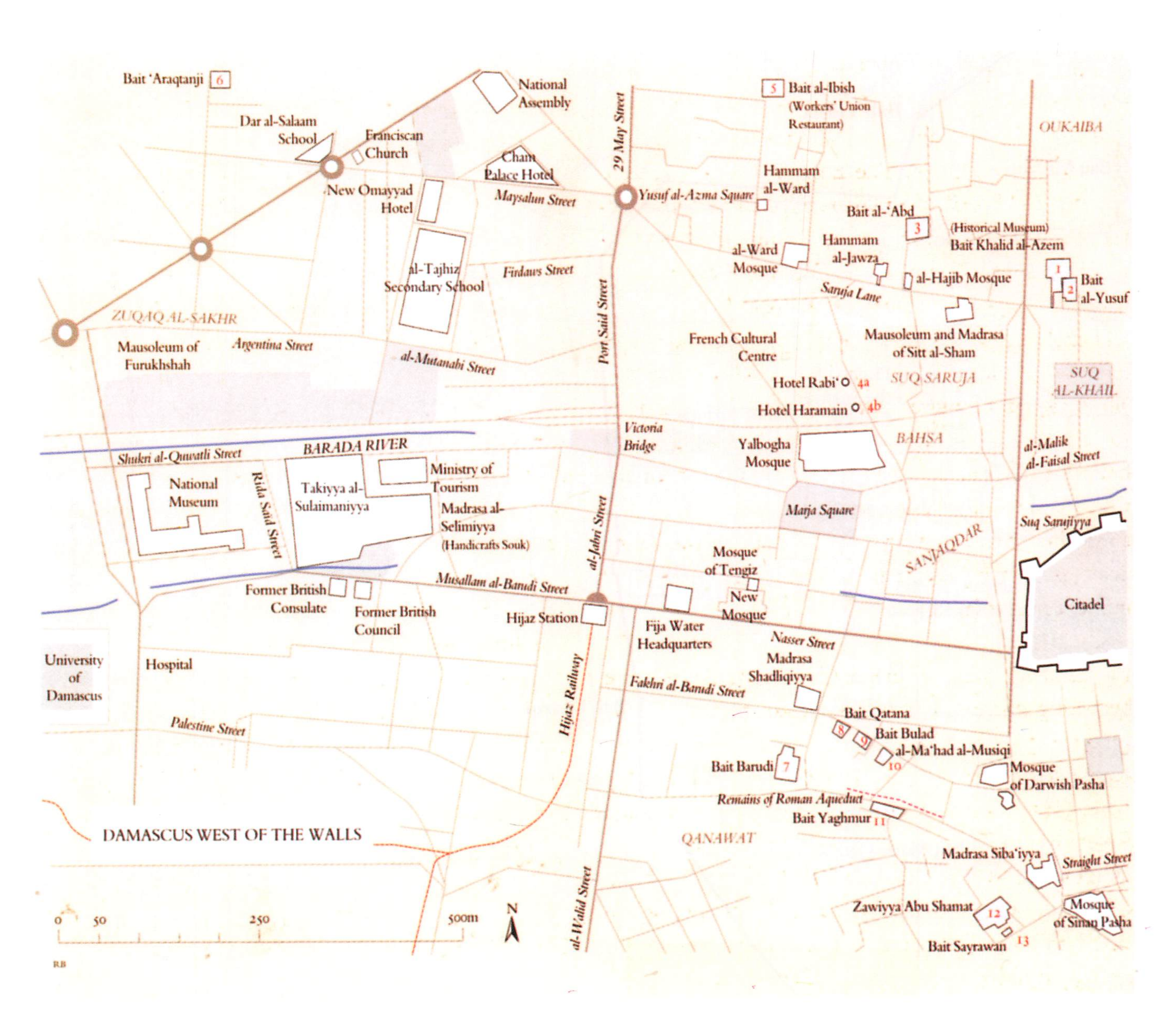
في بداية القرن العشرين أصبح العرب ينتظرون بفارغ الصبر التخلص من نير الحكم العثماني وعبوديتهم ونيل الاستقلال. فبدأت حركات المقاومة وفي دمشق في شهر أيار من عام ١٩١٦ قام الوالي العثماني جمال باشا بشنق القوميين الشباب علناً في ساحة المرجة. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وقف العثمانيون إلى جانب الألمان ولم يكن صعباً على البريطانيين إقناع العرب بأنها كانت فرصتهم للثورة والتمرد على العثمانيين وقطعوا لهم وعداً بأنه إذا هُزمت تركيا سيكون الاستقلال في متناول أيديهم. فبدأت الثورة العربية في المنطقة المعروفة الآن بالمملكة العربية السعودية ونجح جيش قبائل العرب ومعهم لورنس العرب كمستشار في دحر أعدائهم الأتراك والألمان وإبعادهم عبر الأراضي التي تشكل الآن المملكة العربية السعودية والأردن ثم دخل جيش العرب آخر الأمر دمشق في ١ تشرين الأول ١٩١٨.

قال لورنس العرب حول هذا الأمر «لقد طارت دمشق فرحاً بدخول جيش العرب حيث رمى الرجال طرابيشهم في الهواء للتعبير عن الفرحة بينما مزقت النساء خمارهن ثم قام أصحاب البيوت برمي الزهور والورد في الطريق أمامنا وفرشوه بالسجاد بينما علت ضحكات زوجاتهم من وراء النوافذ الخشبية المشبكة وأخذن برش العطور علينا». ولكن الفرحة لم تستمر طويلاً لأن الحلفاء نكثوا بوعدهم واقتسموا أراضي الإمبراطورية العثمانية القديمة فيما بينهم. فالملك فيصل الذي كان من المفترض أن يحكم سورية مستقلة أطيح به، ثم دخل الفرنسيون إلى سورية عام ١٩٢٠ وبقوا فيها ٢٦ سنة كانت فترة مريرة على تلك البلاد. وفي عام ١٩٢٥ حدثت انتفاضة شعبية ضد الفرنسيين لكنهم سحقوها بوحشية فظيعة جرى خلالها قصف جزء من مدينة دمشق القديمة وحلّ به الدمار.

كانت دمشق خلال الحرب العالمية الثانية موقعاً لمعركة غير مألوفة بين الفرنسيين الفيشيين الذي يحكمون سورية (كما حكموا جميع المستعمرات الفرنسية خلال الحرب) والفرنسيين الأحرار (الديغوليين). فخشية من أن تتاح للألمان فرصة استعمال سورية كقاعدة لعملياتهم العسكرية في الشرق الأوسط، قام الفرنسيون الديغوليون بالهجوم على دمشق عام ١٩٤١ بمساندة القوات البريطانية والهندية والأسترالية. دافعت القوات الفرنسية الفيشية عن المدينة بدعم من جنود شمال إفريقيا ودارت معركة طاحنة حتى الموت للسيطرة على دمشق عبر البساتين وكروم العنب التي تشكل الآن ضاحية المزة وقتل خلالها العديد ممن يرقد رفاتهم في المقابر الحربية البريطانية والكومنويلث والفرنسية في دمشق، لكن الحلفاء انتصروا في المعركة واستولى الفرنسيون الأحرار (الديغوليون) على مقاليد السلطة من أبناء أمتهم الفرنسيين الفيشيين.

إن موت الإفريقيين والهنود في سورية في معركة دارت رحاها بين الفرنسيين قد يبدو أمراً استثنائياً وغير مألوف لكن ذلك ليس سوى فصل آخر في قصة بلد قديم كان أرضاً لحروب خاضها الفينيقيون والآراميون والنبطيون والآشوريون والفرس والإغريق والرومان والبيزنطيون والصليبيون والأتراك والمصريون والمماليك والعثمانيون. ولا غرو بأن المؤرخ البريطاني الكبير السير (ستيفن رونسيمان) الذي سجل وقائع الحملات الصليبية أشار ذات مرة إلى أن تاريخ المنطقة إنما هو تاريخ الحروب التي دارت على أراضيها.

وفي عام ١٩٤٥ عشية جلاء القوات الفرنسية النهائي تقريباً عن دمشق، ردت تلك القوات على الهجمات التي تعرضت لها من قبل أهالي دمشق بقصف المدينة من ثكناتها العسكرية المتمركزة على الهضبة – التي ينتصب مكانها الآن القصر الجمهوري – مما أسفر عن إلحاق أضرار بالغة في العديد من المباني المهمة أو تدميرها بالكامل. وفي العام التالي رحل الفرنسيون عن سورية ونالت استقلالها أخيراً وأصبحت عاصمتها دمشق التي يقطنها اليوم حوالي أربعة ملايين نسمة. وقد وصف «دليل موراي السياحي» مدينة دمشق بالكلمات التالية «لعل الحقيقة المرتبطة بتاريخ هذه المدينة أنها ازدهرت تحت كل تغيير في العهود والأنظمة التي تعاقبت على حكمها، وهذا ما يجعلها تستحق لقب المدينة الخالدة».

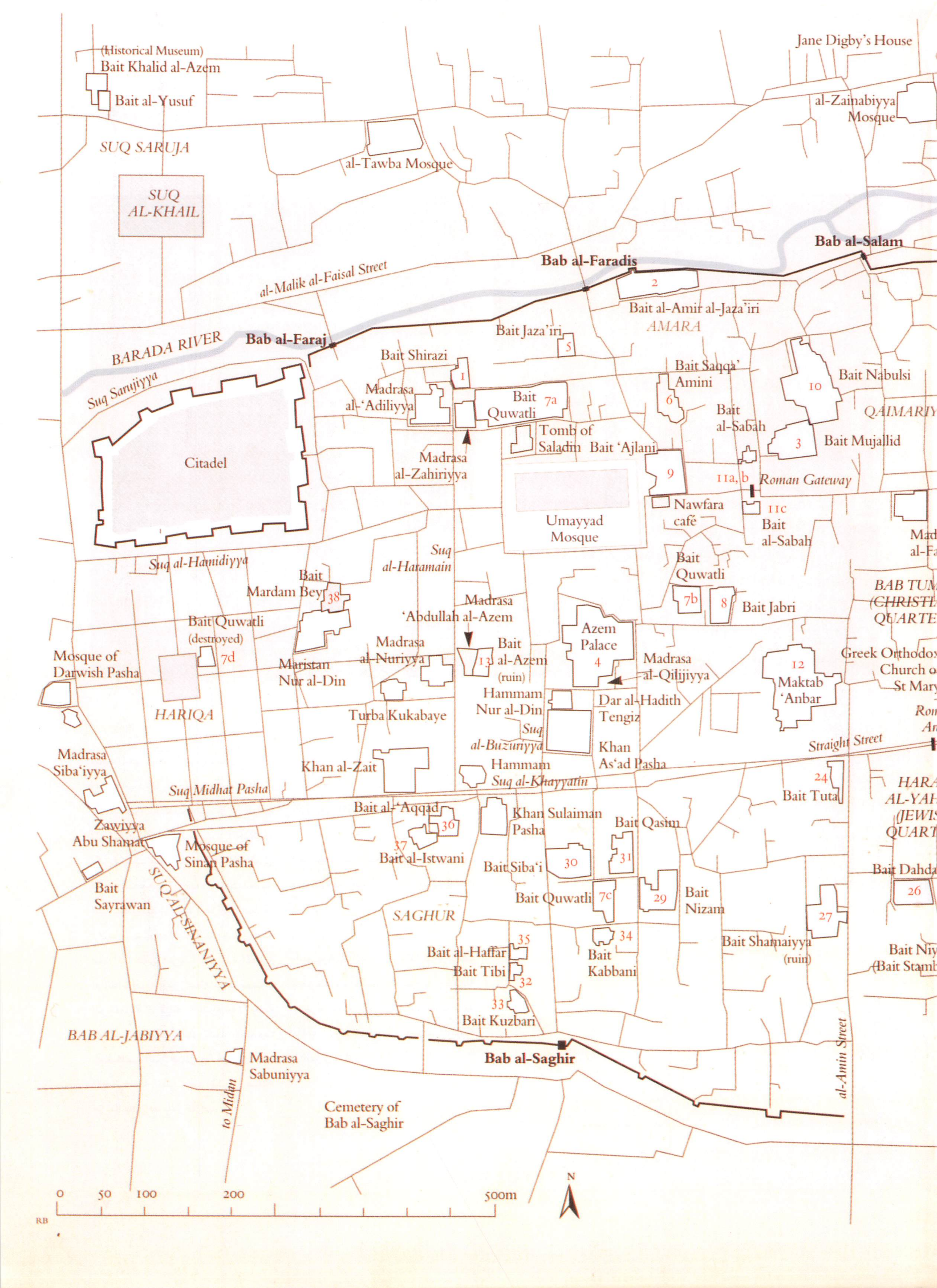


: دمشق غرب سور المدينة. (راجع باب «بيان رموز الخرائط» في نهاية هذا الكتاب).

دمشــق داخل سور المدينة. (راجع باب «بيان رموز الخرائط» في نهاية هذا الكتاب).

DAMASCUS WITHIN THE WALLS

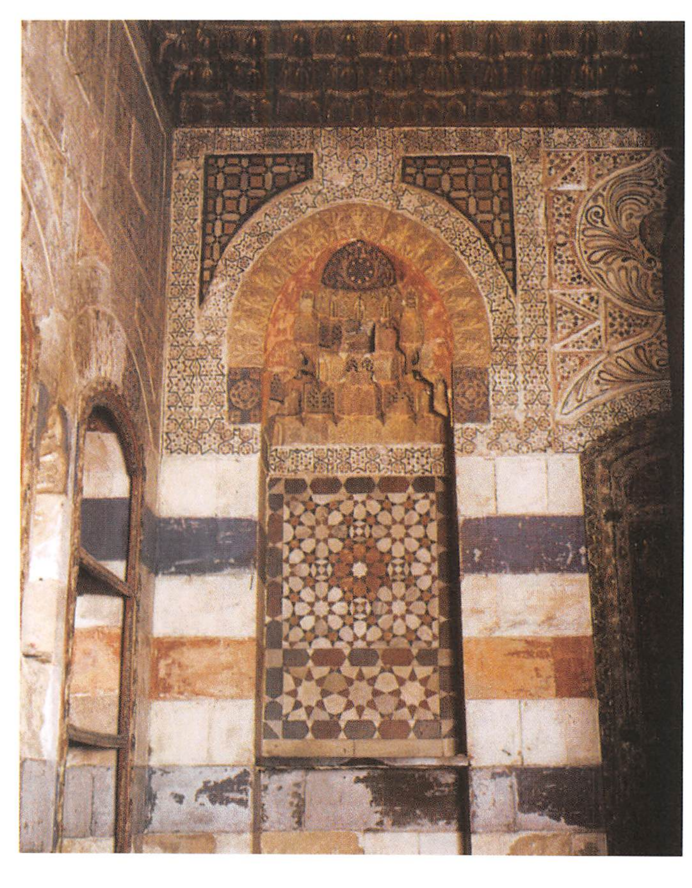
Bab Tuma
Bait Mishaqa
21
Bait Fransa
18
Bab Tuma Street
16
House of the Spanish Crown
Saint Ananias Chapel
17
Bait Shamiyya
20
Bait Nassan
Madrasa Qunaitra
(British Syrian School)
19
15
Bait Shatta
14
Bait Shawi
Bab Sharqi
28
Bait Marie Qatash
Great Synagogue
23
Bait Lisbona
Farhi
t al-Mu'allim)
Bab Kisan
Airport Road



(Historical Museum)
Bait Khalid al-Azem
Bait al-Yusuf
SUQ SARUJA
SUQ AL-KHAIL
al-Tawba Mosque
Jane Digby's House
al-Zainabiyya Mosque
Bab al-Salam
Bab al-Faradis
al-Malik al-Faisal Street
BARADA RIVER
Bab al-Faraj
Suq Sarujiyya
2
Bait al-Amir al-Jaza'iri
AMARA
Bait Jaza'iri
5
Bait Shirazi
1
Madrasa al-'Adiliyya
Bait Quwatli
7a
Bait Saqqa' Amini
6
10
Bait Nabulsi
Bait al-Sabah
QAIMARIYYA
3
Bait Mujallid
Citadel
Tomb of Saladin
Bait 'Ajlani
Madrasa al-Zahiriyya
9
11a, b
Roman Gateway
Nawfara café
11c
Bait al-Sabah
Umayyad Mosque
Suq al-Hamidiyya
Suq al-Haramain
Bait Mardam Bey
38
Madrasa 'Abdullah al-Azem
Bait Quwatli
7b
8
Bait Jabri
BAB TUMA (CHRISTIAN QUARTER)
Bait Quwatli (destroyed)
7d
Mosque of Darwish Pasha
Madrasa al-Nuriyya
Maristan Nur al-Din
13
Bait al-Azem (ruin)
Azem Palace
4
Madrasa al-Qilijiyya
12
Maktab 'Anbar
Greek Orthodox Church of St Mary
HARIQA
Turba Kukabaye
Hammam Nur al-Din
Dar al-Hadith Tengiz
Suq al-Buzuriyya
Khan As'ad Pasha
Straight Street
Madrasa Siba'iyya
Khan al-Zait
Hammam
Suq al-Khayyatin
Suq Midhat Pasha
24
Bait Tuta
HARAT AL-YAHUD (JEWISH QUARTER)
Bait al-'Aqqad
36
Khan Sulaiman Pasha
Bait Qasim
Zawiyya Abu Shamat
Mosque of Sinan Pasha
37
Bait al-Istwani
Bait Siba'i
30
31
Bait Dahdah
26
Bait Sayrawan
SUQ AL-SINANIYYA
SAGHUR
Bait Quwatli
7c
29
Bait Nizam
27
Bait al-Haffar
35
34
Bait Kabbani
Bait Shamaiyya (ruin)
Bait Tibi
32
33
Bait Kuzbari
BAB AL-JABIYYA
al-Amin Street
Bab al-Saghir
Madrasa Sabuniyya
to Midan
Cemetery of Bab al-Saghir
0 50 100 200 500m
N
RB

المحاريب والمصبّات



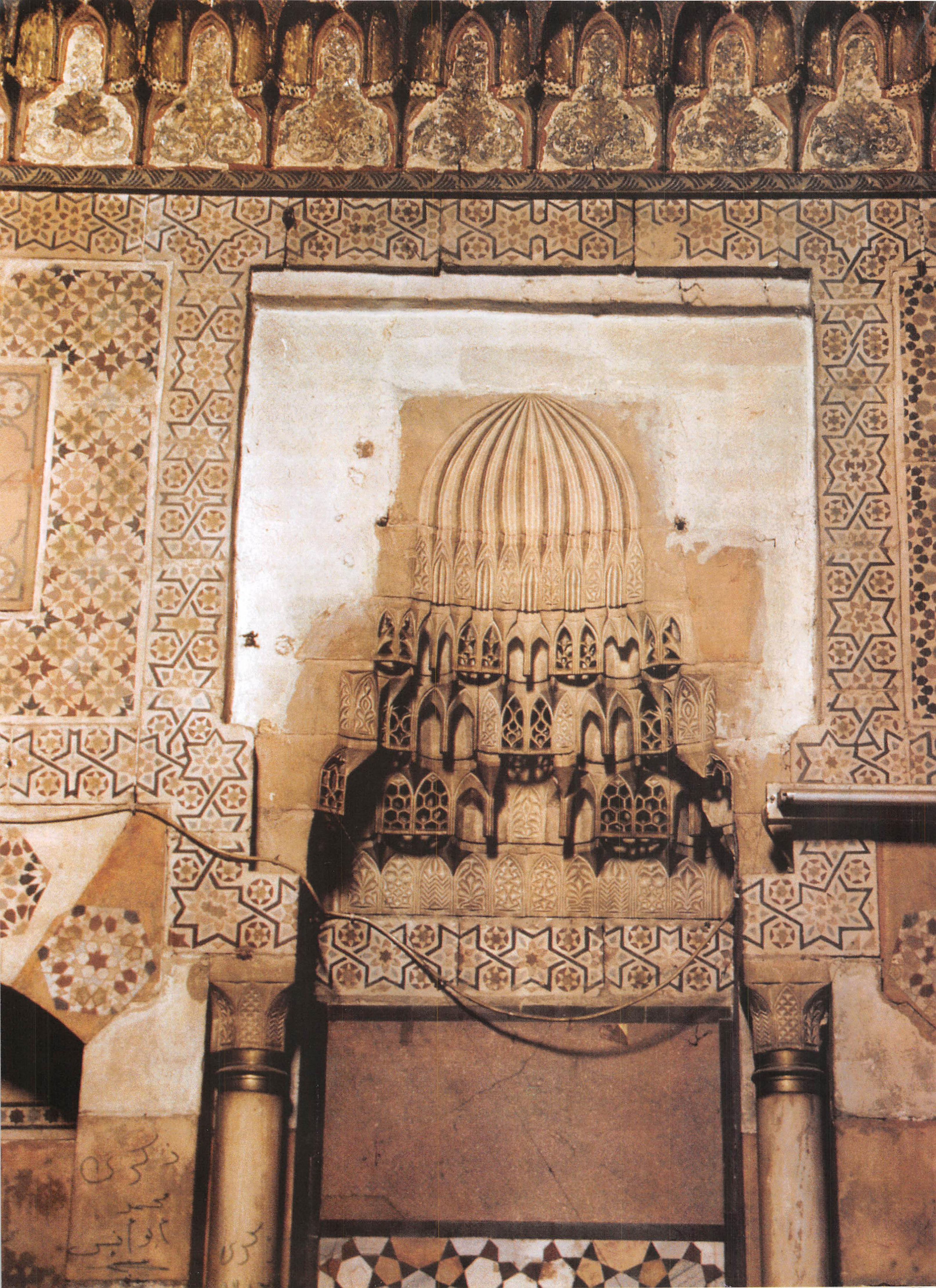


يتجه المحراب أو المصبّ الذي له شكل المحراب داخل الجامع نحو القبلة في مكة المكرمة، حيث يشكل المحراب المركز الرئيس في مصلى الجامع. لكن هناك مصبات مماثلة على شكل محاريب موجودة أيضاً في بيوت دمشق القديمة يُستفاد منها لأغراض عملية. (المصبّ في القاعة الشامية يشبه محراباً عالياً مزيناً بالرخام المجزع أو القاشاني ويُزين أعلاه بالمقرنصات الرخامية الدقيقة. «المترجم») توضع في تلك المصبات التي تشبه المحاريب في شكلها النراجيل أو أباريق الماء المخصصة للضيوف وتكون عادة مزينة بإفراط بالزخارف.

الصورة اليمينية العلوية: مصبّ على شكل محراب في بيت الأسطواني مزين بقوس من المقرنصات الحجرية.

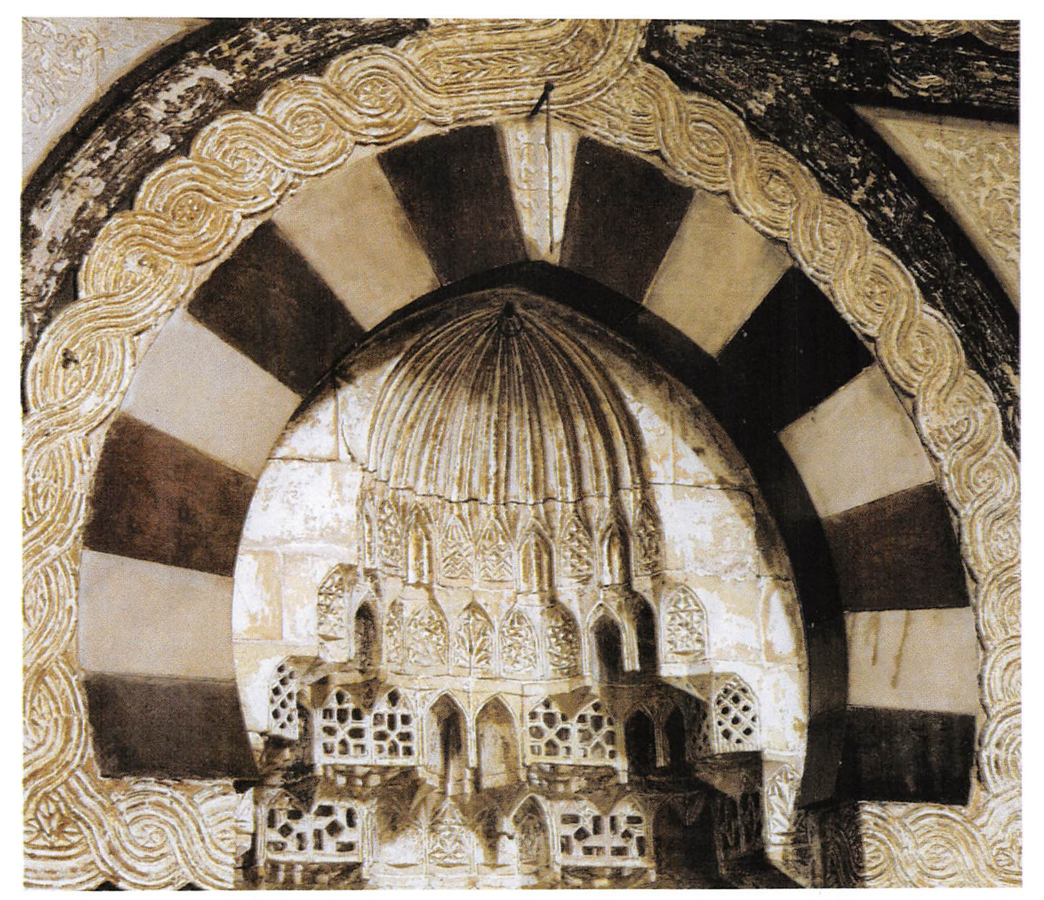
الصورة اليسارية العلوية: فسيفساء وأعمدة من الرخام تحمل المصبّ في بيت فارحي.

الصورة في الصفحة المقابلة: طنف بمقرنصات خشبية مرسومة ومذهبة ومقرنصات محفورة بالحجر تحيط بالمصبّ المزين بالزخارف الملونة (النباتي) في بيت بولاد.





المحاريب والمصبّات



الصورة الصفحة السابقة: التنزيل بالصدف والفسيفساء الرخامية والحجر المنقوش تشكل بمجموعها زخارف بديعة المظهر للمصبّ في بيت نظام.

الصورة في الأسفل: نموذج أنيق عن الفن المملوكي في تزيين المصبّ الحجري في مدفن (بيبرس).

الصورة في اليسار: تركيبة من تصاميم التزيين بالحجر للمصبّ في بيت شيرازي.

الصورة السفلية اليسارية: رسومات وحفر على الخشب من القرن التاسع عشر في بيت البارودي.







الجزء الثاني

القصور والناس

«... دمشق تشبه النساء اللواتي أشاهدهن كل صباح خارج معسكرنا تلبسن الأثواب المطرزة وتضعن الخمار المصنوع من القطن. فدمشق مدينة تحتفظ بنفائسها وكنوزها مخفية عن الأنظار ولا تعرض على الزائر الأوروبي الذي يتجول في شوارعها سوى منظر غير واضح لجدران لا نوافذ فيها، مشكلة بذلك الحارات والأزقة الضيقة..»

بقلم مجهول – مقتطفات من مجلة عن رحلة ربيعية إلى سورية عام ١٨٦٠.

«إنما يكمن جمال دمشق في روعة بيوتها العربية الخاصة.»

القس (جوسياس ليسلي بورتر) «خمس سنوات في دمشق» ١٨٥٥.

«من الصعوبة بمكان وصف قاعة استقبال دمشقية جميلة يستوعبها التفكير الإنكليزي ...»

إيزابيل بيرتون «الحياة الداخلية في سورية وفلسطين والأرض المقدسة» ١٨٨٤.

مارك توين «الأبرياء خارج البلاد» ١٨٦٩

لقد استطاعت دمشق القديمة البقاء لألفي سنة بالرغم مما مرّ عليها من الزلازل والحرائق والغزوات والسلب والنهب والحروب الأهلية والأوبئة والجراد الذي التهم محاصيلها والجفاف والقحط الذي حلّ بأراضيها. لكن تلك المصائب والكوارث فشلت جميعها في أن تنال من شموخها وبهائها لفترات طويلة. فبعد كل كارثة كانت تبنى المنازل والبيوت من جديد وترمم المباني العامة وينمو السكان ثانية فتظهر المدينة إلى الوجود مجدداً كما كانت في عهدها السابق مدينة جميلة. لكن القرن العشرين جاء بكارثة جديدة غير متوقعة، كارثة أشد دماراً من كل ما سبق قد يجعل المدينة القديمة غير قادرة على البقاء في شكلها الحالي. فبكل بساطة انتقل أبناء الطبقة الثرية والموسرين والطبقة الوسطى والطبقة الراقية من المجتمع الدمشقي من المدينة القديمة إلى الشقق والفيلات القائمة في الجزء الحديث منها. ففي ثلاثينيات القرن العشرين جاء كاتب رحالة يدعى (إتش. في. مورتون) إلى دمشق متبعاً خطى القديس (بولس) وكتب عنها «لقد



الصورة في الصفحة السابقة: قاعة استقبال رائعة مزودة بالرسومات في بيت القوتلي.

الصورة في الأعلى: (إيزابيل) زوجة القنصل البريطاني (ريتشارد بيرتون) عام ١٨٦٩.

الصورة اليسارية في الصفحة التالية: قاعة الاستقبال المزينة بالزخارف البديعة في بيت القوتلي.

الصورة اليمينية في الصفحة التالية: لقطة مقربة تبين تفاصيل قاعة الاستقبال في بيت شيرازي.

عانت المدينة من تصادم عنيف مع حضارة الغرب تمثل في قدوم الحافلة الكهربائية (الترمواي) الفرنسية وأسلاك الهاتف والبرق وأجهزة الفونوغراف وسيارات الرينو الفرنسية بالإضافة إلى العديد من المباني الجديدة والحديثة.» وبوسعك أيضاً أن تطلق على هذا الأمر تصادم عنيف مع القرن العشرين الذي غير بشكل جذري أسلوب الحياة الذي تماشى مع البيوت وباحاتها الداخلية في دمشق القديمة الهادئة.

جرت العادة في دمشق أن يسكن جيلان أو ثلاثة أو حتى أربعة أجيال من الأسرة ذاتها مع بعضهم البعض. فكل ابن كان يأتي بعروسه إلى منزل ذويه حيث يخصص لهما غرفة مستقلة قبالة باحة المنزل. أما الأم وزوجات أبنائها والشقيقات العازبات والخالات والعمات فكن يتعاون سوية على أداء




سق حمايشا

الصورة في اليمين: قاعة الاستقبال المزينة بالرسوم في بيت البارودي الذي يخضع لأعمال الترميم.

الصورة اليسار: باحة بيت العائلة الأصلي للشاعر الراحل نزار قباني.

الصورة في الصفحة المقابلة: الليوان وأرض الديار المرصوفة في بيت مردم بيك.





المهام المنزلية اليومية ضمن حدود تعتمد على عدد الخدم الموجودين في الدار. كما لم تعتد نساء المنزل على مغادرته إلا للقيام بالزيارات العائلية أو الذهاب إلى الحمام العمومي. وفي فصل الشتاء كانت الأسرة بأكملها تنتقل للعيش في الطابق العلوي من المنزل بحثاً عن الدفء مع استمرار استعمال المطبخ والحمام الموجودين في الطابق الأرضي.

أما الآن فإن الأبناء والبنات لا يرغبون بالعيش مع ذويهم وإنما يفضلون الاستقلالية ويريدون منازل سهلة وسريعة التنظيف ويمكن تدفئتها أو تبريدها بشكل أفضل وأسرع. ففي هذا العصر تكاد تكون فكرة العيش في منزل تضطر فيه لاجتياز باحته – لاسيما في الطقس المثلج أو الممطر – للذهاب إلى غرفة أخرى فكرة تثبط الهمة بل ومروعة أيضاً، وكذلك الأمر بالنسبة للتفكير في عدم إمكانية قيادة السيارة في الحارات الضيقة للوصول إلى باب منزلك، وهو بالطبع أمر غير مريح.

عندما استلم (ريتشارد بيرتون) منصبه كقنصل بريطانيا في دمشق عام ١٨٦٩، تعين على زوجته (إيزابيل) البحث عن مكان للإقامة وكانت كغيرها محتارة في أمرها بين العيش في المدينة القديمة أو الجزء الحديث منها وقالت في ذلك «هناك شعور معين بالحبس في دمشق عندما تغلق المدينة أبوابها عند الغروب وتسدل الستائر وتغلق نوافذ الحريم المشبكة بالقضبان الخشبية (الخصّ). من ناحية ثانية فإن المنزل من الداخل واسع جداً ومثير ورائع ويغلب عليه الطابع الشرقي مما يجعل المرء يتوق لامتلاك هذا القصر الرخامي». قررت (إيزابيل) في النهاية اختيار دار خارج سور المدينة في حي الصالحية الذي كان في ذلك الزمن عبارة عن قرية منفصلة عن المدينة أما الآن فأصبح جزءاً من المدينة الحديثة. في الحقيقة إن (إيزابيل) وجدت النوافذ المشبكة بالقضبان الخشبية في ذلك المنزل تبعث في نفسها الرهاب من الأماكن المغلقة فاقتلعتها من مكانها وصنعت من قضبانها الخشبية قفصاً للدجاج في الحديقة.

هناك شعور لا يقاوم بالحنين إلى منطقة دمشق القديمة وبيوتها التقليدية. وقد قال الشاعر السوري الكبير نزار قباني بأن جمال أرض ديار بيت أسرته شكل له مصدر الإلهام في أشعاره وكتب في قصيدة عنوانها «رسالة إلى أمي»:

مضى عامانِ يا أمي وليلُ دمشق

فلُّ دمشق دورُ دمشق

تسكنُ في خواطرنا مآذنها.. تضيءُ على مراكبنا

كأنَّ مآذنَ الأمويِّ.. قد زُرعت بداخلنا..

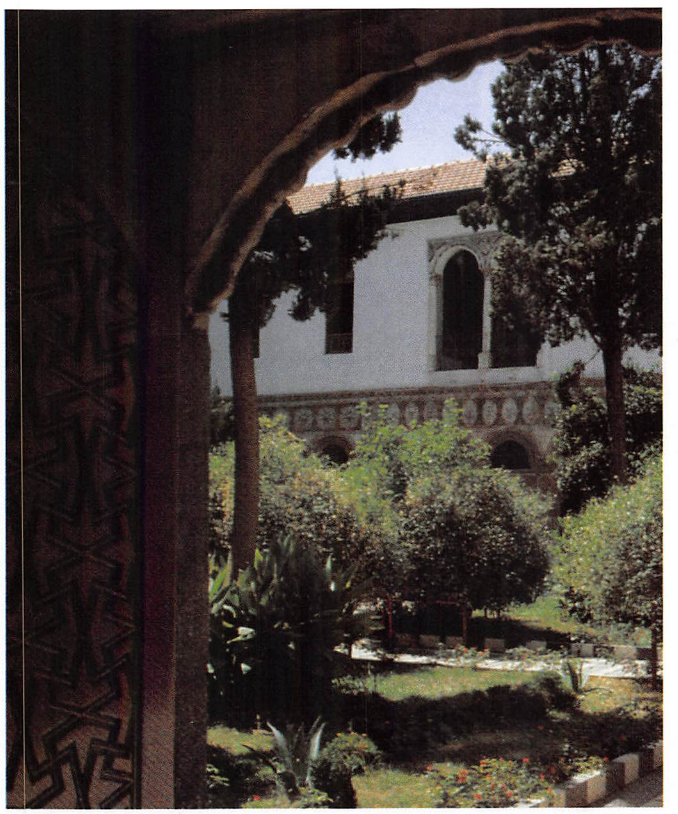






عندما حكم الفرنسيون سورية عام ١٩٣٦ قام المهندسون العسكريون الفرنسيون بوضع مخطط مساحي تفصيلي لدمشق القديمة والذي يُعدّ عملاً لا يقدر بثمن حيث اشتمل على خريطة لكل منزل مع باحته وبحراته الفوارة وأشجاره. إنها صورة مذهلة لمدينة تخلو من المتنزهات العامة والطرقات الواسعة والساحات المكشوفة والمناظر الطبيعية والأفق. فالمدينة القديمة ليست سوى رقعة كثيفة من مربعات صغيرة وكبيرة متداخلة مع بعضها البعض ودوائر البحرات الفوارة تبدو تطريزاً إضافياً عليها. هذا المخطط الذي يبين بأن كل دار له باحة واحدة على الأقل وكل باحة فيها بحرة فوارة تعطيك فكرة أفضل عما يوجد ضمن سور المدينة القديمة بدلاً من استكشافها سيراً على الأقدام عبر الحارات والأزقة.

وصف البريطاني (جون غرين) الذي زار دمشق عام ١٧٣٦ السرية التي تكتنف تلك البيوت الدمشقية بقوله «عندما تكون في الشارع لا تشاهد سوى جدران عالية ونوافذ تحجب ما وراءها. لكن المظهر الخارجي العادي جداً يختلف كل الاختلاف عما يوجد في الداخل من زخارف وتزيين ورسوم رائعة وطلاء بالذهب». إن وصف (غرين) ينطبق على ما نراه اليوم أيضاً. فعندما تتجول في حارات وأزقة دمشق القديمة لا تجد سوى الجدران الخالية من كل المعالم، ولا يوجد ما يشير إلى أنك تمرّ أمام قصور خيالية في جمالها وتشبه



الصورة في الأعلى: إطلالة على الدار عبر الباحة الداخلية للحرملك في مكتب عنبر.

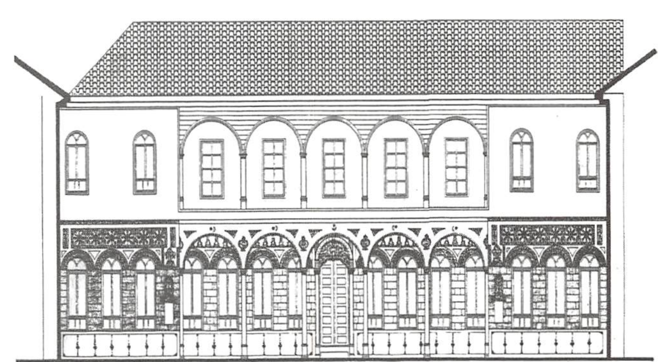
الصورة في الصفحة المقابلة: أشعة الشمس المسلطة على أرض الديار البديعة في بيت شطه.





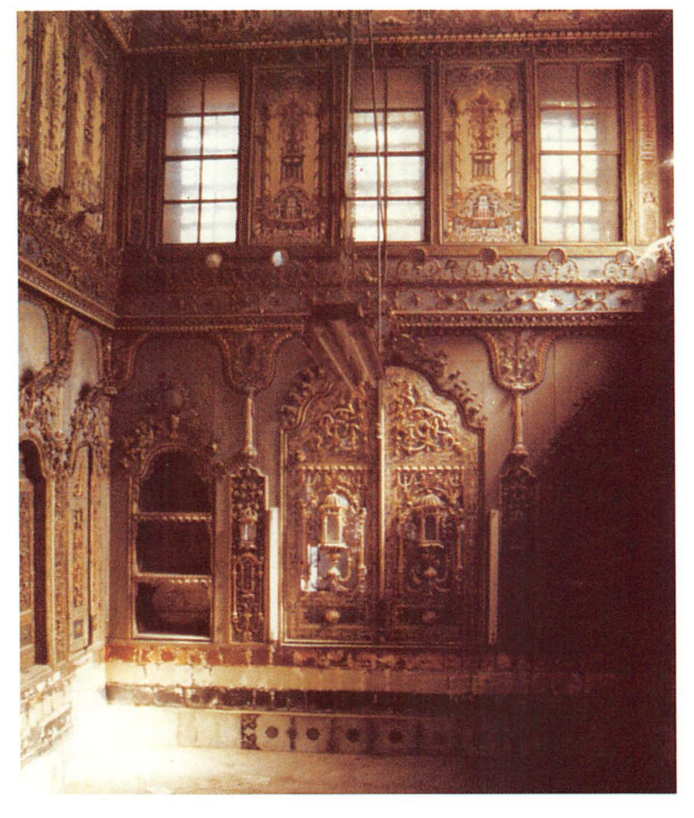
قصـور حكايا الجن وفيها زخارف تزينيـة من الداخل تحبس الأنفاس مـن شدة روعتهـا. وفي الحقيقـة لم يستطـع أي مصمـم مسرحي أن يحـدِث أثـراً بصرياً يضاهـي ما تراه عينـاك عندما تتخطـى الأزقة المعتمة لتدخل إلى ضوء الشمس الساطع الذي ينير باحات تلك البيوت وبحراتهـا الفـوارة وأشجارهـا الظليلة وعصافيرهـا المغـردة وبلاطها الرخامي وزخارفها وزينتها الفاخرة.

لقـد عـبرّ زوار دمشق علـى مدى قرون مـن الزمن عـن دهشتهم لهـذا التناقـض المذهل بـين داخل البيـوت الدمشقيـة وخارجها. فقد كتـب الأمريكي (جورج ويليـام كورتيس) الـذي زار دمشق عام ١٨٥٢ أكـثر الكلمـات تعبيراً في هذا الصـدد «هل خاب أملـك عندما عبرت تلـك الحـارات والأزقة ومـررت بالقرب من هـذه الجـدران والأسوار المنفـرة؟ هل خشيت أن تتلاشى أحلامك عن دمشق؟ لا.. لا تدع ثقتك تتزعـزع.. فكل بيـت دمشقي هو جنـة قائمة بحد ذاتهـا». ويتابع هذا الزائـر الأمريكـي وصفه للمنـزل الذي زاره «إنه قصـر خيالي كما في الأحـلام.. فالمنظـر كان بمثابة قصيدة شعر ملحنـة للغناء. فالشمس أرسلـت أشعتهـا المتلألئة إلى باحـة المنزل الفسيحة، حيـث توسطتها بحرة فوارة من الرخام تصب فيها المياه نوافير عجيبة الشكل وتصدر صوتـاً كدندنة الجـداول. أما الأرضية فكانـت ذات ترابيع فسيفسائية رخاميـة تلمع توهجاً بينما وضعـت أوان كبيرة من الأزهار بالقرب من الجـدران.. وامتدت النباتات وأزهارهـا حولهـا لتنشر عبقها في أرجاء المكان.. كانت الغزلان الصغيرة تقف وتعدو في باحة الدار، والعصافير تغرد بين أغصان الأشجار وأريج أزهارها الفواحة. أما الليوان وواجهته المفتوحـة والمطلة على باحة المنزل فكان أعلى مـن مستوى أرضية تلك الباحـة ومزين بأقواس في قسمـه الأعلى وفرشت أرضـه بأفخر أنواع السجاد وأثـث بالأرائك. أما جوانب وسقف ذلك الليوان فكانت مزينة



الصورة في الصفحة السابقة: إطلالة من الرواق الحجري المقنطر في مكتب عنبر.

الصورة في الأعلى: مخطـط معمـاري للواجهـة الداخلية لمكتب عنبر مع الرواق المقنطر.



الصورة العلوية اليسارية: جانب من قاعة الاستقبال في بيت لشبونة وأبوابه المحفورة والمذهبة وهي قاعة نموذجية يعود أسلوب زخرفتها وتزيينهـا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

برسـوم خياليـة في صنعها من فـن الزخرفـة العربيـة. إن داراً كهذا ستبعث في مخيلتك ولاشك كتاب ألف ليلة وليلة.».

عندما كان لامارتين في دمشـق وشاهد قاعات الاستقبال الفاخرة في بيـوت الأغاوات وعلية القوم، قدر بأن تزيـين وزخرفة كل واحد من تلك البيوت لابد أنه كلف مئة ألف قرش عثماني قال «لا يوجد في أوروبا كلهـا ما يضاهي هذه الروعة والجمال». كمـا وصف الرحالة الفرنسي (يوجين ميلكيور دو فوكيه) الذي زار دمشق عام ١٨٧٢ التزيين الموجود داخـل البيوت الدمشقيـة بأنه «يتحـدى أبعد ما يمكـن أن يذهب إليه الخيـال... فـكل ما هو موجود في تلك البيوت يبعـث الراحة والسرور في نفـس من ينظـر إليها». بالطبع ينبغي أن نتذكر بـأن هؤلاء الرحالة والزوار الأجانب إنما شاهدوا تلك البيوت في أوج أناقتها وحسن شكلها وحالها وليس كما يبدو معظمها الآن لأنها باتت «كقصور الجمال النائم لم يمسّها أحد ولم تلق العناية اللازمة لعقود طويلة من الزمن».

لم يكـن أصحاب تلـك القصور الفخمة كما يتبـادر إلى ذهننا من تجار المدينة الأثرياء لأن الطبقة الأرستقراطية في دمشق – والمقصود بهـا أعيان المدينة – لم تضم بين أفرادهـا رجال الأعمال والتجار كما يُشار إليهـم في جميع المؤلفات والكتب وإنمـا الزعماء الدينين والقادة العسكريـين. وكما ذكر (جـون باورينغ) في تقريره عـن الإحصائيات التجارية السورية فإن التاجر قلما يحظى بالتقدير الكبير لأن الوجهين المميزيـن فعـلاً في المجتمع هما مـن يملك زمام قـوة السيف والمراجع الدينية، أي العسكر وعلماء الدين.



ضم العسكر بين صفوفهم ولاة وحكام دمشق وقادة مختلف الفرق العسكرية المتمركزة في البلاد لحفظ السلام لكل من قام باحتلال سورية. أما العلماء فقد شكلوا نخبة رجالات الدين – شيوخ المسلمين والقضاة والعائلات المنسوبة إلى أصل الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) التي يُطلق عليها لقب «الأشراف»، بالإضافة إلى الصوفيين. ويأتي ترتيب التجار بعد كل الفئات التي ورد ذكرها، لكن هذا لا يعني بأن التجار كانوا أفقر من وجهاء المجتمع وعلية القوم آنفي الذكر وإنما أقل نفوذاً منهم فحسب. فمن أعظم بيوت دمشق بيت العقاد – الذي استأجرته الحكومة الدانمركية من الحكومة السورية ورممته ليتحول إلى المعهد الثقافي الدانمركي بدمشق – لكن أسرة العقاد ليس لها تاريخ سياسي أو ديني وإنما كانت ببساطة أسرة ناجحة وناشطة في تجارة النسيج والمنسوجات. يقع بيت العقاد في سوق الصوف، ولعل السبب في اختيار الموقع هو التجارة التي تعاملت بها الأسرة، بينما تقع العديد من المنازل العائدة للزعماء الدينيين ضمن تجمعات كالعناقيد حول الجامع الأموي أو في أحيائه المجاورة.

وبمحاذاة بيت العقاد بالضبط في سوق الصوف هناك منزل آخر رائع معروف باسم بيت الأسطواني. كانت عائلة الأسطواني من أشهر العائلات الدينية في دمشق، إلا أن أحد أفراد العائلة انخرط في التجارة في أواخر القرن الثامن عشر وربما كان هذا المنزل يخص ذلك التاجر الناجح عبد الله الأسطواني.

وفي التقرير الذي أعده (جون باورينغ) عام ١٨٤٠ ورد ذكر أغنى تجار دمشق ومن بينهم محمد سعيد القوتلي الذي يُقال بأن قيمة رأسماله تراوحت بين مليون ونصف ومليونين قرش عثماني. ولعل هذا هو السبب وراء وجود ما لايقل عن أربعة قصور في دمشق تدعى بيت القوتلي (كان أحدها مقراً للقنصلية البريطانية منذ ١٥٠ سنة خلت). وفي القرن التاسع عشر تمتعت أسرة القوتلي بالثراء إلا أنها لم تحظ بالنفوذ السياسي ولكن بعد مرور قرن تقريباً صعد أحد أفراد تلك العائلة (شكري القوتلي) سلم السلطة وأصبح رئيساً للدولة السورية، وهذا ما يفسر أحد الجوانب المثيرة للاهتمام بالنسبة للعائلات الدمشقية البارزة. فمع أن عدد سكان دمشق يزيد الآن على أربعة ملايين نسمة وليس مئة ألف كما في زمن (باورينغ)، فإن الأسماء التي كانت مشهورة ومعروفة حينذاك مازال صداها يتردد إلى الآن بين صفوة المجتمع الدمشقي.

لم يعرف المجتمع الدمشقي القديم التمييز الطبقي بالنسبة للمكان الذي يعيش فيه الناس حيث كان الفقير والغني يقطنان جنباً إلى جنب في الحي الواحد، كما كان الفقراء والأغنياء يصلون سوية في المساجد. فالأحياء أو المناطق كانت تتألف من عائلات أو طوائف موسّعة بالإضافة إلى التابعين لتلك الطوائف. لكن المدينة القديمة ككل بالكاد تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: منطقة المسلمين في الغرب، ومنطقة المسيحيين في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، والمنطقة اليهودية في الجنوب الشرقي منها. فالقوس الروماني الذي يقع في منتصف الشارع المستقيم يحدد بطريقة أو بأخرى الفاصل غير المباشر بين منطقة المسلمين والمنطقتين الأخريين. وذكرت إيزابيل بيرتون في هذا الشأن قائلة «إن الشوارع نادراً ما يتم إصلاحها أو تنظيفها فتتحول إلى أخاديد عميقة من الوحل



الصورة في الصفحة السابقة: منظر للسقوف المزينة بالرسوم الجميلة في بيت لشبونة تبين كيف تقسم الأقواس قاعة الاستقبال إلى نصفين.

الصورة في اليسار: النصف الآخر من قاعة الاستقبال في بيت لشبونة. نجد هنا في المدخل أن الزخرفة مطبقة على الكسوة الحجرية بدلاً من الكسوة الخشبية.

الأسود وبرك الماء القذر، وبالرغم من عشقي لهذه المدينة إلا أنها ليست أنظف مدينة في العالم. ولكن عندما تكون مغرماً بشيء ما فإنك تتمنى أن يبقى على حاله دون أي تغيير في معالمه.».

عند غروب الشمس كل مساء في الأيام الخوالي لم يقتصر الأمر على إغلاق أبواب دمشق التسعة طوال الليل، وإنما مايقع خلف تلك الأبواب أيضاً. وتقول السيدة (بيرتون) عن ذلك «ينطوي إغلاق أبواب المدينة على انغلاق الأحياء المسلمة والمسيحية واليهودية فيما بينها أيضاً».

منذ الفتح الإسلامي لمدينة دمشق عام ٦٣٥ ميلادية احتفظ المسيحيون واليهود بمكانة خاصة في المجتمع. وبما أنهم «أهل الكتاب» فإنهم يشاركون المسلمين في تبجيل عدد من الأنبياء، كما يبجل المسلمون السيدة العذراء والسيد المسيح عليه السلام. وفي الحقيقة هناك أسطورة تفيد بأن مريم العذراء والمسيح عليهما السلام عاشا لفترة في وادي الربوة الجميل الذي يقع في ضواحي دمشق. وتجدر الإشارة إلى أن النصارى واليهود لم يخضعوا للالتحاق بالخدمة العسكرية وإنما كان يدفع أبناء هاتين الجاليتين غرامة مالية بدلاً من السَوق إلى الجندية. كما توفرت لهم حرية العبادة لكن جرى إبعادهم عن السلطة السياسية. ومع ذلك لم يؤثر ذلك على أداء أدوارهم ونشاطاتهم التقليدية على أفضل وجه كمحاسبين وإداريين ماليين ومصرفيين ومرابين مع أنهم ظلوا عرضة لأهواء الولاة ومسؤوليهم — كما عانى أبناء بلدهم المسلمين من الاستبداد ذاته. في الواقع إن أغنى رجل في سورية في بداية القرن التاسع عشر كان يهودياً يدعى (حاييم فارحي) الذي كان يعمل مصرفياً ومديراً مالياً للوالي العثماني حينذاك — الذي كان يحكم صيدا ودمشق ومعروف بلقب «الجزار». وبعد مرور سنوات قليلة احتل رجل مسيحي يدعى حنا البحري المنصب ذاته الذي شغله (فارحي) ولكن في ظل حاكم دمشق خلال الفترة القصيرة التي استلم فيها المصريون مقاليد الحكم في سورية.

عندما حصل الانفتاح التجاري بين سورية والغرب في القرن التاسع عشر استفاد المسيحيون واليهود أيّما استفادة لأنهم حظوا بالأفضلية بدلاً من المسلمين لدى التجار الغربيين وذلك عن طريق اختيارهم كوكلاء ممثلين للشركات الغربية في سورية، مما أدى إلى ازدياد ثراء الجاليتين المسيحية واليهودية على حساب المسلمين. وقد قال القس (جوسياس بورتر) عام ١٨٥٥ «مع أن اليهود الموجودين في دمشق قلائل لكنهم يتمتعون بنفوذ واسع بسبب الثروات الهائلة التي اكتسبتها بعض من العائلات اليهودية». في ذلك الزمن كان عدد الزوار الغربيين القادمين إلى دمشق محدوداً حيث كانت زيارتهم جزءاً من جولة تتضمن الأرض المقدسة وفي الوقت ذاته كانوا يتوقون لمشاهدة قصور دمشق الأسطورية في جمالها وروعتها، لكن بما أن بيوت المسلمين كانت مغلقة أمام زيارة الأجانب لم يتسن لهم سوى مشاهدة البيوت المسيحية واليهودية. كان «دليل موراي السياحي» الصادر في ١٨٥٨ ينصح المسافرين القادمين من الغرب بأن «الدليل أبا إبراهيم



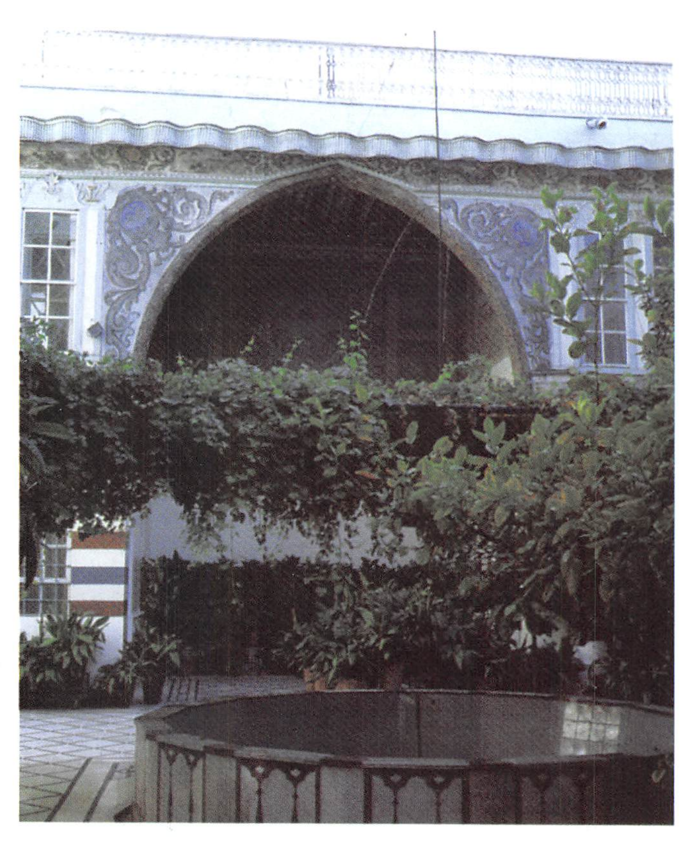
الصورة في الأعلى: باحة منزل بيت فارحي كما تبدو في الزمن الحاضر وبذلك لا تعد سوى ظل لما كانت عليه في السابق. كما تسكن فيه الآن عدة عائلات.

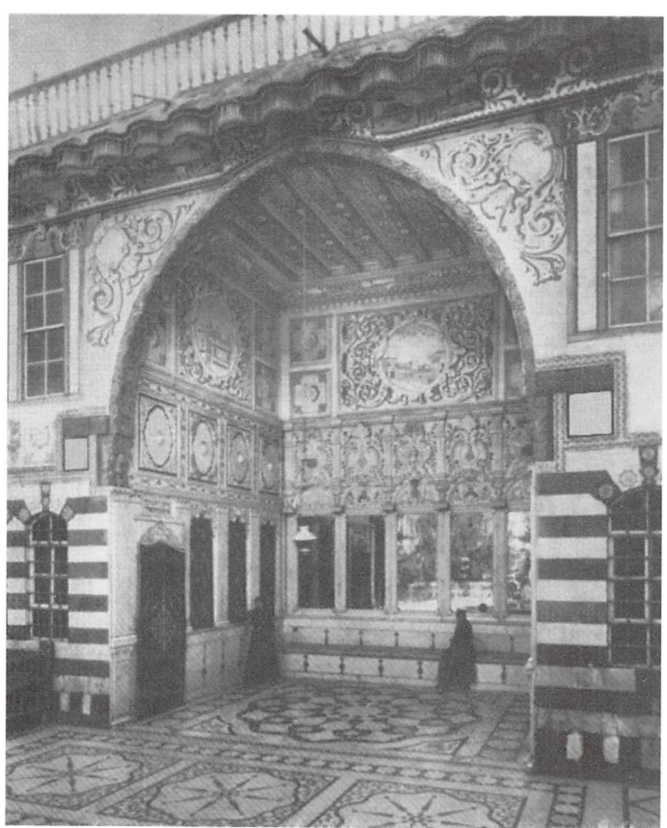
الصورة في الصفحة المقابلة: «قطف الليمون»: بيت فارحي كما رسمه السير (فريدريك لايتون) عام ١٨٧٣. الأقواس الموجودة على يمين اللوحة تؤدي إلى باحة أخرى ضمن هذا الدار.



يستطيع اصطحاب المسافرين لزيارة البيوت اليهودية ... ومن الأفضل زيارة تلك البيوت أيام السبت لأنها تكون نظيفة ويظهر سكانها بأبهى حليهم ولباسهم». ومع ذلك وجد «دليل موراي» بأن البيوت اليهودية تفتقر إلى الذوق الرفيع في تزيينها بالرغم من المبالغ الكبيرة التي تنفق في تزيينها، لكنه نصح بزيارة قصري لشبونة وفارحي لأنهما كانا استثنائيان في جمال تزيينهما. أما البيوت المسيحية - مع أنها أصغر حجماً من البيوت اليهودية - إلا أنها تفوقت عليها من حيث حسن الذوق والجمال في التزيين. ومن أفضل النماذج عن تلك البيوت المسيحية الجميلة هو بيت شامية وبيت فرانسا. لكن «دليل موراي السياحي» حذر السائحين منوهاً إلى أن زيارة البيوت المسيحية تتطلب الحصول على تعريف من صديق مقيم في المدينة.

عندما قامت السيدة الأرستقراطية البريطانية (هيستر ستانهوب) - التي كانت تهوى المغامرات - بزيارة دمشق عام ١٨١٢ جرى اصطحابها مع زميلها الطبيب (ميريون) لزيارة بيت فارحي فقال الطبيب في وصفه لذلك المنزل «عند دخول هذا المنزل فإن النظر يُبهَر بالجدران والسقوف المتلألئة التي تشبه في مظهرها الأوصاف المذكورة عن القصور الخيالية. فهذه الجدران والسقوف مغطاة في كل جوانبها بالأحجار الكريمة غير الأصلية بالإضافة إلى المرايا التزيينية والتذهيب والرسوم الجميلة وفن الزخرفة العربية (الأرابسك). أما الأرض فمزينة بالفسيفساء الأنيق. وهناك غلايين التدخين مصنوعة من الكهرمان وفناجين قهوة مزينة بقواعد ذهبية بينما يوجد العنبر في قعرها كي يزكي من نكهة مشروبها، بالإضافة إلى فوط مطرزة لمسح الشفاه علاوة على المذاق الرائع لشراب الفواكه المنوعة التي تتماشى ألوانها الزاهية مع فخامة المنزل». إن السيدة (هيستر) نفسها - التي أذهلت الجميع عندما تحدت الأعراف والتقاليد بذهابها حاسرة الرأس إلى منطقة دمشق القديمة - لم تكن سعيدة على الإطلاق بمكان الإقامة الذي خصص لها في المنطقة المسيحية (كما كان الحال بالنسبة لأي زائر إلى سورية قادم من الغرب تكون إقامته في المنطقة المسيحية)، علماً بأن (هيستر) لم تمض سوى فترة قصيرة هناك وقررت بأنها لا تريد السكن في حي محاطة فيه من كل جانب بالجيران اليونانيين والأرمنيين لأنها كانت تريد «الشرق» بكل ما في الكلمة من معنى. لذلك حثت صديقها الطبيب (ميريون) المسكين للذهاب إلى الوالي وإقناعه بتخصيص مكان إقامة لها في منطقة المسلمين وبالفعل استجابوا لطلبها وخصصوا لها منزلاً جميلاً. كان ممر المنزل ضيقاً لكنه يفضي إلى باحة مستطيلة مرصوفة بالرخام يتوسطها حوض ماء كبير وتظلله شجرتا ليمون باسقتان. وكانت البركة مزودة بنافورتين على شكل رأس أفعى من النحاس يتدفق منهما الماء العذب بشكل مستمر. وسرعان ما ذاع صيت السيدة (هيستر) في قصرها الدمشقي الجميل وأصبح الجميع يود الالتقاء بها وذلك قبل أن تنطلق في مغامراتها إلى تدمر ومن ثم إلى لبنان حيث أمضت آخر أيامها.





الصور في الأعلى: بيت نيادو (بيت الاستنبولي) كما يبدو اليوم وكما يظهر في الصورة التي التقطها (بونفيس) في سبعينيات القرن التاسع عشر.

الصورة في الصفحة المقابلة: بيت شامية الذي كان في وقت من الأوقات من أضخم البيوت المسيحية في دمشق وأصبح الآن ديراً للعبادة. هذه الأبواب المرصعة بالصدف تؤدي إلى غرفة الطعام التي أصبحت الآن مصلى الدير.



إن البيوت التي نصح بزيارتها «دليل موراي السياحي» الصادر عام ١٨٥٨ مازالت قائمة في موضعها، ومنها بيت لشبونة – الذي اعتقدت إيزابيل بيرتون بأنه ثاني أجمل دار في دمشق بعد قصر العظم الذي سيجري وصفه لاحقاً – ويجري ترميمه حالياً على يد مالكه الجديد (وهو شخص مسيحي) ليصبح فندقاً ذا طبيعة أثرية. الباحات الأربع التي يضمها بيت فارحي بين أركانه قد تحولت مع مرور السنين إلى خراب ويتقاسمها عدة مستأجرين. أما بيت فرانسا مازال محافظا، بشكل نسبي، على جماله وأناقته وخصوصاً الكسوة الخشبية التزيينية الرائعة في قاعة الاستقبال الرئيسية. لكن يبدو بأن حال هذا الدار بدأ يتدهور أيضاً مع مرور الزمن. أما بيت شامية، الذي أعيد بناؤه بطراز أفخم بعد تخريب المنطقة المسيحية عام ١٨٦٠، قد تحول الآن إلى دير ومدرسة رهبانية وأصبحت غرفة الطعام الضخمة المبنية على تيه الطراز الغربي مصلى الدير.

خلال إقامة إيزابيل بيرتون في دمشق جرى بناء منزل فخم آخر – هو المعروف الآن بمكتب عنبر – على يد يهودي ثري حديث النعمة يدعى يوسف عنبر (يُقال بأنه ذهب إلى الهند كخادم وعاد محملاً بأحجار الماس الثمينة في طربوشه). وقالت السيدة بيرتون في وصفها لهذا المنزل «إنه مبني على طراز أكثر حداثة من غيره وهذا هو السبب في أنه لا يثير اهتمامي كثيراً. «إن كسوة المنزل الفاخرة تكاد تكون مفرطة ومبالغ بها، أما تزيين بيت لشبونة فيعكس ذوقاً فنياً رفيعاً علاوة على أنه قديم من الناحية الأثرية. وتقول إيزابيل بيرتون «كان يوسف عنبر يشتري كل المنازل القديمة المجاورة كي يؤمّن مساحة كبيرة تفوق حاجته الفعلية من أجل إنشاء المؤسسة التي يعمل على بنائها. وللأسف الشديد كان يقوم بإحراق الخشب المزخرف والزينة العريقة التي كانت موجودة في تلك البيوت لأنه لا يرى فيها شيئاً من الجمال بنظره الشخصي ويسخر من الألم الذي يعتصر فؤادي جراء أفعاله. لكن عنبر عجز عن تسديد الضرائب المترتبة عليه مما دفع السلطات العثمانية إلى مصادرة داره عام ١٨٩٠ وحولته إلى مدرسة (فكلمة «مكتب» بالتركية تعني مدرسة). أما الآن فقد قامت الحكومة السورية بترميمه وتحويله إلى مقر للجنة الحفاظ على دمشق القديمة عام ١٩٨٦.

لم يعان اليهود الموجودون في دمشق من مشكلة معينة إلى أن قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. فقد عاش اليهود في دمشق كإحدى الأقليات الدينية في مدينة مسلمة دون مشكلات تذكر، كما كان الحال في القاهرة واستنبول وبغداد. وفي عام ١٩٤٨ رحلت بعض العائلات اليهودية إلى إسرائيل فأعيد تخصيص منازلهم التي تركوها إلى العائلات الفلسطينية اللاجئة. وفي عام ١٩٩٣ حصل جميع يهود سورية دون استثناء على سمة خروج من جانب الحكومة السورية ثم تعرضوا لضغوط كبيرة من قبل المنظمات اليهودية الأمريكية لمغادرة سورية. وطبقاً لما أفاد به أحد زعماء الجالية اليهودية، فقد عُرض عليهم حوافز مالية ضخمة وتم إقناع الجالية اليهودية في دمشق التي وصل عدد أفرادها إلى أربعة آلاف لمغادرة المدينة تاركين وراءهم مجموعة صغيرة لا تتجاوز مئة فرد. لكن الآن يبدو بأن عدداً من اليهود الذين رحلوا عن سورية يرغبون بالعودة إليها مع أنه من الصعوبة بمكان تحقيق أمنيتهم بما أنهم باعوا منازلهم وصفوا أعمالهم.



الليوان في منزل مسيحي آخر «بيت فرانسا» في حي باب توما.

كان اليهود مشهورين بصنع الأشياء المعدنية وخصوصاً فن الترصيع المعقد من حفر وتنزيل الفضة أو الذهب في المعادن الأخرى. ولعل أروع النماذج عن تلك الصنعة يتجلى في صناديق تورا المحفوظة في أقدم كنيس يهودي في دمشق في منطقة جوبر. لكن آخر حرفيي هذه الصنعة غادروا دمشق عام ١٩٩٨، علماً بأن أعمال الحفر والتنزيل في المعادن المنفذة في دمشق ليس لها مثيل في العالم.

إن الحي اليهودي في دمشق والذي أصبح شبه مهجور آخذ في تغيير هويته وفقدان حدوده بما أن المسلمين والمسيحيين يعملون على شراء الأملاك القديمة الموجودة فيه. فبيت نيادو، وهو معروف أصلاً ببيت الاستنبولي لأن أصحابه كانوا يهوداً من استنبول، يمتلكه الآن شيخ من ملة الشيعة وهو مولع بهذا المنزل. وقد سألنا المالك الجديد «ألا يشبه هذا المنزل الفردوس؟» عندما قمنا بزيارته في إحدى أمسيات الصيف وجلسنا في باحة الدار الفسيحة والأنيقة نأكل العنب من العريشة المعلقة فوق رؤوسنا ورذاذ الماء المتناثر من البحرة الفوارة يلطف الجو المعطر بعبق الياسمين بينما كان أحفاده يلعبون في أرض الديار.

إن دمشق معروفة بغناها بالقصور التي بناها الحكام والولاة الذين تعاقبوا على حكمها. فالآراميون كان لهم قصر فخم جداً في دمشق وعندما هزموا أمام الآشوريين عام ٧٩٦ قبل الميلاد، جاء الملك الآشوري شخصياً

إلى دمشق ليجمع غنائم النصر. وفي العهد البيزنطي كان هناك قصر عظيم بالقرب من الشارع المستقيم يدعى «الباريس»حيث يُقال بأن الماء والخمر كانا يقدمان لزوار القصر. أما الأمويون فقد بنوا القصر الأخضر بالقرب من الجامع الأموي، بينما بنى المماليك قصر الذهب وقصر الأبلق لكن لم يبق أي حجر أو قطعة من تلك الصروح العظيمة التي كانت مشهورة في زمنها. في الواقع إن أقدم البيوت الكاملة الموجودة في دمشق في الوقت الحاضر إنما يعود تاريخ بنائها إلى القرن الثامن عشر فقط. ولعل السبب في اندثار المنازل الأقدم هي الزلازل التي ضربت المنطقة والحرائق الكبيرة التي أتت بنيرانها على الكثير من المباني من جهة، والطريقة التي شيّدت بها تلك البيوت القديمة وافتقارها للعوامل التي تستطيع المحافظة عليها من جهة أخرى. ومع أن جدران الطابق الأرضي في البيت الدمشقي التقليدي تبنى بواسطة الحجر، لاسيما حجر البازلت الأسود من جنوب سورية – إلا أن الطوابق العليا تتألف من هيكل مصنوع من دعامات خشبية رفيعة من خشب الحور تكسى بقوالب من الطين المشوي بالشمس، وهي قوالب خشبية يوضع فيها الطين ثم يجفف بتعريضه لأشعة الشمس الكفيلة بشيّه. كما تضاف قطع صغيرة من القش أو خيطان أكياس الخيش القديمة إلى الطين بهدف تمتينه وتقويته. وحتى يومنا هذا هناك محل قبالة مكتب عنبر يعمل على تقطيع أكياس الخيش القديمة إلى قطع صغيرة من أجل استعمالها في صب القوالب الطينية المستخدمة في البناء. ثم تأتي طبقة ثانية من الطين لتغلف هذه القوالب وتطلى بالطرش الكلسي.

أما السقف التقليدي في البيوت الدمشقية فيتألف من عوارض من خشب الحور توضع فوقها طبقة من الشرائح الخشبية الطويلة والضيقة وتغطى بدورها بطبقة كثيفة من الطين الذي يُسوّى ويُمهّد ويُكبس مراراً وتكراراً إلى أن يكتسب الصلابة اللازمة ويصبح صلباً وكتيماً كالإسمنت (لاتزال بعض الأسقف القديمة تحتفظ بالمدحاة – التي يشبه شكلها وتداً حجرياً ضخماً قابل للتدوير – الخاصة بتسوية وكبس الطين بحيث توضع في مكان قريب بغرض استعمالها عند اللزوم). وإذا لم تجر صيانة هذه السقوف الطينية بشكل منتظم فإنها سرعان ما تصبح عرضة لنفاذ ماء المطر وتسربه إلى الجدران الطينية القائمة تحت السقف، مما يؤدي في النهاية إلى تدهور حالة المنزل ككل.

في الحقيقة يصعب معرفة السبب وراء استمرار عادة بناء البيت الدمشقي من الخارج بواسطة الطين والخشب دهورا طويلة بينما نجد بناء البيت من الداخل فيه الكثير من المهارة والإتقان والبذخ في كسوته. وقد كتب (هنري موندريل) عام ١٦٩٧ وقد أصابته الحيرة حول هذه النقطة بالذات «من الغريب فعلاً أن نجد الناس يلجؤون إلى البناء بهذه الطريقة في حين يتوفر لديهم الكثير من الحجارة الجيدة للبناء في الجبال القريبة منهم». لكن (موندريل) فسّر هذا الأمر بأن أول الناس الذين استوطنوا دمشق وجدوا المكان في غاية الروعة مما دفعهم إلى بناء بيوتهم على عجل مستعملين ببساطة المواد المتوفرة في متناول اليد كشجر الحور والطين الموجود في واحة الغوطة. وتابع (موندريل) قوله مدهوشاً من أساليب البناء المتبعة في تلك البيوت الدمشقية «... تجد في تلك الجدران المصنوعة من الطين بأن البوابات والأبواب مزينة بالمداخل الرخامية المنحوتة والمزخرفة بمنتهى الجمال والإتقان.. ومما يثر الدهشة هو تلاقح الطين مع الرخام بكثير من التناغم». وقد وصف (موريتز بوش) البيت الدمشقي بشكل موجز وبليغ قائلاً «إنه نواة من الذهب ضمن قشرة من الصلصال».

تداعت الجدران الطينية في تلك المنازل على مرّ مئات السنين ثم جرى إصلاحها وإعادة بنائها وتصميمها كي تتماشى مع الأنماط السائدة في زمنها لكن الجدران الحجرية السفلية وأساسات البناء غالباً تكون أقدم بكثير من الطوابق العليا. والشيء الذي يؤكد صحة هذه النظرية هو حصول واقعتين عبر السنوات القليلة الماضية حيث عثر العمال الذين يقومون بإعادة بناء تلك البيوت القديمة في دمشق على كنز مدفون في الجدران العتيقة التي يعملون على إصلاحها. حدثت الواقعة الأولى عام ١٩٩٥ عندما عثر على جرّة من الفخار تحتوي على مئات القطع النقدية الذهبية والفضية يعود تاريخها إلى ١٥٧٦ و١٧١٠. وفي عام ١٩٩٨ عثر على قدر كبير مزين برسوم من العهد المملوكي فيه ستة عشر ألف قطعة نقدية فضية مملوكية صغيرة يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وكان معها أيضاً بعض النقود المعدنية العثمانية القديمة. كما كشفت الأعمال التي أجريت مؤخراً في بيت العقاد (وهو المنزل الذي يقع قبالة الشارع المستقيم وقامت الحكومة الدانمركية بترميمه) بأن الجدار الروماني الموجود في باحة مدخل المنزل ليس سوى جزء من مسرح روماني اكتشفت بواباته مدفونة تحت المنزل أيضاً. وأثناء ترميم قصر آخر يُعرف ببيت المجلد تم العثور على سلسبيل قديم جداً على الجدار الأمامي من المنزل. علاوة على ذلك، فإن المهندس المعماري الذي يقوم بترميم أحد المنازل الكائنة في شارع خلف الجامع الأموي اكتشف خلف بعض رفوف الكتب التي بنيت منذ فترة ليست ببعيدة عتبة رومانية ضخمة من الحجر المنحوت مبنية داخل الجدار. إن البيوت الدمشقية قد أعيد تدويرها، بمعنى أنها بُنيت مراراً وتكراراً على الموضع ذاته على مرّ القرون لدرجة نجد فيها بأن منزلاً واحداً كبيت العقاد قد يحتوي بداخله أو تحته على آثار رومانية بالإضافة إلى باحة داخلية (أرض ديار) يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر وكسوة خشبية تزينية تغطي الجدار بالإضافة إلى بعض الرسومات التي يعود تاريخها جميعاً إلى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين. وفي بيت البارودي، الذي أصبح مركزاً لدراسات دمشق القديمة حيث يعكف طلاب كلية هندسة العمارة بجامعة دمشق على دراسة كل ما يتعلق بمنطقة دمشق القديمة، عثر أحد عمال الترميم على رسوم جدارية مختلفة كلياً تحت الصور الجدارية الزيتية الحالية المرسومة في القرن العشرين. كما اكتشف المعماريون في بيت العقاد وبيت المجلد تحت الزخارف التزينية التي يعود تاريخ صنعها إلى أواخر القرن التاسع عشر، لوحات جصية جدارية موغلة في القدم.

وتقول المهندسة المعمارية الألمانية (دوروثي ساك) التي ألفت كتاباً عن دمشق عام ١٩٨٩ يُعدّ بمثابة مرجع لا غنى عنه بالنسبة للأكاديميين العاكفين على دراسة مدينة دمشق القديمة، بأن الدمشقيين بدلوا منازلهم بإعادة تعميرها كما يبدل الغربيون ورق الجدران في منازلهم.



الصورة في الصفحة السابقة: الكنز المكتشف في دمشق: قطع نقدية من الذهب والفضة موجودة في قدر مملوكي من الفخار.

الصورة في الأسفل: تنظيف الجدار في بيت العقاد كشف عن وجود صور رسوم سابقة.



لكن هذه التغييرات وإعادة التزيين والزخرفة لم تبدل بشكل جذري المخطط التقليدي للبيت الدمشقي وباحته الداخلية. وفي عام ١٩٥٩ عندما كان يجري تجهيز موقع لبناء مصرف حديث في منطقة الحريقة بدمشق اكتشفت الجرافات وجود جزء من أرضية مكسوة بالفسيفساء وتم إشعار مديرية الآثار والمتاحف التي سمحت لعشرة عمال بالحفر في ذلك الموقع لمدة ثلاثة أسابيع قبل البدء بوضع أساسات المبنى الجديد. لقد اكتشف العمال آثار منزل أو قصر بيزنطي رائع جداً يعود تاريخه إلى نهاية القرن الخامس الميلادي. وكان من الصعب جداً الكشف عن الموقع بأكمله بسبب المباني المأهولة المحيطة بالمكان ذاته لكن علماء الآثار وجدوا آثار غرف موزعة حول باحة منزل مرصوفة. كما اكتشفوا أرضيات مصنوعة من الرخام الملون ضمن نماذج هندسية بالإضافة إلى جدران مزينة بكسوة رخامية زهرية اللون وقطع ملونة من الزجاج وبعض آثار الجص التزيني أيضاً. تم تسجيل المكتشفات بعناية ودقة ثم أعيد دفن الموقع وبُني فوقه المصرف الجديد. لكن هذه النظرة السريعة الاستثنائية بنوعها إلى الماضي أظهرت بأن المخطط الأرضي للبيت الدمشقي لم يتبدل على مرّ القرون. ودليل آخر على عراقة هذه الدور الدمشقية أنه عندما توفي السلطان المملوكي (بيبرس) في دمشق عام ١٢٧٧ وُضع قبره في قصر صغير بالقرب من المسجد حيث جُهّز قسم من الطابق الأرضي كي يكون بمثابة المدفن وبُني مدخل جديد للوصول إلى ذلك المدفن لكن باقي المنزل يتبع بوضوح المخطط التقليدي في بناء الغرف حول باحة المنزل ويستطيع الزوار الآن أن يشاهدوا ذلك بأنفسهم.

إن البيت الدمشقي يبنى دوماً حول باحة المنزل الداخلية (أرض الديار) أو حول باحتين أو ثلاث أو ربما أربع باحات. لكن بناء تلك الباحات لم يكن ضرورياً في ذات الوقت الذي يُشيّد فيه المنزل وإنما يمكن إضافتها لاحقاً أو بناؤها على حديقة موجودة بالأصل أو يتم شراؤها من المنزل المجاور.



الباحـــات (أرض الديـــار)



من المثير والمذهل فعلاً أن يمرّ المرء في الحارات والأزقة المعتمة في دمشق القديمة ثم يعبرها فجأة إلى باحات البيوت التي تنيرها أشعة الشمس الساطعة ليجد فيها الأشجار والعصافير المغردة. قد يضم المنزل باحة واحدة تشاطرها العائلة بأكملها أو باحتين: باحة «خارجية» (السلاملك) وهي مخصصة لاستقبال الزوار والضيوف وباحة «داخلية» (الحرملك) وهي مخصصة لأهل الدار ونسائه. كما يمكن أن يضم المنزل الكبير والمهم ثلاث أو أربع باحات كي توفر المساحة الكافية للخدم والخدمات.

الصورة في الصفحة السابقة: عريشة العنب فوق بحرة فوارة في أرض ديار البيت الإسباني.

الصورة في الأعلى: رواق مقنطر بديع الشكل يظلل الليوان في أرض ديار بيت دحداح.

الصورة في الصفحة التالية: الحديقة المخفية — وهي واحدة من أربع باحات تابعة لمنزل دمشقي كبير تداعى مع الزمن. لكن أعمال الترميم في البيوت الدمشقية القديمة هي أسهل مما يبدو عليه أول الأمر.







الباحـــات (أرض الديـــار)



الصورة في الصفحة السابقة: الباحة المتواضعة في بيت الطيبي والتي تعد جوهرة من جواهر هذا المنزل.

الصورة في الأعلى: باحة المنزل الفسيحة المكسوة بالأحجار التزيينية في بيت نظام.

الباحات (أرض الديار)

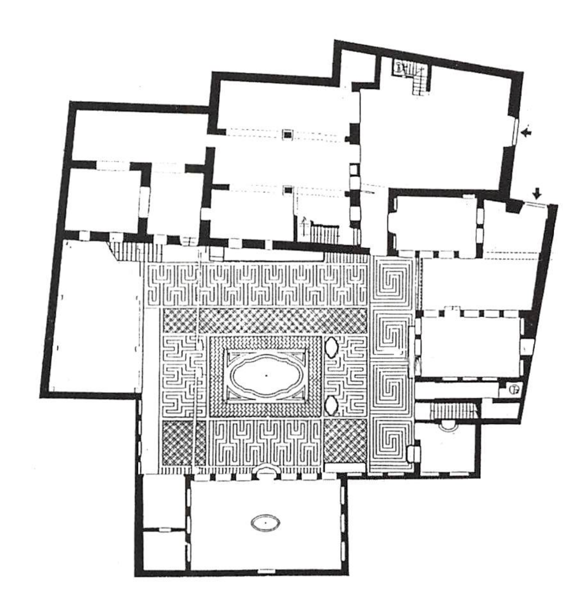
الصورة العلوية اليمينية: المخطط الأرضي لمنزل بباحة واحدة (بيت البارودي). (انظر الصورة العلوية في الصفحة التالية).

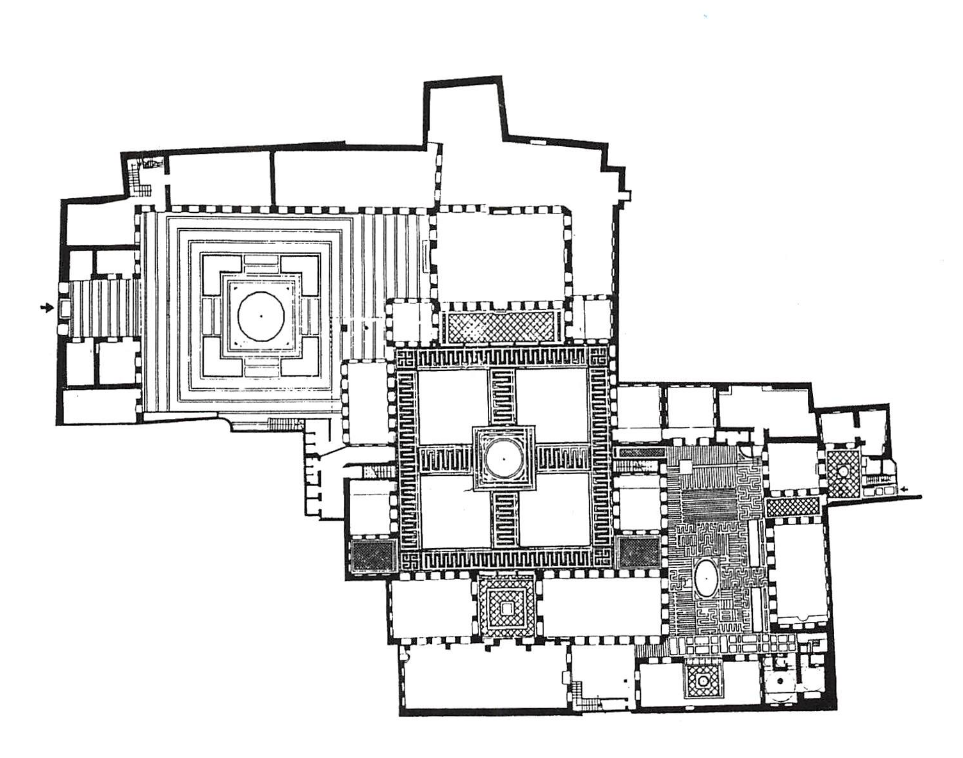
الصورة السفلية اليسارية: المخطط الأرضي لمنزل بباحتين (بيت السباعي). (انظر الصورة التي في الأسفل في الصفحة التالية والصورة في الصفحة ١١٠).

الصورة في الأسفل: المخطط الأرضي لمنزل بثلاث باحات (مكتب عنبر). (انظر الصورة في الصفحة ٨٨).

الصورة العلوية في الصفحة التالية: منظر لأرض الديار في بيت البارودي.

الصورة السفلية في الصفحة التالية: السلاملك في بيت السباعي.







الحرملك (أو ركن العائلة) في بيت السباعي. الدرجات المؤدية إلى القاعة (أو غرفة الاستقبال) يمكن رؤيتها من الخلف.



كان المنزل الذي يضم باحة واحدة (أرض ديار) يسكنه جميع أفراد العائلة معاً ولكن عند حضور الزوار الذكور أو أصدقاء صاحب الدار كانت نساء المنزل تصعدن إلى (الحرملك) أو الركن الخاص في الطابق العلوي. أما في البيوت المزودة بباحتين كانت إحداهن تدعى (السلاملك) أو الركن العام حيث يُستضاف فيه الزوار الذكور، بينما تكون الباحة الثانية مخصصة (للحرملك)، أي لأهل الدار من إناث وذكور. كان تزيين (السلاملك) عادة أبسط بكثير من (الحرملك) كما كانت مساحته أصغر – ويمكن رؤية هذا الشيء بوضوح في قصر العظم. أما الباحة الثالثة أو الرابعة (الخدملك) فهي مخصصة للخدم والخدمات التي تقدم للباحتين الرئيسيتين. وإذا كان المنزل ضخماً وكبيراً بما فيه الكفاية فقد يضم بين أركانه حماماً قبالة باحة (الحرملك)، كما يمكن للمطبخ أن يكون له باحته الخاصة به كما هو الحال في البيت الإسباني أو بيت المجلد. وقد يكون هناك أيضاً ممر خاص (دهليز) إلى الباحة الداخلية كي يبقيها بعيداً عن أنظار من يقف على عتبة باب الدار. وغالباً ما يكون مدخل المنزل أو الدهليز – حتى في أفخم البيوت الدمشقية – بسيطاً جداً يخلو من أية زخارف أو تزيين، وهي عملية مقصودة، وأحياناً يكون مهملاً أو متسخاً بالرغم من وجود حوض ماء صغير من الحجر أو الرخام مخصص للضيوف من أجل إزالة الغبار العالق من شوارع المدينة. وكما ذكرت إيزابيل بيرتون «من الأمور المميزة والغريبة هو إبقاء مدخل الدار مهملاً وغير نظيف، وهذا أمر مقصود يهدف إلى خداع الحكومة وإخفاء ما يوجد في الداخل لاسيما أيام السلب والنهب التي تعرضت لها المدينة بالإضافة إلى حملات المصادرة التي كانت تشنها الحكومة بين الفينة والأخرى. فعندما تقترب من مدخل الدار تكاد روائح القمامة تكون خانقة وباب الدار ذاته يبدو بحالة سيئة جداً، كما أن المدخل قد يفضي إلى دائرة خارجية من باحة الدار لها صفات سيئة كالباب والمدخل وهذا ما يثير مخاوفك فتحدث نفسك قائلاً ياللهول!!! من هم أولئك الناس الذين [illegible]





الصورة في الأعلى: بيت جبري الجميل. المدخل إلى قاعة الاستقبال.

الصورة في الصفحة المقابلة: الليوان في المعهد الموسيقي بمنطقة القنوات.

قد تكون باحة البيت الدمشقي فسيحة وكبيرة جداً كملعب كرة القدم أو صغيرة للغاية، وفي كلتا الحالتين كان الغرض منها تبريد وتلطيف أيام الحر في فصل الصيف الجاف في سورية. فأوراق الأشجار المزروعة في أرض الديار تحجب أشعة الشمس الحارقة وأزهار الياسمين تتساقط بكثرة على الأرض ويفوح أريجها في المكان كله، بينما تنثر نوافير الماء رذاذها في البحرة فتزيد من تلطيف الجو. وكان يوضع في أحد أركان الباحة دائماً قدر يحتوي على الريحان لأنه كان النبات المفضل لدى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) علاوة على وجود الورد الدمشقي المشهور. كانت هناك أشجار تقليدية تزرع في أرض الديار: الكباد والليمون والنارنج (المعروف أيضاً باسم برتقال إشبيليا) وفي الحقيقة إن هذه الفاكهة جاءت إلى إشبيليا من دمشق وليس العكس. أما قشر الكباد والنارنج فكان يُصنع منه حلويات لذيذة المذاق بينما توضع أوراق الليمون في الماء المغلي ليصبح شاياً منعشاً. وكانت هناك أيضاً عرائش العنب التي يوجه نموها باللي والربط على سيقان طويلة جداً تبدأ من أرض الديار ولغاية السطح فتنتشر أوراق العنب في كل مكان لتقدم ثمارها لأهل الدار ولتوفر ظلاً وارفاً يقيهم أشعة الشمس الحارة.

كما كانت هناك حيوانات تقليدية تربى في باحات أرض الديار، كالسلاحف أو الغزلان في البيوت الفخمة حيث كانت تلك الغزلان تتأرجح بشكل غريب ولطيف أثناء حركتها على البلاط الرخامي الأملس. ويُحكى بأن كل دار في منطقة دمشق القديمة تسكنه أفعى خاصة تعيش ألف سنة وتبعث رائحة طيبة جداً في المنزل. وهذه الأفاعي المعروفة باسم «الألفية» ضخمة جداً لكنها لا تؤذيك إذا تركتها ترقد بسلام. حسناء مردم بيك، وهي شابة من أسرة دمشقية معروفة، سمعت قصة روتها والدة جدتها التي يبدو بأنها أقلقت سكينة الحية الألفية في وكرها فخرجت ونفثت سمها في زبدية الحليب التي كانت توضع دائماً لها فشعرت والدة الجدة بالخطأ الذي ارتكبته واستبدلت المكان الذي يقع فيه وكر الحية في أرض الديار فعادت الحية وقلبت زبدية الحليب كي لا يتضرر أحد من الحليب المسموم.

تنعم باحات البيوت الدمشقية بموسيقى خاصة تمثلت في تغريد الطيور وخصوصاً طيور الكنار المحفوظة داخل الأقفاص (لابد أن تغريد الطيور كان البديل للموسيقى التي يبثها المذياع في ذلك الوقت). هناك عالم آخر على سطوح منازل دمشق القديمة يؤوي الطيور والذي يشكل مملكة مربي الحمام (كشاشي الحمام) وهي ما تبقى من الماضي حين كان الحمام الزاجل يؤدي مهمة الخدمة البريدية السريعة إلى بغداد وحلب. وإذا رفع المرء نظره إلى السماء سيشاهد أسراب الحمام تحلق ضمن أسراب أنيقة ومنظمة وغالباً يصبغ ريشها باللون الزهري كطيور النحام (الفلامنكو). يسعى كل واحد من مربي الحمام إلى الإمساك



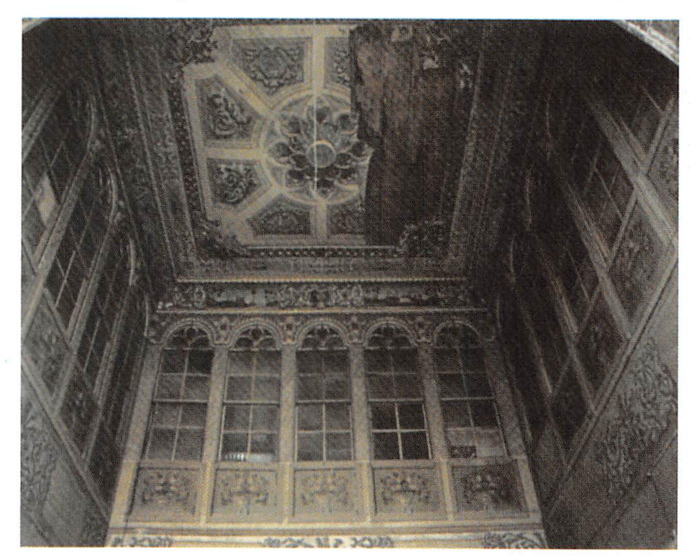
بطيور المجموعات المنافسة وبما أن الجزء المهم من اللعبة هو الكذب وعدم البوح بالحقيقة فيما إذا اختطفوا حماما خاصا برجل آخر فإن مربي الحمام (كشاشي الحمام) في دمشق لا يثق الناس بصحة أقوالهم كما أن شهادتهم غير مقبولة في المحكمة حسب ما يزعم به البعض. وذكرت السيدة البريطانية (إم. بي. روجرز) التي زارت دمشق عام ١٨٦٥ «علاوة على ذلك يعتقد بأن كشاشي الحمام ينتهزون الفرصة للنظر من موقعهم المرتفع إلى (الحريم) في البيوت المجاورة».

كانت باحات الدور الدمشقية الأقدم ترصف بقطع من حجر البازلت الأسود والأحمر المستخرج من مقالع الحجارة في المزة في أطراف دمشق ضمن أشكال معقدة تشبه المتاهات ولكن في القرن التاسع عشر استبدلت الحجارة بالرخام ولكن ضمن نماذج هندسية أكثر تعقيداً من الحجارة. أما الجدران الداخلية للمنزل المطلة على أرض الديار كانت تبنى غالبا بمداميك من الحجر الأبيض والأسود وتزين بزخارف (النباتي). وأول من استعمل هذا الأسلوب المعماري هم المماليك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لكن حرفيي دمشق طوروا هذه الأعمال الزخرفية ووصلوا بها إلى حد الكمال من حيث المظهر الجميل والبديع في القرن الثامن عشر. لكن العملية برمتها كانت في غاية التعقيد فكتلة الحجر كان ينقش عليها شكل هندسي يملأ فيما بعد بالزخارف الملونة (النباتي) المصنوعة من أحجار بألوان مختلفة ومسحوقة سحقاً ناعماً. وفي القرن التاسع عشر أخذت تلك الزخارف تصبغ بألوان غير لون الحجر، كالأزرق أو الأحمر (يمكن رؤية نماذج عن ذلك في مكتب عنبر)، أو يتم اللجوء إلى أسلوب أبسط يتمثل في رسم تلك النماذج والأشكال على الحجر. لكن يمكن القول بأن الأسلوب السابق الذي ينطوي على نقش النماذج بدقة وبراعة بتدرجات اللون البني والطين النضيج باللونين الأسود والأبيض كان متناغماً وبديعاً. ولعل أجمل النماذج عن ذلك الأسلوب (مع أنه أصبح مهملاً على مر السنين) يتجلى في الواجهة الداخلية لبيت الأسطواني في سوق الصوف. أما بيت جبري وبيت السباعي وبيت دحداح فهي قصور أخرى جرى تزيينها بالزخارف الملونة (النباتي) البديعة. كما نجد بأن أرض الديار في بيت العجلاني (الذي يسهل الوصول إليه بما أنه أصبح منطقة للعموم وفيها المحلات التجارية) جدرانها منقطة بحجارة مزينة بالزخارف (النباتي). ويصفها (ستيفان ويبر) – الذي يُعدّ خبيراً في هذا الشأن – بأنها «تشبه نماذج من مخططات التصميم».

اعتاد المسافرون القادمون إلى دمشق في الماضي الإشادة بنظام تمديد الماء المؤلف من شبكة من القنوات والأقنية من نهر بردى الذي كان يسقي واحة الغوطة منذ عهد الرومان ويزود الماء للحمامات العمومية وصنابير الماء في المنازل وإلى كل البحرات الفوارة (الفسقيات) الموجودة في كل أرض ديار. وقد وصف الإدريسي مصدر نهر بردى (عين الفيجة) وكيف كان ذلك المصدر يغذي دمشق بالماء «كان الماء يندفع بقوة نحو الأعلى في زاوية الجبل وكأنه نهر عظيم ويصدر هديراً مرعباً وتدفقاً يمكن أن تسمع ضجيجه من مسافة بعيدة. وقبل أن يصل النهر إلى المدينة يتفرع إلى قنوات عديدة تنقل الماء إلى كافة أرجاء المدينة لتصل إلى المنازل والحمامات العمومية والأسواق والحدائق».

الصورة في الأسفل: سقف قاعة الاستقبال المزين بزخرفة بديعة في بيت اليوسف.

الصورة في الصفحة المقابلة: العتبة في بيت السباعي كما تبدو من العليّة المرتفعة عن سطح الأرض.



كان الماء النظيف يجري في كل منزل بواسطة ذلك النظام بينما يخرج الماء المالح منه من قناة مختلفة. (يمكن رؤية هذه الوصلات القديمة إلى الآن في بيت خالد العظم وبيت مردم بيك). في الحقيقة إن تنظيم جريان الماء داخل المنازل أمر يثير الإعجاب حيث كان الماء يعبر بشكل فعال من بحرة فوارة إلى أخرى – وكان هذا مطبقاً في القصور الضخمة أيضاً – لأن كل بحرة كانت تبنى بمستوى أخفض عن سابقتها بشكل طفيف. وبعد أن يغذي الماء كل البحرات الفوارة يصل عن طريقها أيضاً إلى المطبخ والمغاسل.

ضمت كل باحة في منازل دمشق القديمة بين أرجائها بحرة فوارة (فسقية)، وأحياناً تكون تلك البحرات كبيرة جداً لدرجة تتيح السباحة فيها، كما هو الحال في بيت القوتلي وبيت خالد العظم وبيت السباعي. أما البحرات الأقدم فكانت تلبس بالحجر ببساطة كأرضية الباحة ذاتها. ولكن في القرن التاسع عشر عندما خضعت البيوت لعمليات ترميم متكررة أعيد بناء تلك البحرات الفوارة بالرخام بدلاً من الحجر. بالنسبة للبحرات الفوارة الداخلية أو الفسقيات الموجودة ضمن الغرف («البحرة الفوارة» هو المصطلح الذي يُطلق على بركة الماء المزودة بنافورة في أرض الديار أما نظيرتها الموجودة داخل الغرف فتسمى «فسقية». «المترجم») كانت أصغر حجماً لكنها أكثر تزييناً وخصوصاً بالاعتماد على الفسيفساء الرخامية أو التنزيل والترصيع بالصدف. ولعل أكثر هذه الفسقيات إثارة للفضول هي تلك الموجودة في بيت شيرازي وبيت خالد العظم حيث تتميز بأنها قليلة العمق وتأخذ شكل متاهة منحوتة في الرخام ويسري فيها الماء بين أخاديد المتاهة.

كانت البحرة الفوارة المبنية في أرض الديار توضع دائماً على نسق أبهى غرف المنزل المعروفة بالليوان مع أنه لا يُعدّ غرفة بكل معنى الكلمة وإنما فجوة ضخمة ومقنطرة في الجدار بحيث تكون مغلقة من ثلاث جوانب ومفتوحة بالكامل من الجهة المطلة على أرض الديار مع الأخذ بعين الاعتبار اتجاه ذلك الليوان نحو الشمال لاستقبال نسمات الهواء البارد حيث يجلس فيه أفراد العائلة أو ضيوف رب المنزل أيام الصيف الحارة يدخنون النارجيلة.

للحصول على أكبر قدر ممكن من نسمات الهواء البارد كان سقف الليوان أعلى من باقي سقوف غرف المنزل، حيث يصل علوه إلى ارتفاع طابقين كاملين. وبما أنه المكان الرئيسي لاستضافة أهل الدار وزوارهم في فصل الصيف، فكان يزخر بالزخارف التزينية وله سقف خشبي مغطى بالرسوم الجميلة والزخارف الملونة (النباتي) والأحجار المنحوتة والمرصعة بمنتهى الدقة والعناية، بالإضافة إلى اللوحات الجصية الجدارية والأرضية الرخامية بأشكال معقدة تشبه في تصميمها السجاد المزين.

في الجهة المقابلة لليوان عبر أرض الديار تقع ثاني أهم غرفة ألا وهي غرفة الاستقبال الداخلية المعروفة باسم «القاعة» وتكون مواجهة للجنوب للاستفادة من أشعة الشمس الدافئة في فصل الشتاء. وفي الحقيقة إن هذه القاعة هي أجمل أجزاء البيت الدمشقي وأكثرها بهاء من حيث التزيين والزخارف التي تجعل الزائر الأجنبي يشعر وكأنه يدخل إلى عالم ألف ليلة وليلة.

تتألف القاعة من جزئين: مساحة المدخل وتكون موازية لمستوى أرض الديار ومرصوفة بالحجر أو الرخام ويطلق على هذا القسم اسم «العتبة» وغالباً ما يتوسطها فسقية بالإضافة إلى مصبّ على شكل محراب في الجدار المواجه لباب القاعة. لكن هذا المصبّ ليس له أية دلالة دينية وإنما الغرض منه حفظ النراجيل وأباريق الماء الفخارية وما شابه. كان هذا المصبّ يُزين بزخارف كثيرة والفسيفساء الرخامية وأحياناً تضاف إليه مقرنصات منحوتة في الحجر. أما القسم الثاني من القاعة فهو مخصص للجلوس ويُعرف باسم «المجلس» أو الطزر (الطزر كلمة تركية تعني القسم المرتفع عن العتبة. «المترجم») ويُفصل عن قسم العتبة بقوس ضخم ومستواه أعلى من أرض العتبة بحوالي ٦٠ سم. تكون أرضية هذا «المجلس» (الطزر) بسيطة لا زخارف فيها لأنها تغطى بالسجاد والبسط ويوضع فيها أريكة منخفضة تدعى «الديوان» أو وسائد مصفوفة تستند إلى جميع جهات الجدران. كان الضيوف يخلعون أحذيتهم في «العتبة» ثم يصعدون للجلوس في «المجلس» حيث يُقدم لهم كافة أنواع الحلويات والمربيات والشراب والقهوة المنكهة بالهال والشاي المصنوع من أوراق النباتات البرية وبالطبع النارجيلة. لم يحتو البيت الدمشقي على ما هو معروف بغرفة الطعام أو غرفة الجلوس وغيرها من التقسيمات الحديثة. فكل غرفة بما فيها «القاعة» يمكن إعدادها على الفور لتؤدي أية وظيفة مطلوبة. فوجبات الطعام يمكن تقديمها على أطباق كبيرة (صواني) ثم تنقل خارجاً بعد





القاعة الرئيسية في بيت المجلد (قبل الترميم): العتبة المزينة بالحجر المزخرف تظهر متباينة مع المجلس (الطزر) المزدان بسخاء بالرسوم والتذهيب في جميع جوانبه. يظهر في الصورة «المجلس» الثاني في الغرفة المبينة في الصفحة ٧.





الصورة في الصفحة السابقة: شرفة في الطابق الأول تمتد حول باحة المنزل وتؤدي وظيفة الدهليز أو الممر إلى غرفة النوم في بيت شطه.

الانتهاء من تناول الطعام. وفي الليل يمكن إخراج تجهيزات النوم – من فرشات وشراشف وبطانيات ووسائد – التي تكون محفوظة عادة في الخزائن الجدارية فيتحول المكان على الفور إلى غرفة نوم. وقد يحتوي البيت الدمشقي الكبير على «مجلسين» (طزرين) للجلوس في «القاعة» الرئيسية على جانبي «العتبة» المركزية. وفي حالات نادرة (كبيت السباعي وبيت جبري) هناك ثلاثة «مجالس»، اثنان منهما على جانبي العتبة والثالث في المؤخرة. وفي بعض البيوت نجد بأن القاعة مبنية فوق قبو تحفظ فيه المؤن وفي هذه الحالة يكون باب مدخل القاعة مرتفعاً عن الأرض ويمكن الوصول إليه بعدة درجات منخفضة.

احتوت بعض البيوت الدمشقية على أكثر من قاعة (على سبيل المثال بيت العبد كان فيه ست قاعات لكن هذا كان أمراً غير مألوف). كما كانت هناك غرف أخرى أصغر حجماً تستعمل لأغراض عديدة تدعى «المربع» وتكون موزعة حول أرض الديار ومزينة بالزخارف الجميلة كسواها من غرف المنزل. أما القسم الأعلى من المنزل، كالطابق الأول فكان يُزود بشرفة تمتد على طول أرض الديار وتؤدي وظيفة الممر الذي يفضي إلى غرف النوم. وفي أعلى قمة المنزل هناك غرفة منعزلة تشبه الكشك تطل على سطح المنزل وتدعى «الطيارة» لأنها كانت مرتفعة جداً وتكاد تلامس السماء بالمعنى المجازي للكلمة.

تمركز جنود الجيش الألماني في سورية خلال الحرب العالمية الأولى بما أن ألمانيا كانت متحالفة مع الأتراك وكان بين هؤلاء الجنود عالم آثار ومؤرخ ألماني شهير يدعى (ثيودور فايغاند) الذي أعجب جداً بالمدينة القديمة في دمشق وأقنع جمال باشا الذي كان والياً على دمشق حينذاك كي يسمح لاثنين من المهندسين الألمان بالمجيء إلى دمشق لإجراء دراسة على المدينة. وبالفعل وصل عام ١٩١٧ (كارل والزينغر) و(كارل واتزينغر) – التشابه بالأسماء كان مجرد صدفة- إلى دمشق وحصلا على مكان للإقامة في البيت الإسباني، الذي كان قبل عدة عقود مقراً للقنصلية الإسبانية. وقال المهندسان في دراستهما الرائعة عن دمشق الإسلامية «لقد حالفنا الحظ للعيش قرابة السنة في أحد أضخم وأجمل البيوت الموجودة في شرق المدينة». كما أورد هذان المهندسان في دراستهما وصفاً عن مخطط البيت الدمشقي التقليدي وطريقة بنائه ونظام إمداده بالماء وغير ذلك. ولكن عندما وصل بحثهما لوصف «قاعة» الاستقبال الرئيسة و«العتبة» الموجودة فيها بالإضافة إلى «المجلس» (الطزر)، كانت كلماتهما لاذعة «من غير اللائق أبداً أن يترك الضيف واقفاً في العتبة كالخادم أو المتسول. كما أن صعود الشخص إلى مكان الجلوس المرتفع عن مستوى الأرض منتعلاً حذاءه يُعدّ خطأ كبيرا بحق أهل الدار». وفي معرض وصفهما لطريقة الجلوس في القاعة، قال (والزينغر) و(واتزينغر)

«توفر الوسائد الموضوعة على امتداد الجدران في ذلك القسم المرتفع مكاناً للاسترخاء والاستراحة لكنه من غير اللائق أبداً وضع كرسي أو أريكة في هذا القسم المرتفع – كما ترى ذلك في الصور الفوتوغرافية للقنصليات الأوروبية في دمشق.».. كان البيت الدمشقي عادة لا يحتوي إلا على عدد قليل جداً من قطع الأثاث باستثناء بعض الطاولات الصغيرة والصندوق المرصع الضخم الذي تحتفظ فيه العروس بجهاز عرسها. وعندما قام (الكسندر كينغلايك) بزيارة دمشق عام ١٨٣٤ قال في مذكراته «لا يوجد أثاث يعكر صفو الفراغ البارد الذي يشبه الفراغ الموجود في القصور. فهناك أريكة طويلة وعريضة ومنخفضة (الديوان) تمتد حول جدران الغرفة الثلاثة وأحياناً توضع بعض قطع السجاد العجمي قرب الديوان بشكل غير منتظم بحيث يغطي جزء من حافة السجادة الجزء الآخر من السجادة المجاورة وهكذا دواليك مما يعطيها مظهراً فاخراً لكن يعوزه الترتيب. وعدا ذلك الأثاث القليل لا يوجد ما يعيق جو الترحيب بالزائر..».

مع أن «المجلس» و«العتبة» قسمان من الغرفة ذاتها إلا أن أسلوب تزيين كل منهما وزخرفته يختلف عن الآخر اختلافاً كبيراً. فالسقف في كلا القسمين مصنوع من الخشب المزين بالرسوم لكن هذا هو وجه التشابه الوحيد بينهما. فتزيين العتبة اعتمد دوماً على الحجر (الفسيفساء الرخامية أو الزخارف الملونة «النباتي» أو الحجر المنحوت) بينما يتجلى تزيين «المجلس» بالرسوم والتصاوير على الكسوة الجدارية الخشبية التي يصل ارتفاعها إلى مترين ونصف المتر (أي ما يعادل ثمانية أقدام وثلاث بوصات). وفي هذه الكسوة الجدارية كانت تعلق الرفوف لوضع قطع الزينة بالإضافة إلى خزائن جدارية كبيرة لها أبواب مزخرفة تحفظ فيها تجهيزات النوم – كالفرشات والشراشف والبطانيات والوسائد – بالإضافة إلى الأشياء النفيسة الخاصة بالعائلة. من أجل إحداث نوع من التناغم والتناسق الكلي، كانت نوافذ الغرفة تزود بمصاريع (شبابيك) تتماشى في شكلها وزخرفتها مع أبواب الخزائن.

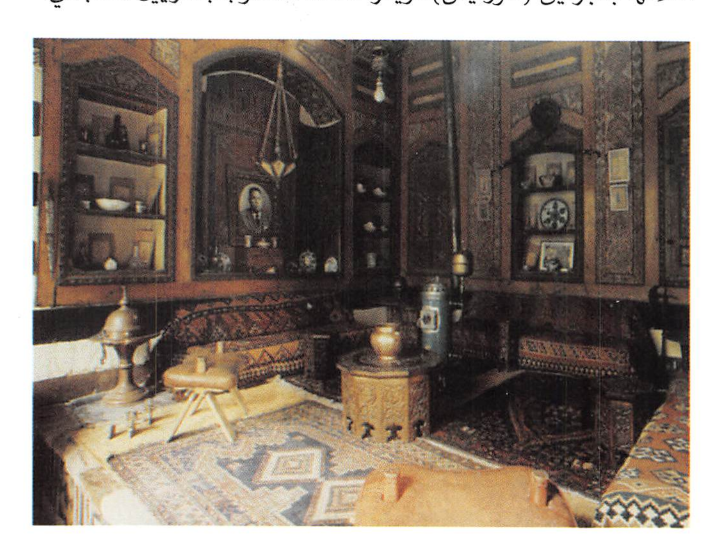
تعلو ألواح هذه الخزائن ألواح طويلة بارزة تشبه الإفريز تمتد على كافة جوانب الغرفة وتكون مطلية ومنقوشة بكتابات كبعض أبيات الشعر أو الآيات القرآنية ودعاء لله كي يمن بالبركة على صاحب البيت وأفراد عائلته كما ويُذكر عليه أيضاً اسم البنّاء وتاريخ البناء. تنتهي الكسوة الخشبية من حيث الارتفاع فوق ذلك الإفريز بطنف جداري يزخر بالزخارف الزينية من الأنماط السائدة في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بالإضافة إلى تزيين ذلك الطنف بالمقرنصات الزخرفية لكن الجدار بين هذا الطنف والسقف المزدان بالرسوم يكون أبيض وخالياً تماماً من أي تزيين أو زخارف (كما هو في بيت شيرازي). ثم في منتصف القرن التاسع عشر عندما درجت عادة ملء ذلك الفراغ بتصاوير ورسوم جدارية جصية أصبح تزيين الطنف أقل زركشة. ففي بيت المجلد يشبه الطنف في شكله الشريط التزيني الرفيع ضمن خشب مذهب.

الصورة في الأسفل: إطارات نوافذ (حشوات) مزينة ومصاريع (شبابيك) وأبواب مزينة بالرسوم في بيت قاسم.

الصورة في أسفل الصفحة: إطارات (حشوات) نوافذ مزينة في «المجلس» (الطزر) ببيت دحداح.

الصورة في السفحة المقابلة: «المجلس» المرتفع عن مستوى الأرض في بيت الكزبري.

يوجد وصف للبيوت الدمشقية بأنها كانت تزخر بسخاء بخشب الزينة المطلي بالبرنيق (الورنيش) حيث يعود تاريخ ذلك الوصف إلى عام ١٤٠١ عندما قام تيمورلنك بتخريب المدينة ونهبها (في الحقيقة إن المؤرخ الذي كان موالياً لـ (تيمورلنك) يجعل من هذه الناحية – الخشب المطلي بالبرنيق (الورنيش) – مبرراً لسرعة احتراق المنازل أثناء هجوم تيمورلنك.) لكن أقدم غرفة سورية مزينة بكسوة خشبية موجودة إلى الآن يعود تاريخها إلى ١٦٠٣ وهي محفوظة في متحف برلين الوطني الذي جاء بتلك الغرفة من بيت واكيل في حلب بعد شرائها من عائلة واكيل عام ١٩١٢ (وقد أصبح هذا البيت الآن فندقاً صغيراً جميلاً ولم يفقد رونقه وجماله حتى بعد إزالة الكسوة الجدارية الخشبية الأصلية.) يتمتع تصميم تلك الغرفة بالطراز الفارسي والرسوم الموجودة فيها تصور الأزهار وأوراق النباتات والأشجار بالإضافة إلى الآدميين والحيوانات – وهو أمر غير مألوف على الإطلاق. لكن العائلة التي شغلت تلك الغرفة كانت عائلة مسيحية وهذا يعني أن تزيين الغرفة بتلك الرسوم لم يخضع لتحريم المسلمين في تمثيل الحياة الحقيقية في الفن مع أنه تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن المسلمين الشيعة في إيران لم يعيروا هذا الأمر أهمية كبيرة بعكس المسلمين السنة في سورية. إن الرسم الموجود على الكسوة الخشبية في غرف حلب هو رسم مسطح، والمقصود بذلك أنه مجرد أشكال مرسومة بالألوان الزيتية على الخشب، ولكن في فترة لاحقة أصبحت الطريقة السائدة في ذلك التزيين تنطوي على رسم القسم الرئيس من الشكل على تلك الكسوة الخشبية بالاستعانة بالجبس التصويري الممزوج بالصمغ العربي لإضافة بروز طفيف على النماذج المرسومة. كما امتد الرسم المنمق والتذهيب إلى قمة تلك الكسوة الخشبية الجدارية حيث إعتمدت اللمسات الأخيرة على طلائها بالبرنيق (الورنيش). ويُعرف هذا الأسلوب بالتزيين «العجمي».





السقــــوف



إن السقوف التقليدية في البيوت العربية الدمشقية تعدّ في غاية الروعة والجمال وهي مرسومة بدقة وعناية لدرجة أنها تبدو عن بعد وكأنها سجاد شرقي وليس خشباً مزيناً بالرسوم. هناك عدة مراحل لازمة لتزيين السقف: أولاً كانت العوارض الخشبية تُكشف بغرض تزيينها بالرسوم؛ ثانياً: تغطى تلك العوارض بصناديق تتناسب معها من حيث الطول والعرض ثم تزين بإفراط وغالباً ما يكون ذلك بإضافة المقرنصات على حواف وزوايا العوارض المصندقة (المغلفة بصناديق) التي تغطى في المرحلة ما قبل الأخيرة بألواح خشبية ثخينة لإحداث سقف آخر مسطح ثم يُزين بالرسوم أو النقوش والزخارف. وفي المرحلة الأخيرة – وتحت التأثير الأوروبي – كانت السقوف الخشبية التقليدية تخفى تحت قماش القنب ويزين برسوم زيتية تصور الأزهار وغيرها من نماذج فن الزخرفة العربية ولكن على الطراز الغربي. الصورة في الصفحة السابقة: عريشة العنب فوق بحرة فوارة في أرض ديار البيت الإسباني.

الصورة في الأعلى: هذه العوارض الخشبية المزينة بالرسوم عُثر عليها تحت سقف من قماش القنب أضيف في فترة لاحقة في بيت المجلّد..

الصورة في الصفحة المقابلة: عوارض خشبية مجردة في بيت القوتلي وهي مزينة برسوم معقدة لدرجة تجعلها تبدو كأعمال التطريز.





السقوف



الصورة في الصفحة السابقة والصورة في الأعلى:
العوارض الخشبية المصندقة (المغلفة بصناديق) والمزينة بسخاء وإتقان – غالباً ما يتضمن هذا التزيين المقرنصات – كانت رائجة منذ عهد المماليك ولغاية القرن التاسع عشر.



السقـــوف



الصورة في الصفحة السابقة: عوارض خشبية مصندقة مزينة بالمقرنصات في بيت شيرازي.

الصورة في الأعلى: نوع جديد من السقوف في بيت الطيبي. العوارض مغطاة بألواح خشبية مزينة بالرسوم والزخارف.

الصورة في الصفحة التالية: السقف الخشبي المسطح وصل إلى ذروة الجمال والروعة بعد تزيينه بالمقرنصات الزخرفية على الجوانب مع شكل حلزوني في الوسط في بيت شيرازي.

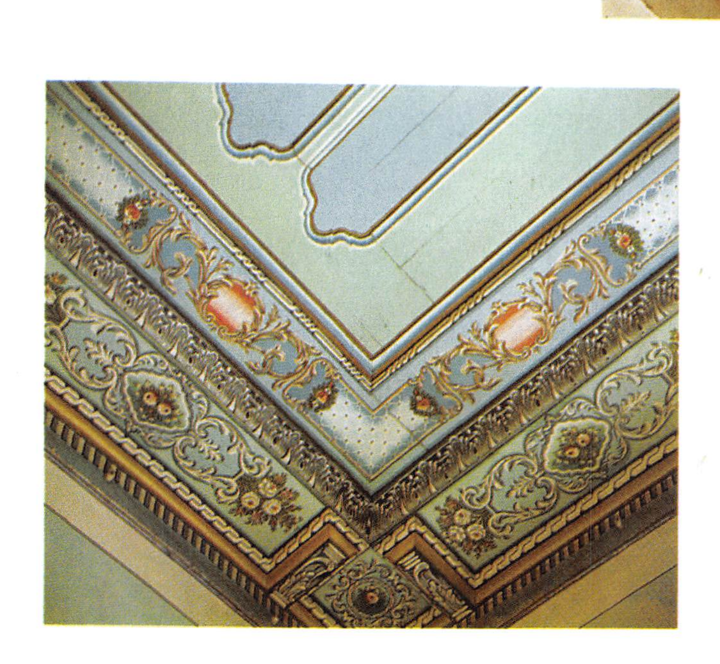




السقــــوف

نمـاذج من الأثر الأوروبي على السقوف: قماش القنب والخشب مزينان بأشكال ونماذج غربية متنوعة.









كانت سقوف قاعات الاستقبال تزين بالزخارف أكثر من الجدران المكسوة بالخشب المزين أيضاً. لقد جرت العادة في البيوت الدمشقية على أن تصنع السقوف من عوارض من خشب الحور وتدعم بشرائح خشبية رفيعة وكانت كلها تزين بالرسوم بمنتهى البراعة لدرجة تبدو فيها عن بعد وكأنها مطرزات شرقية وليست مجرد ألواح من الخشب. اشتملت أعمال التزيين المملوكي للسقوف في أغلب الأحيان على حواف وأركان عميقة منفذة بطريقة المقرنصات نفسها المطبقة على الأطناف التي سبق ذكرها. واستمر نمط هذا التصميم رائجاً في القرن الثامن عشر (كما هو في بيت شيرازي). ولكن يوجد أشكال مختلفة أيضاً حيث كانت الشرائح الخشبية الرفيعة تخفى مع ألواح الخشب والعوارض تكون مصندقة (مغلفة بصناديق) أو توضع الألواح أسفل العوارض فتغطيها بالكامل على هيئة سقف مسطح تثبت عليه حبات خرز من الخشب مضمومة مع بعضها ضمن أشكال هندسية ثم تطلى بالألوان الزيتية.

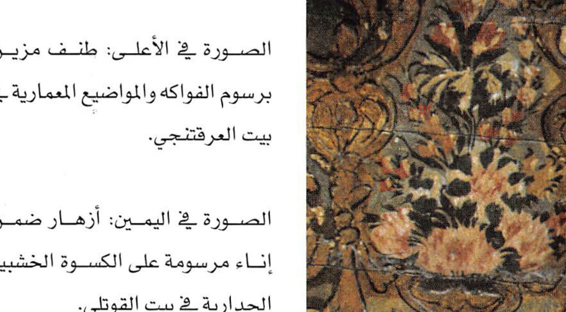
وفي دمشق كلها هناك منزل واحد لا يتطابق مع المخطط التقليدي وهو بيت الطيبي. فعائلة الطيبي كانت عائلة دينية متميزة لكن لم يُعرَف مَنْ مِنْ أفرادها قام ببناء ذلك المنزل غير المألوف. كما أن النقوش الموجودة في الداخل تذكر تاريخين لتنفيذ عمليات التزيين ١٧٨٦ و١٨٢٠. يُعدّ بيت الطيبي بالمقارنة مع القصور الكبيرة التي تقتنيها عائلات مشهورة أخرى داراً متواضعة. فبيت الطيبي له كغيره من الدور باحة وليوان لكن الليوان مُحاط من جانبيه بكشكين صغيرين للزينة. أما قاعة الاستقبال التقليدية مزينة برسوم بديعة جداً وتقع مقابل الباحة ولكن من غير المتوقع أبداً وجود غرفة صغيرة أخرى في الطابق الأول مزينة بمنتهى الحسن بالرسوم والتذهيب والمرايا وكأنها صندوق مجوهرات ولابد أنها كانت قاعة الاستقبال الخاصة بالسيدات. إن الأكشاك وقاعة الاستقبال الموجودة في الطابق العلوي هي الوحيدة من نوعها في دمشق. وتعتقد أسرة الطيبي أنه خلف كل هذا الجمال الفائق لابد من وجود امرأة متميزة تتمتع بذوق رفيع.

خلال عهد الحكم المملوكي الذي امتد لعدة قرون كان من الطبيعي أن تتأثر دمشق بفن العمارة المملوكي القادم من مصر، لكن عندما أصبحت سورية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر اتبعت دمشق ما هو رائج في استنبول. لذلك وبعد مضي ٢٠٠ سنة حين اجتاح استنبول هوس بكل ما هو أوروبي بشكل عام وفرنسي بشكل خاص، حذت دمشق حذوها أيضاً. فالأزهار والفواكه المنسقة ضمن الأواني بالإضافة إلى النباتات أصبحت موضوعاً فنياً رائجاً في رسوم الكسوة الجدارية بدلاً من النماذج والأشكال الهندسية العربية والفارسية وفنون الزخرفة العربية (الأرابسك). وأطلق على هذه المرحلة مصطلح «مرحلة التوليب» ولعل أفضل مثال تتجلى فيه هذه النزعة الفنية الجديدة بالنسبة لفن الزخرفة الداخلية هو غرفة الطعام الساحرة في قصر «توبكابي» باستنبول الذي شغله السلطان أحمد الثالث حيث لم تزين غرفة الطعام المذكورة سوى بتصاوير أواني وقدور الفواكه والزهور.

استغنت استنبول في القرن التاسع عشر عن التصاميم الفنية الدقيقة الخاصة «بمرحلة التوليب» حين ظهرت في البلاد نزعة فنية جديدة استحوذت على أهواء الناس في تقليد ومحاكاة الأسلوب الباروكي الأوروبي في شتى أرجاء الجزء القديم من مدينة دمشق، وتجلى ذلك في فنون التزيين بالمرايا ضمن أشكال بالغة التعقيد تفوق الوصف بالإضافة إلى زخرفة الخشب بالتذهيب والأزهار المرسومة على الجص، والفواكه والخضار المصورة على الزنك والستائر علاوة على حفر ونحت أشكال فاكهة الأناناس والأعمدة على الحجر والرخام بمنتهى الدقة والعناية. كما بدأت الرسوم والتصاوير الجدارية تملأ الفراغ الأبيض التقليدي الفاصل بين الكسوة الخشبية الجدارية والسقف. عندما كان تشارلز أديسون في دمشق في منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، قام بزيارة دار علي آغا حيث كان العمل يسير على قدم وساق في تزيين إحدى غرف المنزل بذلك الأسلوب فوصفه بقوله «إن الفنانين الذين ينفذون هذه الأعمال التزيينية جاؤوا من استنبول... كانت الجدران نزولاً من سقف الغرفة تزين برسوم المباني والأروقة المعمَّدة والعواميد التي تظهر من خلالها لقطات للبحار والجبال الزرقاء ثم تنتشر في مقدمة تلك التصاوير أشجار السرو والصفصاف المتهدل... وتنتهي الرسوم عند هذا الحد الفاصل بين السقف والكسوة الخشبية الجدارية التي تخترقها الخزائن الموجودة ضمن الحائط وتحيط بها رسوم نماذج أخرى تمثل الأسلحة ضمن أشكال عنقودية بينما تزين الأجزاء الجانبية من الجدار بترصيعها بالصدف». وبعد فترة تتراوح بين ١٥ و٢٠ سنة قام (جوسياس بورتر) بزيارة المنزل عينه فعلق قائلاً «إن أسلوب التزيين في هذا القصر يمكن أن يُطلق عليه الأسلوب الدمشقي الحديث بما أن الرسوم المضافة على الجدران والسقف قد ابتكرت مؤخراً بينما سقوف المنازل الأقدم وكسوتها الخشبية الجدارية مغطاة بأفخم وأجمل فنون الزخرفة العربية بالإضافة إلى إطارات النوافذ الخشبية (الحشوات) كانت تطلى باللونين الأزرق الغامق واللازوردي ويُنقش بالحروف العربية المتداخلة بمنتهى الأناقة والروعة آيات وسور قرآنية كاملة.».. يستطيع الزوار حالياً رؤية هذه الغرفة التي ورد وصفها آنفاً – والمقصود بها قاعة الاستقبال المزينة على النمط الباروكي – في الدار المعروفة الآن ببيت نظام، حيث أثثت هذه القاعة بمقاعد طويلة منجدة باللون البني لكن هذا الأثاث في زمن (بورتر) تألف من آرائك (دواوين) على مدار الجدران وكانت مغلفة بأفخر أنواع الساتان الحريري الأرجواني ومطرزة بالذهب بتصاميم وأشكال بسيطة من الأزهار والزخارف الملولبة ويتدلى هدّاب قماشها حتى يلامس الأرض... وفي الحقيقة إن مظهر تلك القاعة كان يبدو وكأنه منظر مستوحى من أرض العجائب والخيال..».

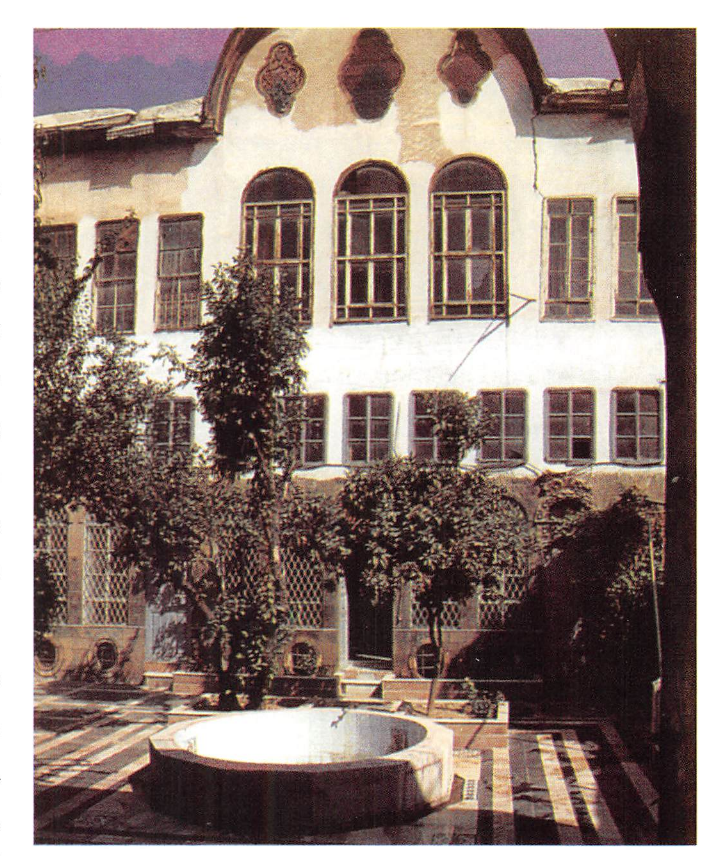
سجل القرن التاسع عشر تاريخ إصلاحات واسعة النطاق أجرتها الإمبراطورية العثمانية بتعمير مباني المدارس ودور القضاء والمشافي والبلديات وغيرها على الطراز الأوروبي. كما كان ذلك الزمن الذي أحكمت فيه استنبول قبضتها على إدارة إمبراطوريتها حيث وظفت «الأعيان» المحليين لخدمة مصالحها بدلاً من أن تسمح لهم بالتصرف على أهوائهم. وقد انعكست جميع تلك النواحي على فن التزيين الداخلي للمنازل والبيوت.





الصورة في الأعلى: طنف مزين برسوم الفواكه والمواضيع المعمارية في بيت العرقتنجي.

الصورة في اليمين: أزهار ضمن إناء مرسومة على الكسوة الخشبية الجدارية في بيت القوتلي.



الصورة في الأعلى: النوافذ الجديدة الأكبر أكسبت المنازل مظهراً أوروبياً كما هو واضح في بيت توتة.

الصورة في الصفحة المقابلة: أبواب مزخرفة في الغرفة الدمشقية يعود تاريخها إلى ١٧١١ وهي محفوظة في متحف «سينسيناتي» للفنون.

وبغرض إظهار الولاء لمركز الإمبراطورية راج استعمال الرسوم الجدارية التي تظهر صور استنبول والبوسفور وفيها سفن صغيرة ترفع العلم التركي، بينما أصبح الأسلوب الباروكي الأوروبي/العثماني واضحاً إلى حد كبير، حيث اختفت تلك السقوف الخشبية القديمة الجميلة تحت قماش القنب المثبت تحت العوارض الخشبية بعد تزيينه بالرسوم على الطراز الأوروبي بشكل واضح. كما أصبح من الشائع تزويد نهاية خط السقف حول باحة المنزل بطنوف أو أطناف خشبية واختفت معها تلك الحواف المموجة.

فتر حماس كل من (والزينغر) و(واتزينغر) المعجبان أيّما إعجاب بالكسوة الجدارية الخشبية المزينة بالرسوم والزخارف في البيوت العربية الدمشقية بعد التطورات التي شهدها فن الزخرفة في أواخر القرن التاسع عشر حيث ذكرا بقولهما «في بعض الحالات أصبحت الزخارف التزينية هي السائدة لدرجة غير مألوفة بسبب الإفراط في استعمال الرخام الأبيض والمرايا الكبيرة أو تصاوير المناظر الطبيعية والأشكال المجازية لأنها لم تكن مناسبة للمواهب المحلية ونجد أمثلة عن هذا التبدل بشكل رئيس في الأحياء اليهودية والأرمنية».

ومع نهاية القرن التاسع عشر لم تقتصر تلك النزعة إلى تبديل أسلوب الرسم في التزيين الداخلي وإنما طالت أيضاً تصميم المنازل ذاتها حيث أصبح «المجلس» (الطزر) في قاعة الاستقبال مواز لمستوى باقي أجزاء القاعة كلها على الطراز الأوروبي، كما أضيفت غرف الطعام الرائعة إلى غرف المنزل كتلك الموجودة في بيت المجلد، بينما ظهر المزيد من النوافذ على الجدران الخارجية – كما في بيت البارودي وبيت ماري قطاش وبيت توتة – التي كانت عادة تبقى بيضاء اللون وخالية تقريباً من الفتحات، فاكتسبت واجهات البيوت بتلك النوافذ الجديدة مظهراً غربياً واضحاً. وذكر «الكتاب السنوي لإقليم دمشق العثمانية» الصادر في تلك الفترة بأن عدد المنازل التي تخضع للترميم سنوياً يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ منزل وهذا ما يفسر وجود أعداد كبيرة جداً من أشكال التزيين الداخلي المعماري الخاص بتلك الفترة كما نراها في دمشق في الزمن الحاضر.

استمر إدخال التغييرات على التزيين الداخلي إلى القرن العشرين. فعندما عاد الرجل الدمشقي المعروف فخري البارودي إلى دمشق قادماً من زيارة قام بها إلى باريس عام ١٩١١ أعاد تزيين «القاعة» الموجودة في داره الشهيرة بدمشق حيث أضاف لوحات تصويرية ضخمة لمناظر طبيعية من أوروبا (على الأرجح جرى نسخها من البطاقات البريدية). أصبح بيت البارودي مكاناً يجتمع فيه أصحاب الفكر الدمشقيون ثم تحول فيما بعد إلى مركز يستضيف المعارضين للحكم الفرنسي في سورية. ويُقال بأنه إذا دخل فخري البارودي وأعطى إشارة سرية، يسارع أصحاب المتاجر لإغلاق محلاتهم على الفور معلنين الإضراب إلى أن يخبرهم ثانية بفتحها. وكي يظهر أصحاب البيوت الدمشقية بالمظهر العصري المواكب لما هو سائد في ذلك الزمن، استأجروا الفنانين لإدخال الابتكارات الجديدة في الرسومات الجدارية الموجودة في بيوتهم، كالقطارات والحافلات الكهربائية (الترامواي) والطائرات. وخلال فترة الانتداب الفرنسي في سورية كانت السفن البخارية المرسومة على التصاوير الجصية الجدارية تظهر أحياناً رافعة العلم الفرنسي.

من ناحية ثانية أصبحت قطع الأثاث الأوروبي والثريات وحلي التزيين رائجة في البيوت العربية الدمشقية مما بدل جو ألف ليلة وليلة الذي كان يخيم على تلك المنازل إلى رتابة مطلقة. وصف الأديب الفرنسي الكبير (ثيوفيل غوتيير) الذي عاش في القرن التاسع عشر إحدى الغرف الدمشقية وصفاً ينطوي على المديح والثناء حين قال «لقد كانت غرفة أنيقة بقدر ما كانت فاخرة». ثم تابع وصفه للسجاد التركي الجميل الذي يغطي أرضية تلك الغرفة بالإضافة إلى سقفها وجدرانها المذهبة والمزخرفة بالرسوم والأريكة (الديوان) الطويلة الملبسة بحرير الساتان الأصفر والأزرق «للأسف فإن هذا المظهر الشرقي الفاخر والبديع امتزج بخزانة ذات دروج يعلوها طبقة من الرخام وُضع عليها ساعة مغطاة بقبة زجاجية بالإضافة إلى إناءين من الأزهار الاصطناعية مغطاة أيضاً بالزجاج، وهي زينة لا تختلف أبداً عما تراه على رفوف المواقد المنتشرة في بيوت الضواحي الباريسية».

كما عبر كاتب فرنسي آخر يدعى (غوستاف فلوبير)[1] كان في سورية عام ١٨٥٠ عن أسفه على إدخال ثريات الزجاج الفينيسي المبالغ بزينتها والتي ظهرت فجأة في الغرف الدمشقية. وفي عام ١٨٧٢ عبر (يوجين ميليكيور دو فوغو) عن أسفه «لغزو الأثاث الأوروبي الذي كان بمثابة الضربة القاضية للبيوت الدمشقية القديمة». وفي عام ١٨٩٤ تأسف (بيير لوتي) بشدة على تلك «المستوردات البغيضة». ولكن في عشرينيات القرن العشرين لم تعد قطع الأثاث وحلي التزيين المذكورة مواد مستوردة حيث بدأ الحرفيون السوريون يحولون فنهم في تطعيم الخشب بالصدف إلى أرائك وكراسٍ بذراعين على الطراز المعماري الرائج في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين مع إضافة بعض اللمسات الفنية الحديثة، بالإضافة إلى خزائن ثياب مربعة شنيعة المظهر يتجلى فيها الطراز الأوروبي لكنها مطعّمة ومرصعة بالصدف.

كان العديد من المسافرين يعبرون سورية في مطلع القرن العشرين وخطرت لأحدهم ذات مرة فكرة شراء «قاعة» دمشقية كاملة مكسوة بالخشب المزين بالرسوم كي يشحنها إلى بلده كما فعل بعده عدد آخر من أهل الغرب، وهذا بالطبع يبرر وجود تلك الغرف المزينة بالزخارف البديعة في أماكن لا تتوقع أن تراها محفوظة فيها، مثل درسدن وسينسيناتي وبيترسبرغ.

كل واحدة من تلك الغرف المنزوعة من مكانها لها قصتها الخاصة بها. فالغرفة الموجودة في درسدن اشتراها المصور الفوتوغرافي (هيرمان بيرخهارت) عام ١٨٩٨ عندما رافق (قيصر ويلهلم) في رحلته الشهيرة إلى لبنان وسورية والأرض المقدسة في ذلك العام حين سأم (بيرخهارت) تصوير (قيصر) وأخذ يلتقط الصور للناس العاديين الذين يصادفهم في طريقه (لكن للأسف لم يصور المنازل أو الأوابد الموجودة بدمشق كما يفعل المؤرخون المعماريون). ثم اشترى الغرفة الدمشقية لأحد أصدقائه في ألمانيا ممن يهوى جمع التحف والآثار وشحنها إليه فوجد أن ذلك الصديق قد أصبح من هواة الفن الحديث فما كان منه إلا أن باع تلك الغرفة – أو ربما قام بإهدائها – إلى متحف درسدن حيث وُضعت في قبو المتحف الذي لم يعرها الاهتمام الكافي حينذاك وكان مآلها النسيان إلى أن اكتشفت مجدداً عام ١٩٩٧ وأعيد ترميمها لتصبح من معروضات المتحف، علماً بأن الرسوم المزينة بها تلك الغرفة يعود تاريخها إلى ١٨١٠.

أما متحف سينسيناتي للفنون فهو يقتني غرفة جميلة مزينة بالرسوم يعود تاريخها إلى عام ١٧١١ قام بشرائها (أندرو جيرغنز) – وهو أحد أفراد عائلة (جيرغنز) تجار الصابون الأمريكيين الأثرياء – عام ١٩٣٢ عندما زار دمشق ضمن رحلة إلى الأرض المقدسة. فقد اشترى (جيرغنز) الغرفة من سمسار سوري حصل عليها بدوره من قصر كان في طريقه إلى الهدم من أجل توسيع إحدى الطرقات في المدينة خلال فترة الانتداب الفرنسي لسورية حين كانت الطرقات تخضع على نحو مستمر للتوسيع. اشترى «جيرغنز» تلك الغرفة من أجل تزيين قصره الخاص المؤثث على الطراز القوطي في سينسيناتي حيث مكثت في مكانها لغاية ١٩٦٧ عندما هُدم القصر فنقلت تلك الغرفة الدمشقية إلى متحف الولاية المحلي.

أما جامعة بيترسبرغ فقد اشترت غرفة دمشقية يعود تاريخ صنعها إلى ١٧٨٢ من تاجر للقطع الفنية في نيويورك عام ١٩٤٠.

كما قام (آغوب كيفوركيان)، وهو من هواة جمع التحف الفنية، بشراء غرفتين من دمشق في ثلاثينيات القرن العشرين. يعود تاريخ إحدى هاتين الغرفتين إلى ١٧٠٧ وتبرّع بها (كيفوركيان) إلى متحف ميتروبوليتان الفني في نيويورك في الستينيات حيث ذاع صيتها هناك باسم «غرفة نور الدين» بما أن المنزل الذي جاءت منه بالأصل غير معروف بالضبط. أما الغرفة الثانية فيعود تاريخ صنعها إلى عام ١٧٩٧ والتي يُقال بأنها من بيت القوتلي الذي كان مقر القنصلية البريطانية في القرن التاسع عشر (حيث امتلكت عائلة القوتلي أربعة منازل فخمة)، وتبرع بها (كيفوركيان) أيضاً إلى جامعة نيويورك.

(غاير أندرسون) المستكشف البريطاني صاحب الأطوار الغريبة الذي تحول منزله الرائع في القاهرة الآن إلى متحف، اشترى أيضاً غرفة دمشقية بغرض ضمها إلى ذلك المنزل في ثلاثينيات القرن العشرين وقد أخبروه حينها أنها تعود في ملكيتها بالأصل إلى أحد المنازل الخاصة بأسرة العظم.



(١) إن سحر الشرق وعبقه الأسطوري لطالما فتن العديد من الرحالة الغربيين الذين زاروا البلدان العربية والإسلامية منذ العصور الوسطى وإلى الأزمنة المعاصرة. ومن أبرز تلك الشخصيات تجدر الإشارة إلى الرحالة والكاتب الفرنسي الكبير (غوستاف فلوبير) مؤلف رواية «مدام بوفاري». فالفصل الأخير من الكتاب المصور «رحلة إلى الشرق» (١٨٤٩-١٨٥١) المنشور بعد وفاته في عام ١٩٢٥ والذي يضم مراسلات (فلوبير) المتعلقة بأسفاره التي قام بها في تشرين الأول ١٨٥٠ مع صديقه الكاتب والمصور (مكسيم دو كامب) إلى لبنان وسورية ومصر وتركيا، يذكر (فلوبير) أنه كان يحلم طوال حياته أن تطأ قدماه الأراضي السورية. وفضلاً عن افتتانه بمدينة دمشق وغوطتها الغناء وبيوتها الرائعة، اكتشف أن سورية تؤوي أكبر مجموعة من الديانات القديمة التي لا مثيل لها في العالم كله.

الرســــوم الجــداريـــة

أصبحت الرسوم والتصاوير الجدارية رائجة في مطلع القرن التاسع عشر حين بدأت صور بعض المباني والمناظر الطبيعية المجهولة بالظهور في تلك الرسومات. وفي مرحلة لاحقة عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية بإجراء الإصلاحات في البلاد وعادت السلطة الإدارية إلى مركزها في استنبول، أصبحت مناظر مدينة استنبول والبوسفور رائجة جداً ومحببة إلى قلوب الكثيرين. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما وصلت الاختراعات الحديثة – كالقوارب البخارية والسكك الحديدية – إلى الإمبراطورية العثمانية بدأت تظهر أيضاً في الرسوم الجدارية. الصورة في الأعلى: هذه العوارض الخشبية المزينة بالرسوم عُثر عليها تحت سقف من قماش القنب أضيف في فترة لاحقة في بيت المجلّد..



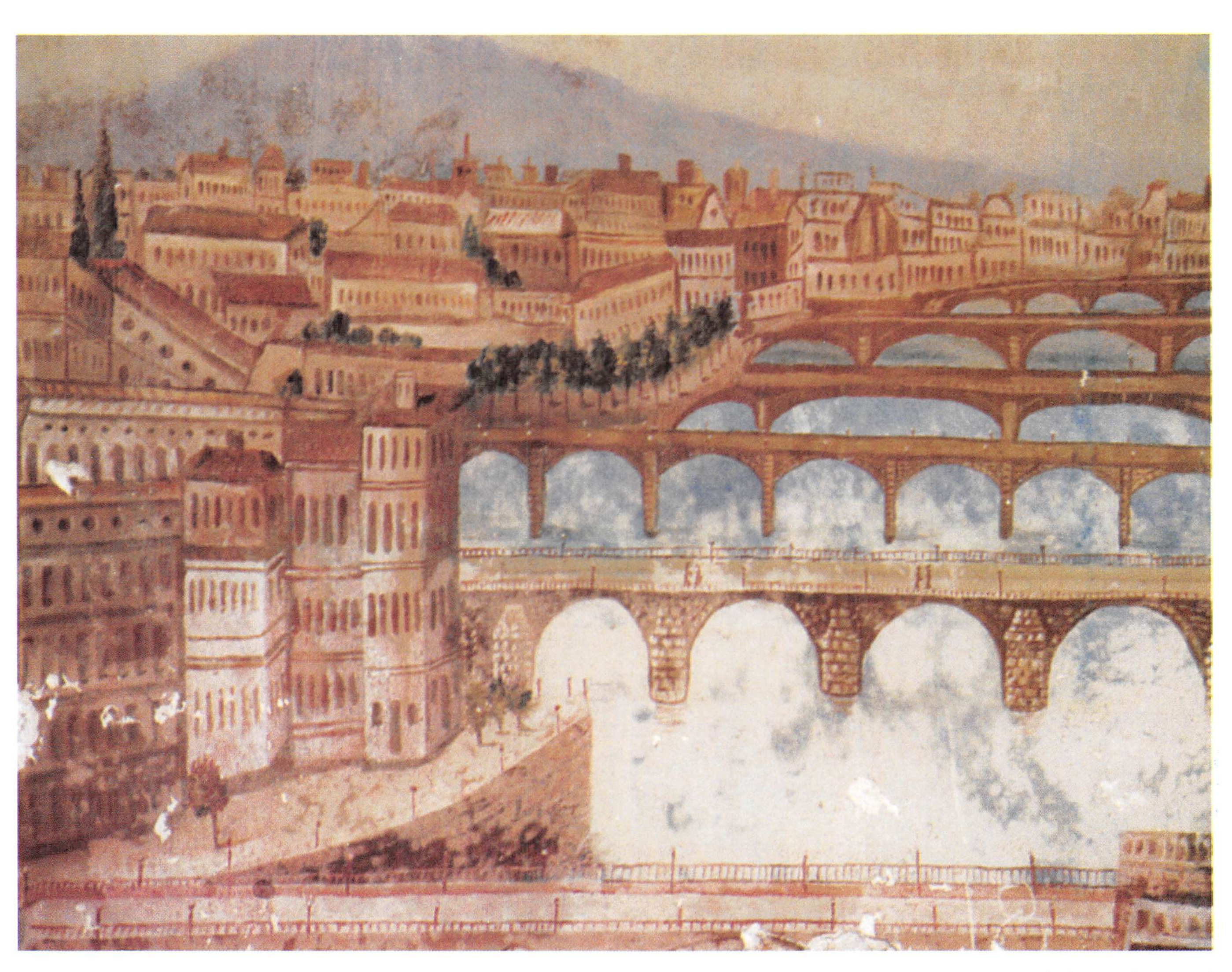


الصورة في اليسار: لوحتان تتميزان بدقة الرسم في ليوان بيت شامية

الصورة في الأعلى: لوحة جدارية لمضيق البوسفور والتي تعدّ القطعة الرئيسية في بيت المجلد.



الرســـوم الجداريـــة



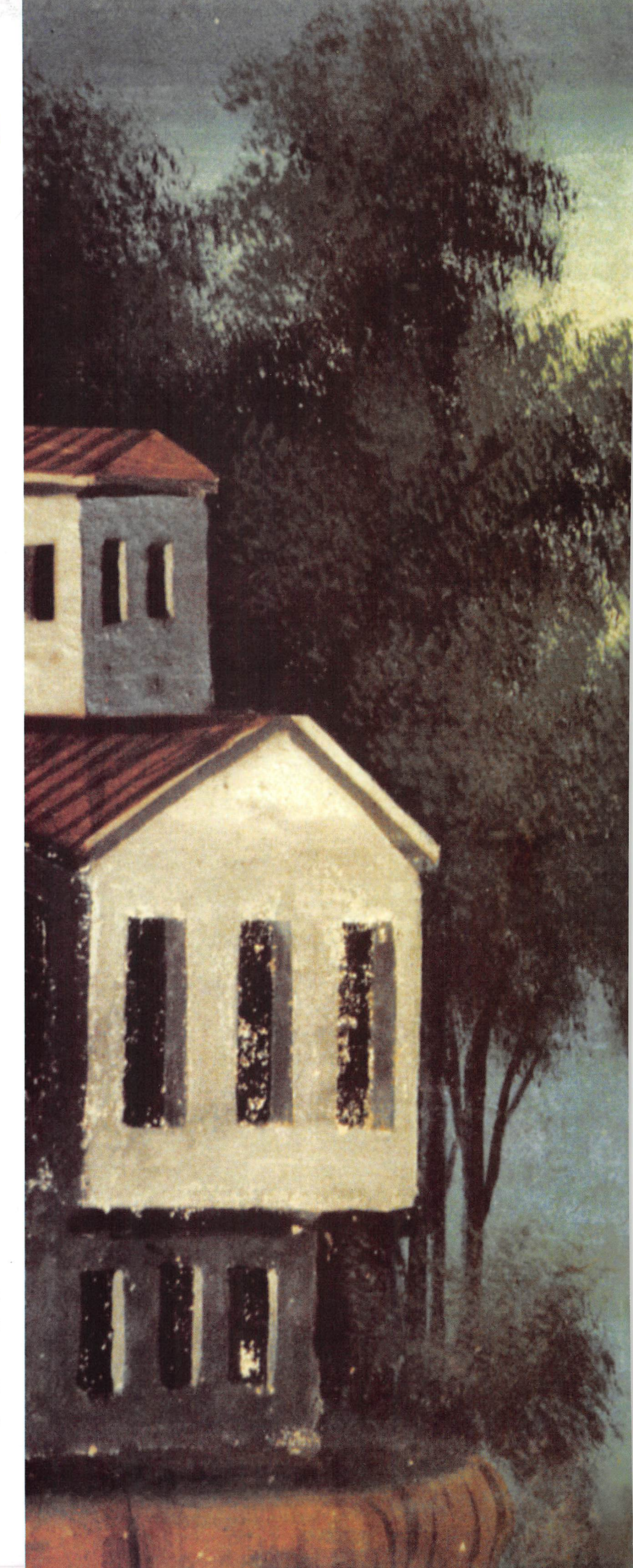
الصورة في الصفحة المقابلة: رسم جداري مهترئ في بيت البارودي الذي يجري ترميمه حالياً.

الصـورة في الأعلى: منظر رائـع لفلورنسة يزين أحد الجدران في بيت البارودي.





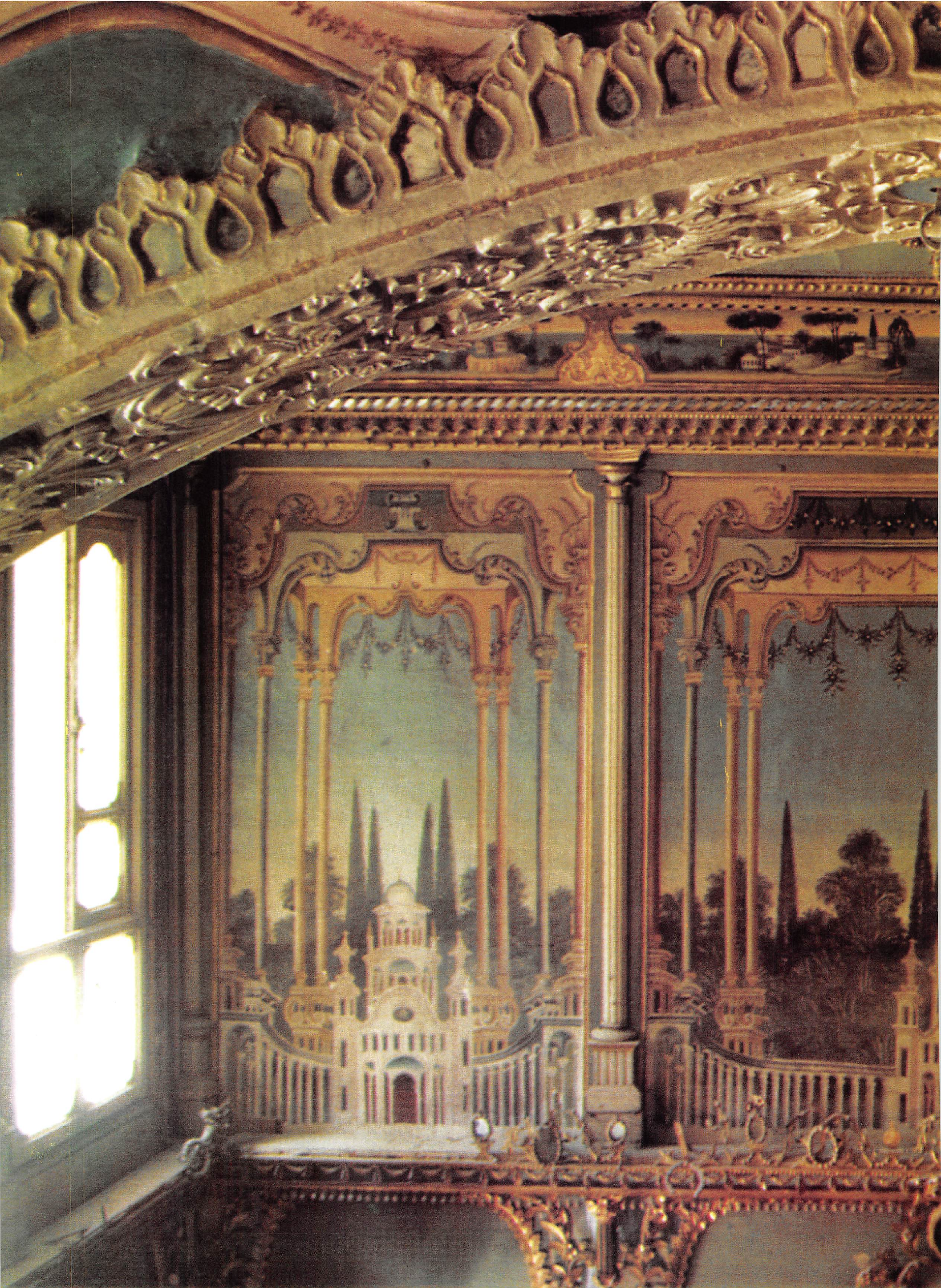
الرســـوم الجداريــة



الصــورة في اليسار: لقطة مقربة للوحة المرسومة على الجدار فوق الرف في بيت المجلد.

الصــورة في الصفحــة التاليــة: المنـاظــر الطبيعيــة والأشجار مرسومة على جدران بيت المجلد.





هناك غرفة دمشقية أخرى في قصر المنيل بالقاهرة تنطوي عملية إحضارها إلى ذلك القصر على قصة رومانسية. عندما كانت سورية خاضعة لفترة مؤقتة لحكم المصريين في الفترة الواقعة بين ١٨٣٢ و١٨٤٠، عُين شريف باشا والياً على دمشق. يُقال بأنه لدى وصول شريف باشا إلى دمشق تناهى إلى علمه خبر الجمال الخيالي الذي تتمتع به (فرلان)، إحدى بنات عائلة العظم الشهيرة، فطلب يدها للزواج. لكن ابن عم (فرلان) كان قد حصل على وعد سابق للزواج بها ومع ذلك آثرت العائلة شريف باشا لأنه قد يكون الزوج الأفضل لابنتهم فوافقوا على زواجها من شريف باشا. عادت (فرلان) إلى القاهرة مع زوجها حيث بنت مسجداً أطلق عليه اسم جامع ست الشام. ويبدو بأن (فرلان) هي التي دبرت أمر استحضار الغرفة الدمشقية إلى دارها في القاهرة.

بدأ (هنري فرعون) – وهو مصرفي من لبنان ووزير في الحكومة ورجل أعمال عريق امتلك مرفأ بيروت – بجمع الغرف الدمشقية البديعة والفاخرة كي يضمها إلى داره التي تشبه المتحف في بيروت عام ١٩٢٩. وقد جمع (فرعون) قطعاً فنية كثيرة مماثلة لكن أقدمها صنعاً يعود إلى القرن السابع عشر. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن قصر بيت الدين الكبير في جبل الدروز بلبنان يحتوي أيضاً على بعض الغرف الدمشقية.

كما اقتنى متحف «فكتوريا وألبرت» بلندن غرفة دمشقية حصل عليها من بعض السماسرة الأوروبيين في ١٨٨٠ و١٨٨١، لكن انفجار قذيفة خلال الحرب العالمية الثانية أدى إلى إلحاق الضرر بتلك الغرفة. وعندما اكتشف عام ١٩٥٧ إصابتها بدودة الخشب قرر المتحف إتلافها ولم يتبق منها سوى أربعة إطارات خشبية (حشوات) مزينة محفوظة الآن في المستودع ولا تُعرض إلا على الباحثين للاطلاع. ويقول أمين المتحف «لم يتبق من غرفتنا الدمشقية سوى ذكراها المحفوظة في بعض الصور الفوتوغرافية».

مازالت بعض الغرف وكسوتها الخشبية إلى الآن تفكك من بيوت دمشق القديمة وتباع إلى خارج البلاد. إنها مشكلة محيّرة بالفعل: هل ينبغي أن تبقى تلك الغرف في دمشق القديمة كي تتداعى وتنهار مع البيوت الموجودة فيها أم أن تفكك وتنقل إلى مكان آخر تحفظ فيه بعناية حتى لو كان هذا المكان خارج سورية؟

كما سلف ذكره فإن كل حاكم جديد في دمشق حاول ترك بصمته على المدينة من خلال بناء قصره الكبير وغالباً في موضع قصر الحاكم الأسبق. لكن جميع تلك القصور اختفت مع أنه مازلنا إلى الآن نستطيع رؤية الخانات المبنية من الحجر وغيرها من المدارس والحمامات العمومية ولم يتبق منها سوى قصر العظم الذي تحول

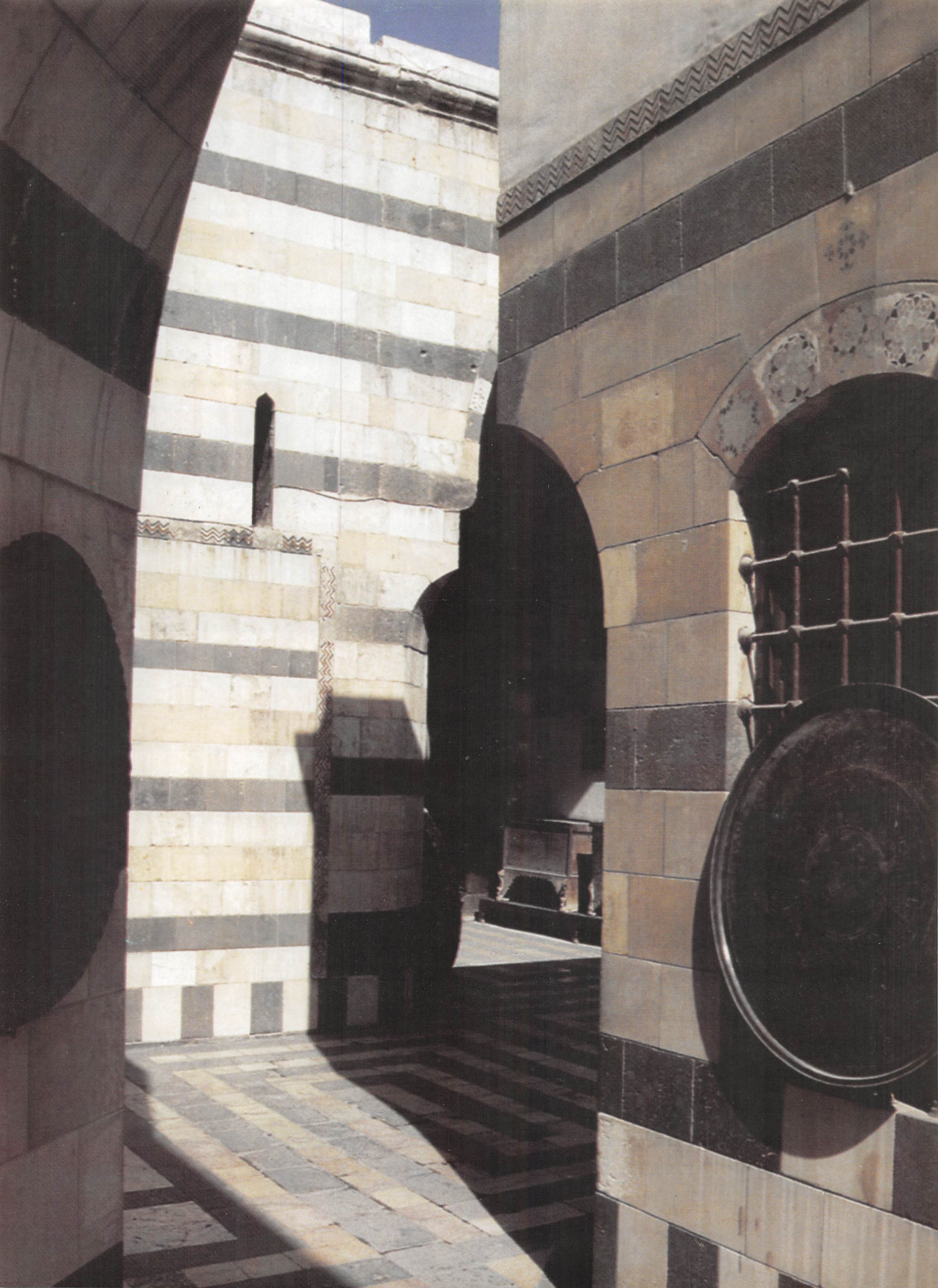
الصورة في الصفحة المقابلة: مدخل قصر العظم (الذي تحول الآن إلى متحف الفنون والتقاليد الشعبية) قد جرى تصميمه بعناية بالغة بحيث لا يستطيع من يقف بباب القصر رؤية باحته.

الآن إلى متحف الفنون والتقاليد الشعبية في سورية. إن أسعد باشا، أشهر أفراد عائلة العظم التي حكمت دمشق مدة ٣٧ سنة في القرن الثامن عشر، قد بنى لنفسه قصراً في حماة حيث كان والياً على المدينة فيما سبق (تحول ذلك القصر الآن إلى متحف أيضاً). وفي عام ١٧٤٩ بدأ أسعد باشا ببناء قصره الجديد على أنقاض قصر الذهب الذي كان مقر الحاكم المملوكي (تنكز). استغرق بناء قصر العظم عامين بجهود ٨٠٠ عامل بينما طاف غيرهم بحثاً عن الأعمال الفنية الحجرية والخشبية والقطع الأثرية وغيرها من الأشياء النادرة بهدف إدخالها في القصر الجديد. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً من الأعمدة الرومانية جرى إحضارها من بصرى لنصبها في باحة القصر. وطبقاً لما رواه (البديري) – وهو حلاق من دمشق كان يسجل ملاحظات يومية عما يجري في المدينة – «أصبح من المستحيل العثور على أي عامل بناء خلال فترة تشييد قصر العظم لأن أسعد باشا جند كل البنّائين الموجودين في المدينة لخدمته، كما توقف إمداد الماء للمنازل العادية ريثما يُعاد تنظيم التمديدات الصحية بما يلائم قصره الجديد. ولكن عندما انتهى العمل في قصر أسعد باشا، فإن (البديري) ذهل لما رأت عيناه وقال في ذلك «إن أهل الترحال الذين شاهدوا الكثير يؤكدون عدم وجود ما يماثل قصر العظم في الإمبراطورية العثمانية بأسرها ولا حتى قصر السلطان نفسه».

اتبع قصر العظم في بنائه المخطط الدمشقي التقليدي وإنما بشكل أوسع. فالحرملك أو باحة الدار المخصصة لأفراد العائلة واسعة جداً لدرجة أنها تستعمل الآن لإقامة الحفلات الموسيقية. كما ضم المنزل ثلاثة مطابخ وكان له حمام كبير خاص به كالحمامات العمومية.

إن زياد العظم، عميد أسرة العظم حالياً، قد أخبره جده الذي عاش في القصر أنه اعتاد تناول الطعام بانتظام مع جميع أطفال المنزل حيث وصل عددهم في إحدى المناسبات إلى ٨٠ طفلاً ولعله من غير المستغرب أنه لم يعرف أسماء أولئك الأطفال جميعاً، علماً بأن هذا الجد كان له عشرة أبناء وست بنات وهذا بالطبع يضفي المصداقية على روايته.

كان يجري تحضير كل شيء في القصر بدءاً من إحضار قطعان الخراف وذبحها وصولاً إلى خبز الخبز طوال اليوم دون توقف. ولم تبرد مواقد الحمام في يوم من الأيام، كما كانت هناك قابلة مقيمة في القصر. بالرغم من وجود الخدم في المنزل، إلا أن نساء العائلة كن





مسؤولات عن الأعمال الرئيسية في المنزل طوال الوقت. ويفتخر زياد العظم قائلاً «لم تكن نساؤنا دوقات فرنسيات كسولات، بل عملن بجهد وكد.. في الواقع كانت مهارة الفتاة في تدبير المنزل تتساوى مع جمالها عندما يتعلق الأمر بإيجاد زوج جيد لها».

كانت النساء الدمشقيات في تلك الأيام نادراً ما تغادرن المنزل باستثناء الزيارات العائلية أو للذهاب إلى الحمام العمومي (لكن هذا لم ينطبق على قصر العظم نظراً لوجود حمام خاص به). لكن هذا لم يعن بالضرورة أن النساء كن جاهلات. ففي العائلات الكبيرة – كآل العظم – كانت النساء متعلمات ويتحدثن اللغات الأجنبية. كما لم يكن مسموحاً للرجال مشاهدة النساء دون حجاب باستثناء المحارم. ويصف جوسياس بورتر ما رآه في السوق في خمسينيات القرن التاسع عشر بقوله «إن تلك الأشكال الغريبة التي تختلط بالازدحام تلفها الأغطية البيضاء من الرأس إلى القدم هي النساء».

كانت تقدم وجبتان رئيستان يومياً في قصر العظم: الأولى بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً قبل أن ينطلق رجال العائلة إلى أملاكهم وقراهم، بينما كان موعد الوجبة الثانية عند غروب الشمس.

كان أول من يأكل الطعام أسياد المنزل (البكوات) والفتيان فوق الثامنة من العمر، ثم تليهم النساء والفتيات والأطفال ومن بعدهم الخدم. في الحقيقة لم يرمى أي طعام زائد وإنما كان يوزع على الفقراء والمحتاجين. وبعد صلاة العشاء كان القصر يقفل أبوابه ولا يُسمح لأحد بالخروج منه أو الدخول إليه.

باعت أسرة العظم قصرها للحكومة الفرنسية عام ١٩٢٢ لقاء ٢٢٠٠٠ ليرة ذهبية. لكن عملية البيع كانت مخيبة للآمال. فالمشكلة الأولى تمثلت في وجود ٦٨ وريثاً ورفض عدد منهم التخلي عن حصصهم، ولكن في النهاية انتقل المعهد الفرنسي للآثار والفنون الإسلامية إلى قسم الحرملك في قصر العظم، بينما جعل المفوض السامي الفرنسي الأعلى الجنرال (سراي) من قسم السلاملك مقراً لقيادته. لكن هذا الأمر جرّ المصائب إلى القصر. فخلال الثورة ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥ كان الجنرال (سراي) مكروهاً من قبل الأهالي، وهذا ما دفع الثوار إلى مهاجمة قصر العظم لكنهم لم يجدوا الجنرال (سراي)، فقاموا بسلب ونهب غرف القصر ثم أضرموا فيه النار. واستمر الحريق لمدة يومين مما أدى إلى تدمير أو فقدان أو سرقة العديد من نفائس ذلك المتحف الصغير الموجودة في المكتبة وباقي أجزاء القصر بما في ذلك أرشيف مؤلف من ألفي صورة فوتوغرافية مطبوعة على الأطباق. ويذكر مدير المعهد الفرنسي (إم. دو لوري) بأن قصر العظم لم يدمر بالكامل وسرعان ما بدأت أعمال الترميم فيه. وفي عام ١٩٤٦ عندما أجلت فرنسا قواتها عن سورية، أصبح القصر ملكاً للدولة السورية ثم جرى فتحه لاحقاً كمتحف. إن استملاك الحكومة السورية لقصر العظم وخان أسعد باشا الذي يقع بمحاذاته لا يمكن النظر إليه إلا كإجراء عادل ومنصف بما أن أسعد باشا جمع ثروته من أهالي دمشق عن طريق فرض الضرائب والاحتكار والمصادرات والمضاربات التجارية.

ضمت الطبقة الأرستقراطية في دمشق في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين سبعا من صفوة العائلات التي اعتاد أبناؤها وبناتها الاقتران ببعضهم البعض: (العظم) و(مردم بيك) و(الغزي) و(حمزة) و(العبد) و(عجلاني) و(اليوسف). كانت لأربع من تلك العائلات السبع صبغة دينية، بينما اكتسبت عائلات مردم بيك والعبد والعظم منزلتها الاجتماعية بواسطة نفوذها السياسي، حيث بدأ الأمر بالنسبة لآل العظم في القرن الثامن عشر بينما ذاع صيت كل من الأسرتين الأخريين في القرن التاسع عشر.

الصورة في الصفحة السابقة: مرآة على الطراز الأوروبي الفني الحديث في المتحف التاريخي.

الصورة في اليسار: زاوية الحرملك في قصر العظم.

الصورة في الأسفل: صندوق تقليدي مطعّم بالصدف في المتحف التاريخي.



الزخارف الملونة (النباتي)



إن التزيين بواسطة الزخارف الملونة (النباتي) أسلوب يعتمد على نحت شكل معين في كتلة من الحجر ثم ملئه بعجينة مكونة من مسحوق حجارة ذات ألوان مختلفة فينتج عنها أثر في غاية التعقيد للتطعيم والتنزيل بالحجر. ابتكر المماليك هذه التقنية في القرن الرابع عشر لكن حرفيي دمشق ارتقوا بهذا الفن إلى أعلى مستويات الجمال والكمال عبر القرون الماضية. وظل هذا الأسلوب في التزيين مفضلاً عن غيره حتى حلول القرن التاسع عشر.

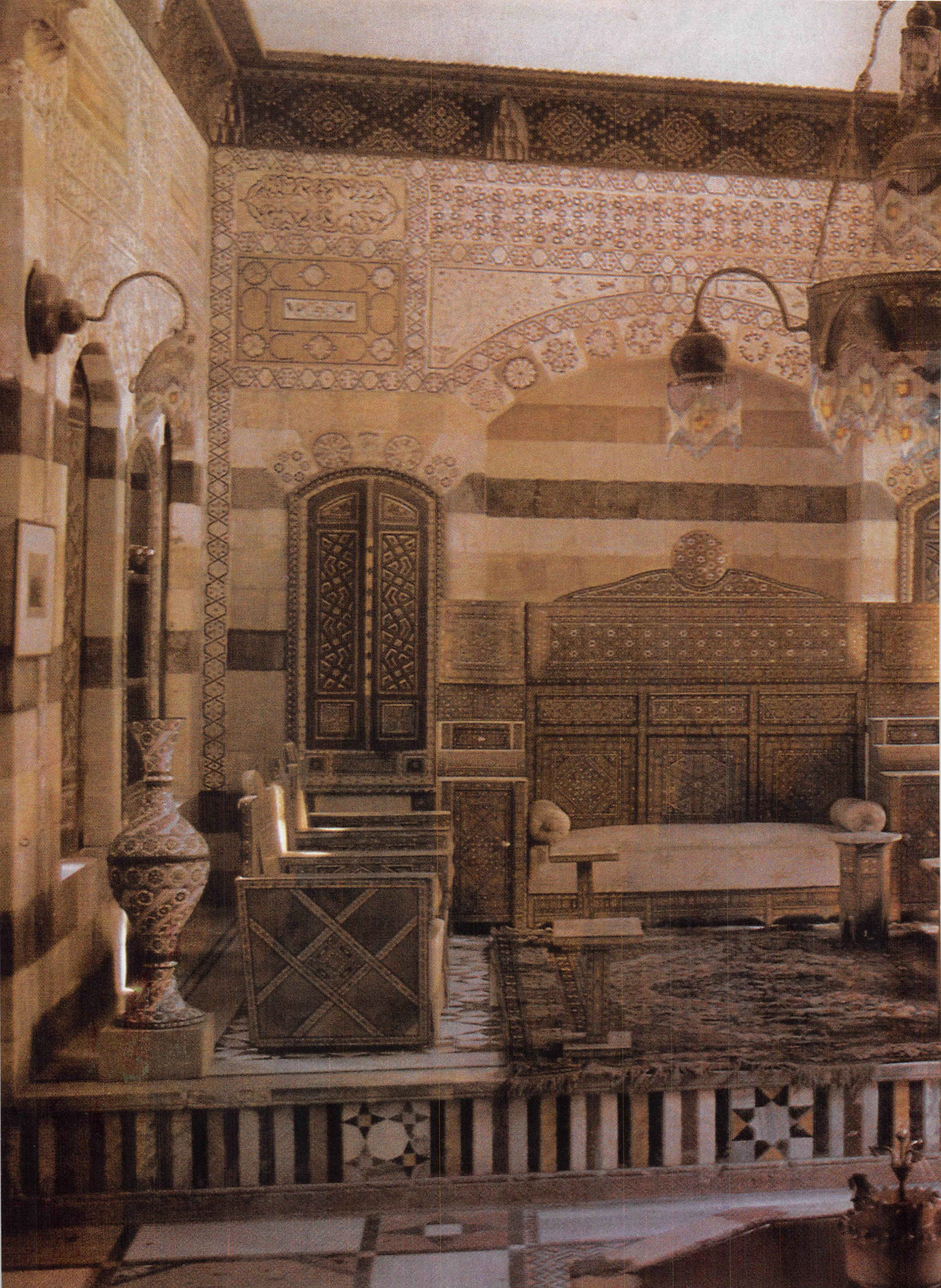
الصورة في الأعلى: تصاميم تقليدية بالتزيين بالزخارف الملونة (النباتي) فوق أحد الأبواب في بيت السباعي. الأشكال الهندسية النجمية غالباً ما تستعمل في أعمال التزيين والزخرفة الإسلامية.

الصورة في الصفحة المقابلة: تزيين بالزخارف الملونة (النباتي) والحجر في بيت دحداح.

الصورة في الصفحة التالية: تزيين متقن الصنع بالزخارف الملونة (النباتي) على جميع جدران قاعة الاستقبال المعروضة في المتحف التاريخي.









الزخارف الملونة (النباتي)

الصورة في الصفحة السابقة: قوس مزين بأشكال من الزخارف الملونة (النباتي) بالحجر في بيت السيروان.

الصورة في الأعلى: جدران مزينة بالزخارف الملونة (النباتي) وأبواب خشبية مزينة أيضاً بزخارف هندسية في بيت السباعي.

الصورة في اليمين: الواجهات الداخلية في بيت الأسطواني مزينة بالزخارف الملونة (النباتي) على نحو رائع.



واعتاد استقبال العديد من الزوار كل صباح على الطريقة التقليدية في السلاملك التابع للقصر. ويُقال بأنه عندما كان يرغب بإنهاء استقبال الزوار والانضمام لأفراد أسرته لتناول الطعام في قسم الحرملك، كان يرمي بخرطوم نرجيلته إلى الأرض كإشارة إلى أنه قد حان الوقت انصراف الضيوف.

من المعتقد بأن ذلك المنزل كان مقر القنصلية البروسية في الفترة الممتدة بين ١٨٤٩ و١٨٦٢ ويتجلى هذا الاستنتاج في المخططات والرسومات التي كان يعدها القنصل (جوهان غوتفرايد ويتزشتاين) ويبعث بها إلى بلده مع رسائله. وقد ذكر أحد أصدقاء القنصل الذي حلّ ضيفاً عليه في ذلك المنزل خلال جولة كان يقوم بها في الشرق الأوسط أن باحة المنزل الأولى كان فيها أشجار تين ضخمة بحجم أشجار السنديان العملاقة بالإضافة إلى أشجار البرتقال والليمون التقليدية وعرائش العنب. ويتابع ذلك الزائر وصفه للمنزل بقوله «إن الليوان وقاعات الاستقبال الثلاث الأخرى كانت في غاية الروعة والجمال». كما أن القنصل ذاته وصف «القاعة» الرئيسية في منزله بأنها تشبه مدخل الكنيسة ونوافذها مزينة بالزجاج الملون.

كانت باحات القصر الرئيسة تضم مكاتب القنصلية وقسم الخدم وإسطبلات الدواب، بالإضافة إلى مطبخ وحمام كبيرين. وقد عاش القنصل وزوجته في الطابق الأول علماً بأنهما لم يستغلا سوى جزء بسيط فقط من ذلك الطابق نظراً لمساحته الواسعة وغرفه العديدة. كما كان سطح المنزل يوفر إطلالة رائعة للجبال. وفي رسالة وجهها القنصل (ويتزشتاين) إلى المبعوث البروسي في استنبول إثر أحداث عام ١٨٦٠ ذكر له فيها بأن المنزل يتسع لإيواء ٦٠٤ أشخاص. ولا غرو بأن القنصل البروسي التالي انتقل إلى مكان أصغر. أما القنصل البروسي (إرنست لوتيك) الذي عُيّن في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر سكن بالقرب من سوق الحميدية حيث تمتع بشعبية واسعة بين أهالي المدينة. وذكرت الرحالة البريطانية (غيرترود بيل) عندما زارت دمشق عام ١٩٠٥ بقولها «عندما جئت إلى دمشق قبل خمس سنوات فإن صديقي المحبب إلى قلبي – وهو الصديق الذي سيحزن على وفاته كل الرحالة القادمين إلى سورية – هو «لوتيك» الذي كان القنصل الفخري لألمانيا» (لأن بروسيا أصبحت جزءاً من ألمانيا المتحدة في ذلك الزمن.)

ويوجد بمحاذاة منزل خالد العظم في سوق ساروجة قصر كبير آخر يُعرف باسم بيت اليوسف وهناك باب يصل بين هذين القصرين– من المعتقد أنهما كانا قصراً واحداً فيما سبق. وتقول (ناديا خوست)، وهي كاتبة دمشقية، بأنه عندما قصف الفرنسيون البرلمان السوري



الصورة في الأعلى: قاعة الاستقبال في القنصلية الألمانية بالقرب من سوق الحميدية في القرن التاسع عشر.

الصورة في الصفحة المقابلة: قاعة الاستقبال الضخمة والفخمة في بيت اليوسف مزخرفة بإسراف على الطراز الباروكي – العثماني.

تشير الوثائق التاريخية إلى أن أسرة العظم تكاثر أفرادها خلال ثلاثة أجيال ليصل عددهم إلى ٤٠٠ شخص منذ زمن سلف الأسرة الشهير إسماعيل العظم. وتجدر الإشارة إلى أن وجود أربع زوجات للرجل في تلك الأيام لم يكن أمراً مستغرباً، وبالتالي فإن عدد الأولاد لابد أن يكون كبيراً. وبحلول القرن التاسع عشر تجاوز عدد أفراد أسرة العظم المئات ومن المحتمل أن العديد من البيوت الكبيرة في دمشق المعروفة الآن بأسماء أخرى قد بنيت بالأصل لأبناء آل العظم. ومن المؤكد أيضاً أنه بالقرب من مدرسة عبد الله العظم كان هناك في وقت من الأوقات منزل ضخم يعود لأسرة العظم لكن لم يتبق منه الآن سوى أنقاض تتقدمها بوابة كبيرة. للأسف أن المنزل قد هدم منذ عدة سنوات لصالح مشروع تنموي لكنه لم يُنجز على الإطلاق.

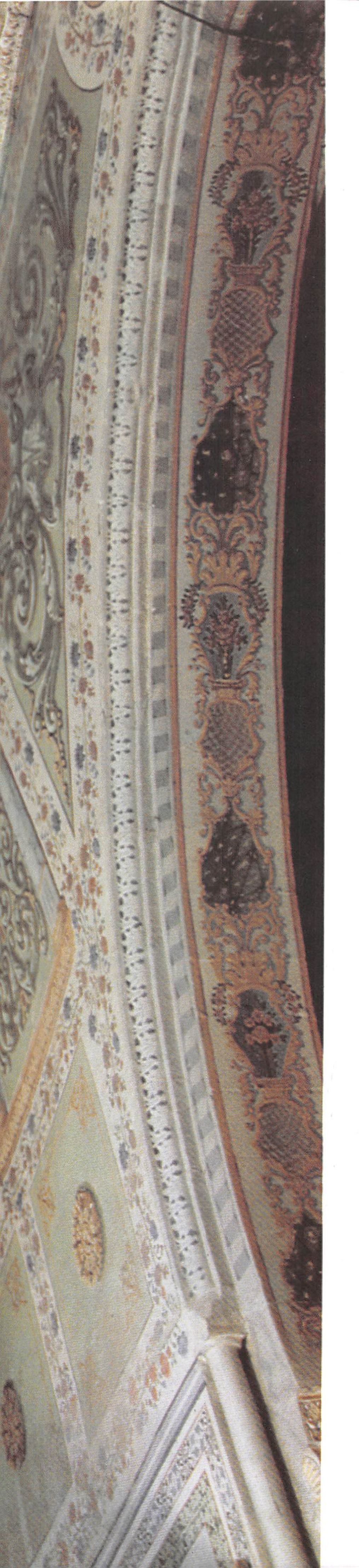
وخارج سور المدينة القديمة وفي وسط الأبنية الإسمنتية الجديدة الرتيبة في سوق ساروجة يختبئ قصر آخر كان فيما مضى ملكاً لأسرة العظم وقد تحول – كقصر العظم الذي يتمتع بشهرة أوسع – إلى متحف دمشق التاريخي حيث تحفظ فيه سجلات وأرشيف المدينة القديمة وهو معروف باسم منزل خالد العظم، الذي شغل منصب رئيس وزراء سورية عام ١٩٦٢. لكن يبدو بأن تاريخ ذلك القصر قبل بداية القرن العشرين غير معروف بالضبط باستثناء أن محمد فوزي باشا، والد خالد العظم، كان مقيماً في ذلك المنزل الفاخر. من المعروف أن محمد فوزي باشا كان وزيراً وواحداً من أكبر أعيان المدينة

عام ١٩٤٥، فرّ أعضاء البرلمان إلى الشوارع الخلفية في سوق ساروجة لاجئين إلى بيت اليوسف كملاذ آمن لهم. ولكن عندما تعرض المنزل للهجوم يُقال بأنهم انتقلوا بسرعة عبر ذلك الباب إلى منزل خالد العظم ثم فروا منه باتجاه قلب المدينة.

اشتهر بيت اليوسف في بداية القرن العشرين بأنه كان منزلاً لأحد أبرز أعيان دمشق في ذلك الزمن: عبد الرحمن باشا اليوسف. كانت عائلة اليوسف من الأكراد الذين جاؤوا إلى دمشق عام ١٨٠٠ تقريباً كتجار غنم لكن يبدو بأن الجيل التالي من الأسرة جنى فوائد كبيرة لقاء الخدمات الجلية التي قدمها للعثمانيين، بالإضافة إلى زواج ناجح ربط بين عائلة اليوسف والابنة الوحيدة لعائلة شمدين الثرية والمهيبة (وهي من العائلات الكردية أيضاً). كان عبد الرحمن باشا اليوسف هو المولود الذي أثمر عنه ذلك الزواج. لم يقتصر إرث عبد الرحمن باشا عام ١٨٩٢ على الثروة والمنزلة الاجتماعية الرفيعة فحسب، وإنما ورث أيضاً من والد زوجته منصب «أمير الحج». وفي الحقيقة أن عبد الرحمن باشا اليوسف كان آخر من شغل منصب «أمير الحج» بما أن المنصب ذاته أصبح لاغياً عند انهيار الإمبراطورية العثمانية. إن عبد الرحمن باشا اليوسف – الذي جرى اغتياله عام ١٩٢٠ عندما احتل الفرنسيون سورية – قد قام بتوسيع وإعادة تزيين وزخرفة منزل العائلة «بيت اليوسف» بأسلوب معماري في غاية الحسن والجمال وأصبح مركزاً لاستضافة الأثرياء وأصحاب النفوذ بالإضافة إلى الفقراء والمساكين من حي الأكراد في دمشق حيث كان يقدم لهم الطعام من مطبخ يقع خارج المنزل. إن بيت اليوسف الآن مقسم بين ٣٥ أسرة بالإضافة إلى تخصيص بعض أجزائه كمراكز لأعمال تجارية صغيرة، لكنه في حالة سيئة وبحاجة ماسة للترميم.

كما جاءت أسرة إيبش – وهم من الأكراد أيضاً – إلى دمشق بادئ الأمر كتجار مواشٍ، وبالتحديد الخيول، وحققت لهم تجارتهم







الصورة في الصفحة المقابلة: منظر آخر لقاعة الاستقبال المذهلة في بيت اليوسف الذي كان ملتقى اجتماعياً في مطلع القرن العشرين.

الصورة في اليمين: عبد الرحمن باشا اليوسف أحد أبرز أعيان دمشق وأمير الحج في صورة ملتقطة عام ١٩١٠.

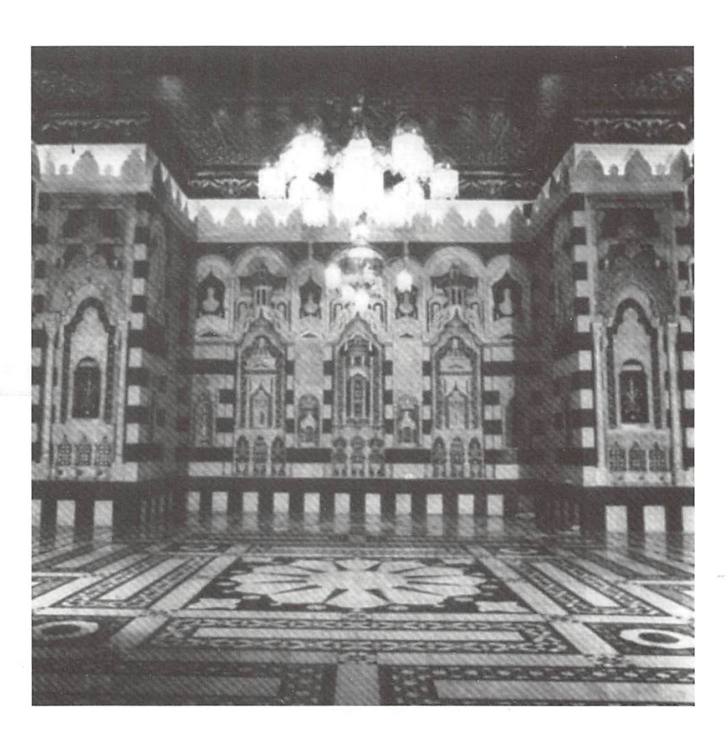
نتائج طيبة جداً. كان منزل عائلة إيبش يقع أيضاً في سوق ساروجة (تحول الآن إلى مطعم اتحاد العمال في سورية وهو مكان رائع يستطيع المرء الاستمتاع بتناول الطعام فيه وسط المحيط التقليدي للبيت العربي الدمشقي). في نهاية القرن التاسع عشر كان جدّ الجيل الحالي من عائلة إيبش يعمل في تجارة الخيول الأصيلة عبر أرجاء الشرق الأوسط وأصبح من خلال عمله صديقاً للأمير يوسف كمال، أحد أفراد الأسرة الملكية المصرية، الذي تعرف على ابنه حسين. كان الأمير معروفاً بولعه بعمليات الصيد الكبيرة التي تنطوي على المغامرات وسرعان ما أقنع حسين الشاب للانضمام إليه في حملة صيد كبيرة إلى إفريقيا. وبالفعل اشترك الرجلان معاً في رحلات صيد مماثلة إلى إفريقيا والهند في ١٩١٠ و١٩١٥ و١٩٢٦ حيث استغرقت كل رحلة زهاء السنتين. كانت غنائم الصيد تقسم فيما بينهما وترسل إلى لندن بهدف تحنيطها. إن نصيب الأمير يوسف كمال من تلك الحيوانات المحنطة قد أدخل في متحف الصيد في قصر المنيل بالقاهرة، بينما عرضت حصة حسين في «القاعة» ببيت العائلة في دمشق وبقيت محفوظة في مكانها حتى بعد أن أصبح المنزل من أملاك اتحاد العمال – حيث كان بإمكانك النظر من خلال نوافذ تلك «القاعة» لتشاهد منظراً خيالياً: أقدام الفيلة وجلود الأسود ورؤوس الزرافات وأعداد لا حصر لها من جماجم الحيوانات

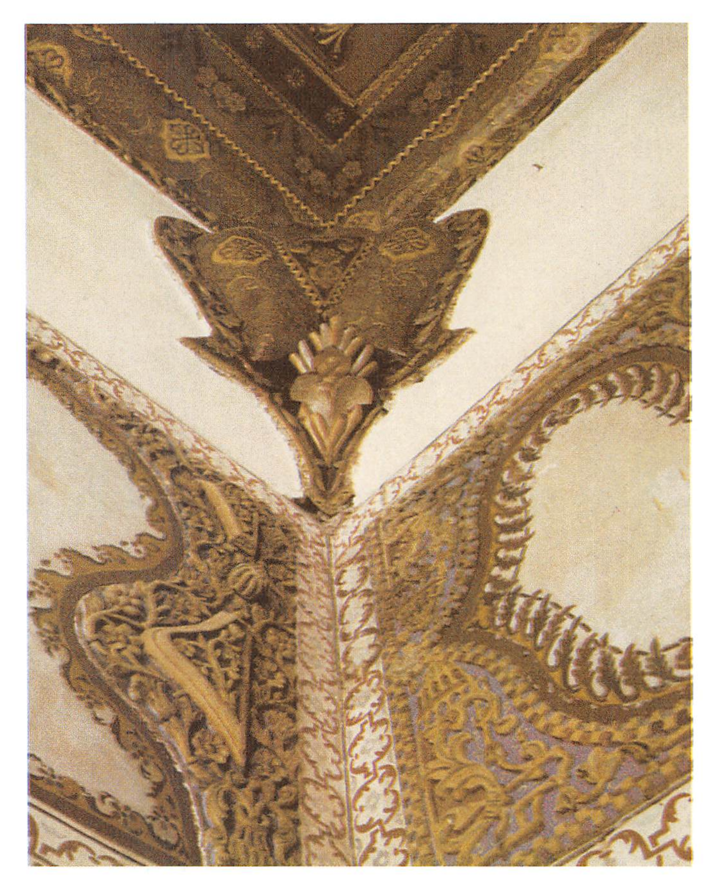


ذات القـرون موضوعة على أرضية من الرخام قبالة الكسوة الجدارية التقليدية المزينة بالرسوم. وفي عام ١٩٩٨ استملكت الحكومة السورية تلك المجموعة ونقلتها إلى «قاعة» بيت السباعي. لكن من المؤكد أن تلك الحيوانـات كانـت ستبدو أكـثر روعة لو بقيت حيـة وطليقة في موطنها الأصلي.

إن إحـدى المشـكلات في دراسة تاريـخ البيوت العربيـة الدمشقية تتمثـل في أن كل واحد منها يُعرف باسم مالك المنزل في زمنه. فعندما تتبـدل ملكية المنزل، يتبدل معها اسم المنزل أيضاً. ومما يثير الدهشة فعـلاً أن بعض الأشيـاء تصبح في طي النسيان بسرعـة كبيرة. وقد لا يكون الأمر بهذه الصورة إذا سألنا أنفسنا من يعرف شيئاً عن أصحاب المنازل التي نعيش فيها.

تكمـن الصعوبة الأخـرى في دراسة البيـوت الدمشقية بـأن عدداً كبـيراً من المنازل المشهورة قد اختفت حيث هـدم بعضها وأزيل نهائياً من أجل عملية التطوير والتحديث – لاسيما تلك الدور الواقعة في سوق ساروجـة، بينما تعرض بعضها الآخـر للخراب على يد الفرنسيين أيام الثـورة التـي اندلعت عام ١٩٢٥؛ كما تداعى عدد منهـا أيضاً مع مرور الزمـن بسبب الإهمـال. فعلى سبيـل المثال، هدم منـزل عائلة الباشا عندما جرى توسيع الطريق القادم من الشارع المستقيم باتجاه منطقة البـاب الصغـير، ولكن لحسن الحـظ أن الزخـارف الحجرية الرائعة التـي كانت موجودة في قاعة الاستقبال في ذلك المنزل قد فككت بعناية كبـيرة وحفظت في مـكان آمن، ثم أعيد تعميرهـا في ثمانينيات القرن العشرين في أحد قصور الضيافة الرئاسية المعروف الآن باسم «القاعة الدمشقية».

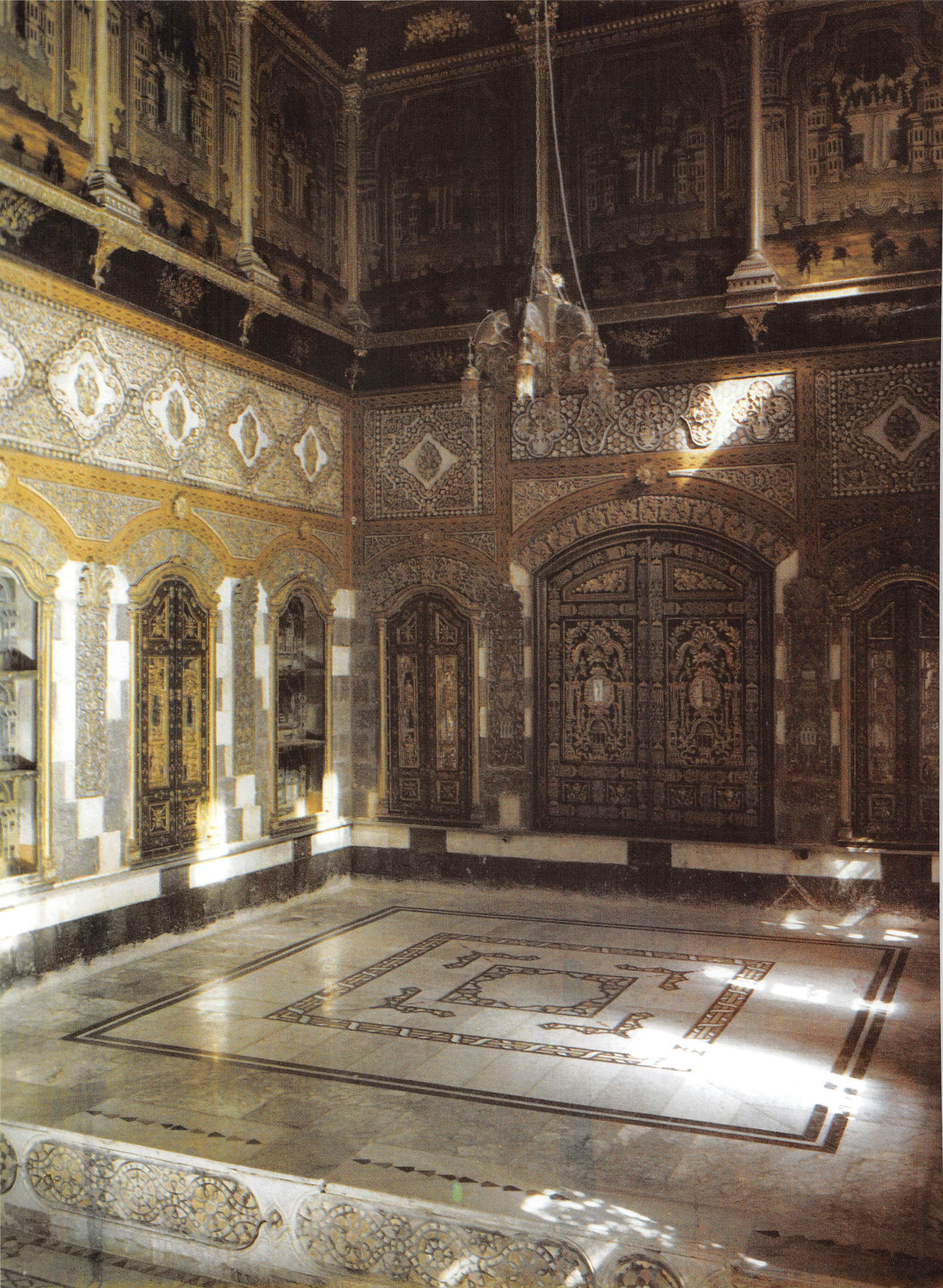




كان موقـع دار «علـي آغـا» لغـزاً لم يتمكن الباحثون مـن اكتشافه علماً بـأن العديد من الرحالة الأوروبيين ممن زاروا سورية، بمن فيهم (تشارلز أديسـون) و) جوسياس بورتر(، وصفوا ذلك المنزل بأنه أحد أروع وأجمـل البيـوت العربية الدمشقيـة، لكن يبدو بأنـه اختفى كلياً. قصـة «علي آغا» قصة حزينـة، فهو رجل تركي تـزوج بفتاة من أسرة العظم مما شق له الطريق إلى تلك الأسرة العريقة وعمل لصالح أحد المصريين خلال فـترة حكمهم القصيرة في سوريـة (١٨٣٢-١٨٤٠). كمـا أن (فرلان) التي تزوجت من حاكـم دمشق المصري شريف باشا هي ابنة علي آغا. بالرغم من هذه العلاقة العائلية الوثيقة التي أقامها علي آغا مع الطبقة الحاكمة إلا أنه اتهم بالخيانة وحكم عليه بالإعدام عـام ١٨٣٩. ولكن من المؤكد أن علي آغـا كان رجلاً واسع الثراء وتمتع بـذوق رفيـع وكان منفتحاً على الأجانـب لأن داره كانت إحدى الأماكن التـي وصفهـا الغربيون بكثير من الدقـة. وبعد ٢٠ سنة مـن وفاة علي آغـا، وصف «دليل موراي السياحي» بأن المنزل الذي اقتناه علي آغا قد تحول إلى فندق ثم اختفى عن الوجود. لكن (ستيفان ويبر) من المعهد الألمـاني لعلوم الآثار بدمشق قد تناهى إلى علمه بأن منزل علي آغا هو المعروف حالياً باسـم بيت نظام الذي انتقلت ملكيته للحكومة السورية

الصـورة في اليمين: الزخـارف الحجرية مـن بيت الباشا تزيـن الآن أحـد قصور الضيافة الرئاسية: القاعة الدمشقية.

الصـورة في الصفحـة المقابلـة: تصميم تزيني بديـع واستثنائي في حسنه في زوايا الليوان ببيت نظام.

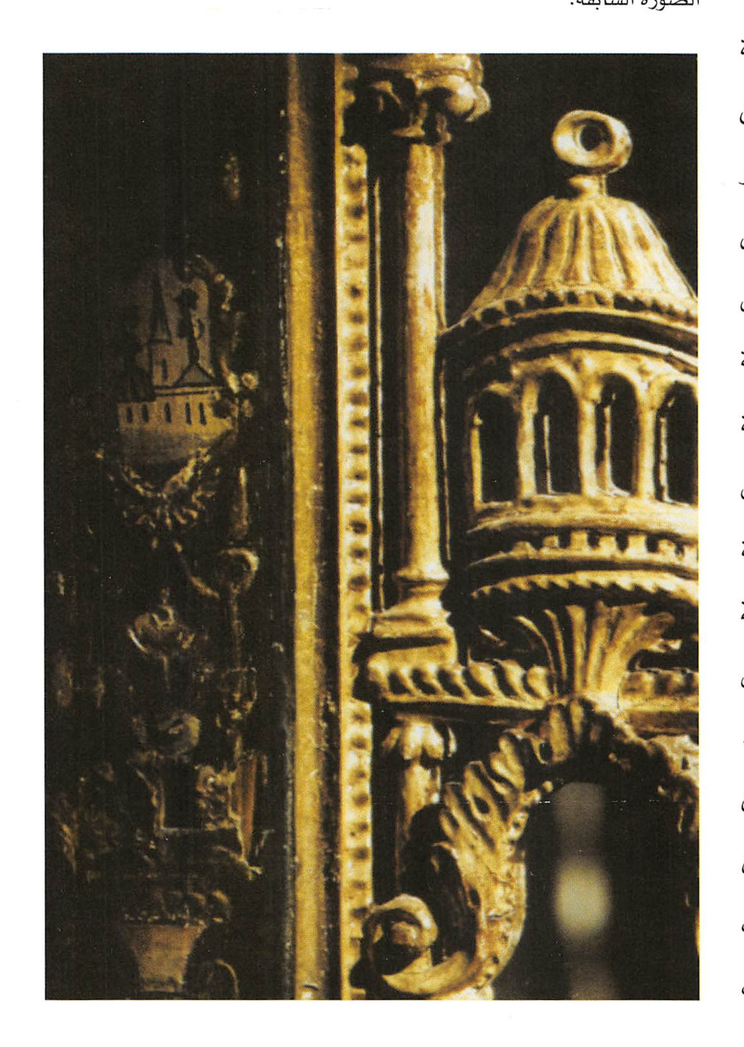




ويمكن زيارته في فترات النهار أو استئجاره لإقامة الحفلات. وبالقرب من بيت نظام يقع قصر رائع آخر هو بيت السباعي الذي استملكته الحكومة أيضاً وفتحت أبوابه أمام عامة الناس بغرض الزيارة والاطلاع، كما أدخل على هذا القصر مجموعة الصيد التذكارية من الحيوانات المحنطة التي تعود ملكيتها إلى آل إيبش. لكن أصول دار السباعي غير واضحة تماماً حيث يقول البعض أن ملكية المنزل تعود إلى عائلة حمزة الدينية الكبيرة، بينما يقول البعض الآخر أنه كان ملكاً لآل العظم. وفي تسعينيات القرن العشرين قام السفير الألماني لدى سورية وزوجته باستئجار بيت السباعي كمقر رسمي لإقامتهما في دمشق لمدة سنتين وذلك في محاولة منهما لحث المزيد من الوعي لدى الناس حول ضرورة الحفاظ على تراث وأمجاد دمشق القديمة. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يرتبط بها ذلك المنزل بصلة مع الأوروبيين حين كان في خمسينيات القرن العشرين مقراً للقنصل البلجيكي المركيز (لويس دوساو) الذي اكتسب سمعة رديئة في الأوساط الدبلوماسية حينذاك. فالمركيز كان قنصلاً معتمداً أيضاً لدى لبنان ويتولى من هناك الشؤون القنصلية في سورية، وهذا ما تضمن بالطبع رحلاته المستمرة بين بيروت ودمشق. ولكن لا أحد يعرف تماماً حتى الآن طبيعة نشاطات ذلك المركيز لكنه ضبط في نقطة الحدود اللبنانية – السورية ذات مرة وبحوزته بعض الأسلحة في سيارته وبما أنه كان معروفاً بمساندته للفلسطينيين فقد اتهم بتهريب الأسلحة إليهم، فشكلت القصة فضيحة كبيرة واستدعته الحكومة البلجيكية على أثرها للعودة إلى بروكسل. اضطر المركيز لاعتزال العمل في السلك الدبلوماسي وعاد إلى سورية مجدداً ليعيش بسلام وهدوء في قرية جبلية جميلة تدعى عرنة، حيث تزوج آخر الأمر بمدبرة المنزل، وهي فتاة من أهالي القرية وأصغر منه بثلاثين سنة ولديها ابنة من زواج سابق. وفي حياته الجديدة، أظهر المركيز اهتماماً وولعاً بالاعتناء بالحدائق وزراعة الفواكه وبدأ باستيراد أصناف جديدة من النباتات من بلجيكا لتحسين الإنتاج المحلي من التفاح والكرز. لم يرجع بعدها المركيز أبداً إلى أوروبا وإنما كان ولداه من زوجته البلجيكية السابقة يقومان بزيارته في سورية. انتقل المركيز فيما بعد من قرية عرنة الجبلية إلى قرية مطلة على البحر في طرطوس حيث توفي هناك عام ١٩٩٤.

الصورة في الصفحة السابقة: «العتبة» في قاعة الاستقبال ببيت نظام المبينة في الصورة السابقة.

الصورة في الأسفل: لقطة مقربة تبين فن نحت الحجر في بيت نظام.



جاء ثلاثة أجانب غير عاديين للعيش في دمشق في القرن التاسع عشر، توفي منهما اثنان بينما مكث الثالث أقل من سنتين في سورية قبل استدعائه إلى لندن. ويضم هؤلاء الثلاثة الأمير عبد القادر الجزائري الذي نفاه الفرنسيون عند احتلالهم الجزائر؛ و(جين ديغبي) التي نفت نفسها طوعاً من إنكلترا إلى سورية؛ والمستكشف الفذ واللغوي (ريتشارد بيرتون) الذي كان في دمشق أصلاً كقنصل بريطانيا لدى سورية. ومما يثير الاهتمام فعلاً أن هؤلاء الثلاثة أصبحوا أصدقاء مقربين من بعضهم البعض. تقول إيزابيل زوجة ريتشارد بيرتون «إذا اجتمع عبد القادر والكابتن بيرتون والسيدة فإن الحديث الذي يدور بينهم لابد أن يكون مثيراً للاهتمام وغنيا بالتجارب المختلفة». كانت إيزابيل تشير دوماً إلى جين ديغبي بلقب «السيدة» تفادياً لنشر الإشاعات وإثارة الفضائح.

وصل عبد القادر الجزائري إلى دمشق عام ١٨٥٢ مصطحباً معه عددا كبيرا من أفراد العائلة والحراس واشترى عدة منازل على ضفة نهر بردى بالقرب من باب الفراديس حيث استقر فيها مع حاشيته. وحسبما أفاد به أحد المؤرخين فإن وصول عبد القادر إلى دمشق أثار هزة في المجتمع الدمشقي. فقد تمتع عبد القادر بكل المحاسن، من ذكاء ومعرفة واسعة وإتقان لغات عديدة وثروة كبيرة (بالإضافة إلى منحة مالية من الحكومة الفرنسية). كما كان شيخاً صوفياً يتحدر من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لكنه كان في المقام الأول بطلاً وطنياً حيث قاتل الفرنسيين ببسالة وشجاعة في الجزائر لمدة ١٥ سنة تقريباً في محاولة لطردهم من بلاده لكنه اضطر في النهاية للاستسلام. وبموجب الصفقة التي عقدها معه الفرنسيون سمحوا له ولضباطه بمغادرة البلاد إلى المنفى. ولكن حين صعد عبد القادر ورجاله إلى ظهر السفينة التي كان من المفترض أن تبحر بهم إلى بيروت، تناهى إلى علمهم بأن السفينة ستتجه بهم إلى فرنسا حيث سيزجون في السجن. وبالفعل وضع عبد القادر ورجاله تحت الإقامة الجبرية في قصور مختلفة في وادي «اللوار» لمدة أربع سنوات إلى أن استلم نابليون الثالث مقاليد الحكم في فرنسا. كان الإمبراطور نابليون متعاطفاً مع المنفيين بشكل عام لأنه عانى شخصياً فيما سبق من عقوبة النفي، فجاء الإمبراطور بنفسه إلى القصر الذي وضع فيه عبد القادر تحت الإقامة الجبرية وقال له «أيها الأمير أنت حرّ طليق». وقد رسم (كولن ثيوبرون) صورة مؤثرة عن تلك الفترة في كتابه «مرآة دمشق» قال فيها «لا يخطر ببالي الحروب التي خاضها عبد القادر بقدر ما يؤسفني سجنه غير اللائق في اللوار ومن ثم إطلاق سراحه على يد لويس نابليون. ولن يغيب عن ذهني أبداً كيف جلس الإمبراطور والأمير عبد القادر جنباً إلى جنب على أرض قصر أمبواس يتناولان الطعام معاً.. وكيف كان عبد القادر يسجد لأداء صلاة العصر في مدخل دير القديس كلاود».

بالرغم من إطلاق سراح عبد القادر إلا أنه لم يُسمح له بالعودة إلى الجزائر، فقرر أن يمضي منفاه في دمشق حيث أصبح بمنتهى السرعة أبرز شخصية في المجتمع الدمشقي. ويُقال بأنه تمتع بشخصية ساحرة تفوق الوصف. فعندما أخبرته إيزابيل بيرتون أن شاي الأعشاب الذي قدمه لها قد أزال الصداع الذي كانت تعاني منه وبأنها ستأتي لزيارته لتحتسي ذلك الشاي كلما عانت من الصداع فضحك وقال لها إذا كان الأمر على هذا النحو فإنه يتمنى أن تصاب بالصداع كل يوم. وقالت إيزابيل بيرتون عن عبد القادر «إن أفكاره جميلة كجمال وجهه ولا يسعني القول إلا أنه سلطان بكل المقاييس». كما قال فيه المبشر الأمريكي (هنري جيسوب) الذي ارتبط به بمعرفة شخصية «لا تكتمل زيارة دمشق دون زيارة هذا الأمير النبيل. فقد كان يأتي لزيارته الوجهاء والأعيان الأوروربيون والنبلاء الفرنسيون واللوردات البريطانيون والسائحون الأمريكيون والمبشرون البروتستانتيون والكاثوليكيون والحجاج المسلمون من آسيا وإفريقيا. لقد أعلن عبد القادر أن كل الناس هم أخوة له.».

لقد تزوج الأمير عبد القادر الجزائري من خمس نساء على عدة مراحل. فمع أن زوجته الأولى (ابنة عمه) قد أصبحت بدينة ودميمة الشكل، إلا أنها ظلت الوحيدة التي يُسمح لها بالبقاء جالسة عند دخول الأمير إلى قاعة الاستقبال في داره. وبلغ عدد أولاد عبد القادر ستة عشر.

عندما توفي عبد القادر الجزائري عام ١٨٨٣ دُفن في جامع محي الدين بمحاذاة قبر الشيخ الصوفي ابن العربي الذي كان عبد القادر يتبع تعاليمه الدينية. ولكن عندما نالت الجزائر استقلالها من فرنسا عام ١٩٦٢ طلبت الحكومة الجزائرية الجديدة إعادة رفات بطل المقاومة إلى أرض وطنه. وبالفعل اصطحبت ابنة حفيدته أميرة أمل الجزائري نعش الأمير عبد القادر وعادت به إلى الجزائر حيث استقبل نعشه بـ ١٠١ طلقة مدفعية تحية له وإعلان دقيقة صمت إجلالاً لروح البطل. كما وجهت الحكومة الجزائرية الدعوة إلى جميع أفراد عائلة عبد القادر للعودة إلى وطنهم وقدمت لهم السكن والمنح المالية، فقبل معظمهم ذلك العرض لكن الأميرة أمل آثرت البقاء في دمشق حيث لعبت دوراً رائداً في تعليم النساء الدمشقيات كما أنها تحظى باحترام وتقدير كبيرين في سورية. وتفتخر الأميرة أمل بأنها ورثت وسام الشرف الذي مُنح لجدها عبد القادر وهذا ما يجعل الوسام محفوظاً – على الأقل في الوقت الحالي – في دمشق، المدينة التي نال عنها عبد القادر ذلك الوسام تقديراً لبسالته وشجاعته.

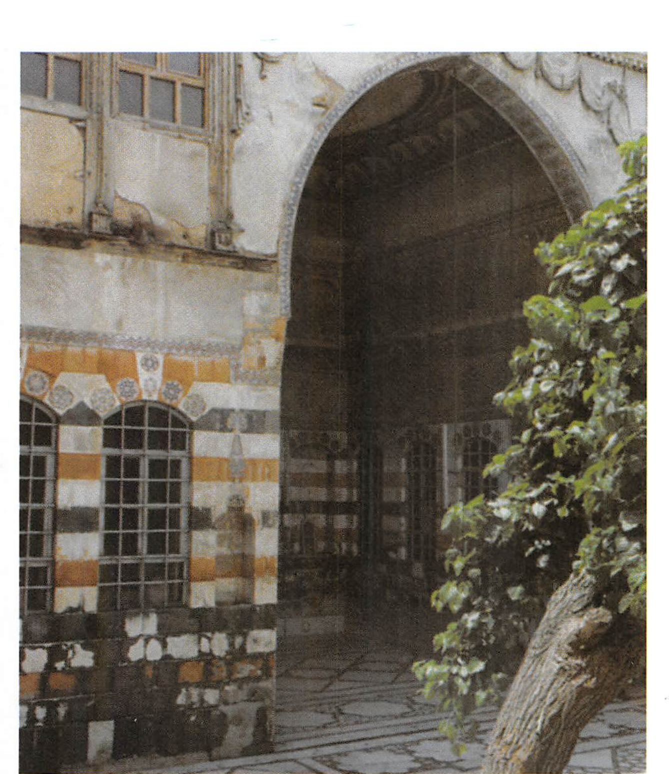


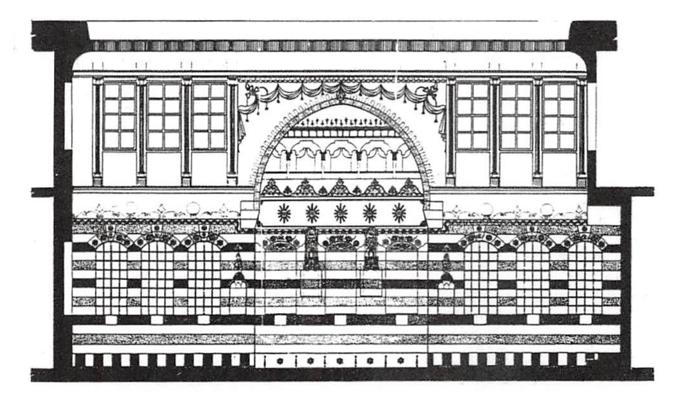
عبد القادر الجزائري يضع ميدالياته بما فيها وسام الشرف الفرنسي.

الصورة في اليسار: أحد منازل عبد القادر في دمشق ويتميز بتزيينه على الطراز المتبع في شمال إفريقيا وقد سكن فيه أحد أبناء عبد القادر.

الصورة في الأسفل: الليوان في دار عبد القادر الموجود على ضفة النهر.

الصورة في الأسفل: رسم أعده أحد المعماريين لليوان وواجهة دار عبد القادر الجزائري.





إن بيوت عبد القادر الجزائري الواقعة على ضفة نهر بردى يشغلها الآن سكان جدد. كما أن داره الخاصة به، التي تعدّ قصراً دمشقياً تقليدياً بجدرانها المزينة بمداميك من الحجر الأسود والأبيض، تقطنها الآن أسرة اتخذتها سكناً لها منذ فترة بعيدة لكنها أمست في حالة سيئة. ولا أحد يعرف بالضبط إذا كان عبد القادر قد أمضى فترة إقامته كلها بدمشق في ذلك المنزل. وفي الناحية المجاورة تقع دار آخر كانت ملكاً لأحد أبناء عبد القادر، ويتميز هذا المنزل بتزيينه وزخرفته العربية على الطراز المتبع في شمال إفريقيا. وهناك شعار على جدار المنزل كُتب عليه «كن





الصورة في الأعلى: سقف الغرفة مثمنة الأضلاع في أول منزل سكنته جين ديغبي كما يبدو حالياً.

الصورة في اليسار: منظر النهر كما التقطتها عدسة المصور من الجسر الذي يقع خلف دار عبد القادر الجزائري.

الصورة في الصفحة المقابلة: لقطة تفصيلية لنافذة في دار عبد القادر الجزائري المزين على الطراز العربي في شمال إفريقيا.

متواضعاً كصورة القمر المنعكسة على صفحة الماء ولا تكن متعجرفاً كالدخان الذي لا قيمة له وإنما يحاول بلوغ السماء». ومنذ فترة ليست ببعيدة استعمل ذلك المنزل كمدرسة للاجئين الفلسطينيين ووضع على الحائط المقابل للمنزل رسم جداري حزين. ولكن مازال هناك أثر واحد يبعث على البهجة ألا وهو الجسر الذي بناه عبد القادر فوق النهر وما يزال هذا الجسر قائماً إلى الآن. عندما قامت (غيرترود بيل) بزيارة أبناء عبد القادر بعد وفاته، عبرت ذلك الجسر وقالت «وأخيراً قادني أحدهم لأعبر جسراً صغيراً.. لأدخل إلى حديقة غنّاء يملؤها زهر البنفسج.. ثم عبرناها باتجاه إسطبلات مهواة بشكل حسن وجافة كأفضل الإسطبلات الموجودة في أوروبا». أما اليوم فقد اختفت تلك الإسطبلات واختفت معها زهور البنفسج وحلت مكانها الأبنية الإسمنتية البشعة. ومع ذلك مازال بمقدور المرء الوقوف فوق الجسر والتخيل كيف كان المنظر سابقاً حيث البساتين والحدائق الجميلة التي تقع على مسافة قريبة منها منزل (جين ديغبي).

بعد عام واحد من استقرار عبد القادر في دمشق وصلت سائحة إنكليزية أرستقراطية تدعى جين ديغبي وكانت تبلغ من العمر آنذاك خمساً وأربعين سنة. كانت جين تعيش سابقاً حياة استثنائية في نوعها حيث تزوجت عدة مرات، أولاً من لورد بريطاني ثم من بارون ألماني وبعدها من كونت يوناني. كما كان لها عدد كبير من العشاق بمن فيهم الملك (لودفيغ)، ملك بافاريا. أما في سورية فقد وقعت في غرام شيخ قبيلة البدو التي تسيطر على الطرق المؤدية إلى تدمر والتقت به حين كانت تبحث عن دليل سياحي. كان شيخ هذه القبيلة أصغر من جين بعشرين سنة ومع ذلك وبالرغم من معارضة القنصلية البريطانية بدمشق في ذلك الزمن، تزوجت جين من شيخ القبيلة وعاشت معه حياة هنيئة وسعيدة إلى أن وافتها المنية عام ١٨٨١.

اتفقت جين مع زوجها على أن تقضي بضعة أشهر من السنة في الخيام السوداء التي تسكنها القبيلة في الصحراء ثم تمضي القسم الآخر من السنة في دمشق. وقبل أن تتزوج جين من شيخ القبيلة، اشترت قطعة أرض خارج سور المدينة وسط الحدائق والبساتين وجداول الماء التي يمكن رؤيتها عند الوقوف على جسر عبد القادر. ثم بدأت بتنفيذ نشاطها المفضل المتمثل في تصميم وبناء وتأثيث المنزل. كان المخطط الرئيسي لمنزل جين ديغبي مطابقاً للشكل الدمشقي باستثناء بعض اللمسات الإنكليزية التي أضافتها عليه. فالطابق الأرضي ضم بين أرجائه غرفة مثمنة الأضلاع بسقف مرتفع مزين بورق الجدران الأوروبي وفيها الخزائن الجدارية الخشبية المزينة بزخارف على الطريقة الدمشقية التقليدية. أما باقي أجزاء المنزل فقد بنيت كالمعتاد حول الباحة (أرض الديار) المركزية، بينما ضم الطابق العلوي شقتين منفصلتين لجين وزوجها شيخ القبيلة، حيث قامت بتأثيث شقتها على الطراز الإنكليزي لاسيما غرفة الجلوس التي تدلت منها ستائر حمراء بلون الكرز وقطع أثاث طلبت إحضارها من أوروبا. كما أرسلت لها



عائلتها من بريطانيا بعض الحاجيات والأشياء التي طلبتها، بما في ذلك بذور الخضراوات والأزهار من أجل زراعتها في حدائق المنزل، بالإضافة إلى الملابس والأثواب كي تظل دائماً مواكبة للأزياء العصرية السائدة في بلدها الأم. وفي إحدى المناسبات تلقت كل من إيزابيل بيرتون و جين ديغبي والسنيورة كاستيللي ، زوجة القنصل الإيطالي، دعوة لحضور زفاف ابنة والي دمشق. طلبت نساء الوالي اللواتي كن على معرفة وثيقة بالنساء الغربيات الثلاث الحضور إلى حفل الزفاف بالثياب الأوروبية المخصصة لتلك المناسبات. وبالفعل لبت النساء الأجنبيات الثلاث هذا الطلب، ولابد أن المشهد كان رائعاً وغير مألوف حين ظهرت الأجنبيات بأثواب مشدودة على وسطهن بتنانير منفوخة ذات أطواق واسعة، بينما الجزء الأعلى من الأثواب تكشف أكتافهن في الوقت الذي ظهرت فيه نساء الحاكم بلباسهن الشرقي البديع.

أصبحت دار جين ديغبي محطة رئيسية تستقطب الرحالة والمسافرين القادمين إلى دمشق حيث سمع جميع الزوار بالإشاعات المنسوجة حول حياتها الفضائحية وعلموا بزواجها من شيخ القبيلة السوري فكانوا متلهفين لرؤية الطريقة التي تعيش فيها جين ديغبي. مما لاشك فيه أن هؤلاء الزوار عبروا عن دهشتهم وإعجابهم بأناقة وجمال المكان الذي تعيش فيه جين، لكن جين لم تعتد على استقبال أي زائر دون رسالة تعريف بشخصه. ومن الجدير بالذكر أنها دهشت ذات مرة للسبب الذي دفع بأمير ويلز الشاب حين زار سورية عام ١٨٦٢ لطلب زيارتها. وكتبت جين في مذكراتها «أعتقد أن السبب وراء ذلك هو مجرد الفضول»، أما أمير ويلز كتب في مذكراته حول هذا الموضوع بأن جين كانت تتمتع بجمال رائع بالنسبة لامرأة تجاوزت سن الخمسين وبأن منزلها كان مرتباً على نحو يفتن الألباب وخصوصاً حديقتها الغنية بالأزهار والورود.

لم يتمتع جميع الناس بالعقلية والذهن المتفتح. فعلى سبيل المثال، عندما التقى الرحالة الأمريكي (تشارلز دادلي وارنر) بجين ديغبي في الكنيسة اقشعر بدنه فكتب حول هذه المصادفة بروح من الورع «لقد وجدنا عدداً قليلاً من المتعبدين في الكنيسة المحلية وكان بينهم ... لتغفر السماء لنا النظر إليها يوم الأحد.. سيدة إنكليزية غريبة الأطوار وسيئة السمعة تشاطر شيخاً عربياً الفراش والطعام في قسم الحريم التابع له خارج سور المدينة. إني أحمرّ خجلاً عندما أرى سيدة تنتمي بجذورها إلى الحضارة البريطانية الراقية ترمي بنفسها بين ذراعي أحد هؤلاء البدو الجلفين ممن يتزوجون بأكثر من امرأة واحدة في آن واحد».

كانت حديقة جين تشكل لها مصدراً للتباهي والبهجة، كما زرعت الأشجار والنباتات التقليدية في باحة منزلها وتوسطتها بحرة فوارة. أما في حديقتها الواسعة التي تحيط بالمنزل فقد صنعت فيها الحدود والممرات العشبية وبنت لنفسها منزلاً صيفياً صغيراً تغطيه أزهار الياسمين والورود. كما زرعت شتى أصناف الأشجار والشجيرات غير المعروفة على المستوى المحلي. ومن المعتقد أن جين ديغبي هي التي أدخلت ثمرة المنغوليا إلى سورية. وكتبت جين في مذكراتها «ليس لدي جنائني يعتني بالحديقة وإنما أفعل ذلك بنفسي. كما لا يوجد لدي سوى الكتب وزوج من أهالي البلد. فعندما أحاول صنع الحلوى البريطانية من بعض ثمار حديقتي وأمضي نهاري بأكمله في تحضيرها، يأتي ويرمي بها قائلاً.. ما هذا الهراء!»

في عام ١٨٦٢ قررت جين بيع المنزل الذي أمضت ثمان سنوات في صنعه. وكتبت في مذكراتها «إن حبي في التغيير وتنويع نشاطاتي يدفعني لبيع هذا المنزل إذا حصلت على السعر الذي أطلبه». ويبدو أنها حصلت على عرض جيد في ذلك العام لأنها اشترت قطعة أرض مجاورة وباشرت العمل في تشييد منزل جديد وجميل.

لقد أثارت سيرة حياة جين ديغبي التي نشرتها (ماري لوفيل) عام ١٩٩٥ اهتمام زوار دمشق في زمننا الحاضر وجعلتهم تواقين – كما كانوا منذ مئة سنة خلت – لرؤية المكان الذي عاشت فيه جين. لكن المنطقة بأكملها التي بنت عليها جين بيوتها تحولت الآن إلى إحدى مناطق دمشق التي تعج بالأبنية على طريق رئيسي مزدحم، هو شارع الملك فيصل الذي يفصلها عن المدينة القديمة. ومع ذلك استطاعت (ماري لوفيل) ودليلها السوري (حسين الحناوي) تعقب أثر أول منزل بنته جين ديغبي. ومع أن المنزل الآن في حالة يرثى لها وموزع بين ثلاثين عائلة فقيرة، لكن يمكن التعرف عليه من خلال السقف مثمن الأضلاع وورق الجدران الأوروبي الذي يغطي ذلك السقف. أما منزلها الثاني فلم يتم العثور له على أي أثر.

كانت إيزابيل بيرتون في دمشق في الفترة التي عاشت فيها جين ديغبي في منزلها الثاني وحسب وصف إيزابيل فإنه يشبه المنزل الأول من حيث التصميم باستثناء إضافة حمام كبير وبيت زجاجي للنباتات والمزروعات وقاعات وغرف فسيحة مقابل أرض الديار تتسع لأفراد قبيلة زوجها الذين يأتون لزيارة دمشق. وكما كان الحال في منزل جين الأول، فقد خصصت الطابق العلوي لغرفتها وغرفة أخرى لزوجها. ووصفت السيدة بيرتون منزل جين الثاني بقولها «إنه مجموعة من الشقق الأنيقة بحد ذاتها ويحتوي على النفائس وبعض الأشياء التي تذكر بالحياة الأوروبية، بالإضافة إلى أواني الخزف الصيني واللوحات القديمة التي تمتزج بمجموعها مع رفاهية الشرق وجوه البديع الذي يدلّ على النقاء والأصالة».

أصبحت جين ديغبي و إيزابيل بيرتون صديقتين حميمتين عندما كانت عائلة بيرتون موجودة في دمشق. وفي الحقيقة اشتركت هاتان

الصورة في الصفحة المقابلة: سقف لوحة لجين ديغبي بلباسها العربي رسمها (كارل هاغ) عام ١٨٥٩. تقف جين أمام آثار تدمر حيث كانت قبيلة زوجها تحكم تلك المنطقة.

السيدتان بصفات عديدة. فكلتاهما كانتا مولعتين بالرجال الأقوياء ممن يتمتعون بالاستقلالية وهذا الصنف من الرجال كان شبه نادر، كما كانتا من النساء العمليات المولعات بالاعتماد على الذات. وامتلكت كل منهما قفصاً كبيراً يؤوي جميع أصناف الدجاج والبط والإوز والديك الرومي بهدف استخدام لحومها للطعام، كما كانتا ماهرتين في شؤون العناية بالحدائق وبارعتين في ركوب الخيل والاعتناء بالمواشي والإسطبلات الموجودة لديهما. وكانت جين تؤدي دور المترجمة لإيزابيل عند زيارة السيدات العربيات كما كانت جين تساعد إيزابيل في الحفلات الرسمية التي تقيمها في مقر إقامتها مع زوجها القنصل البريطاني.

شاطرت جين ديغبي وآل بيرتون الصداقة مع الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان لديه منزل صيفي بالقرب من منزل آل بيرتون في حي الصالحية. وقد ذكرت إيزابيل بأنها لن تنسى أبداً تلك الأمسيات التي قضوها سوية على سطح دارهم يتجاذبون أطراف الحديث ويبحثون في كل المواضيع من ذلك المنزل الذي يطل على دمشق والجبال المحيطة بها «كانت أجواء تلك الأمسيات شاعرية وجدية ويشوبها الحماس.. كنا أحياناً نتوقف لبرهة عن الحديث لنستمع إلى الأصوات من حولنا: أذان العشاء الصادر من قمة مئذنة الجامع وصفير الرياح القادم من الممرات الجبلية وصوت نواعير الماء في البساتين المجاورة». لكن هذه الأوقات الحلوة انتهت بعد أقل من سنتين عندما جرى استدعاء ريتشارد بيرتون وزوجته إيزابيل للعودة إلى لندن.

إن آخر الأوروبيين الذين زاروا جين ديغبي هو الطبيب (لورتيه) من «ليون» بفرنسا والذي ذهب لمقابلتها أثناء زيارة كان يقوم بها إلى دمشق عام ١٨٨٠. وقد أقامت له جين حفل استقبال عظيم في حديقتها المؤثثة بطراز شرقي والمزينة بالمرايا وآلاف الحلي والقطع الزخرفية. وقد ذهل الطبيب (لورتيه) بجمال يدي جين البيضاوين وحفاظها على حسن هيئتها فعلق قائلاً في مذكراته عن أسفاره ورحلاته «بالرغم من سنها المتقدم، إلا أن هذه السيدة النبيلة كانت تستعد للرحيل مع زوجها لتقوم برحلتها الأخيرة إلى الصحراء». فقد توفيت جين ديغبي في العام التالي ودفنت في المقبرة البروتستانتية بدمشق في قبر إنكليزي عادي باستثناء قطعة من الحجر أضيفت على نهاية القبر نقش عليها زوجها اسمها بالعربية. وحتى حلول منتصف تسعينيات القرن العشرين كانت تلك المقبرة المهملة هادئة وموحشة أيضاً لكن بعض الأشخاص ذوي النوايا الحسنة أدخلوا التحسينات على قبر جين ونصبوا سوراً من السلاسل على المقبرة ورصفوها بالبلاط. وتقسم (فاتي درويش)، وهي سيدة إنكليزية





الصورة في الصفحة السابقة: صورة لترجمان ودليل سياحي ملتقطة بكاميرا (بونفيس) في سبعينيات القرن التاسع عشر.

طاعنة في السن ومعروفة بغرابة أطوارها وبمعرفتها الواسعة في آن واحد تعيش في دمشق منذ ١٩٤٨ حين تزوجت من طبيب سوري، تقسم بأنها ترى جين ديغبي في أحلامها تطالب إعادة قبرها إلى حالته السابقة.

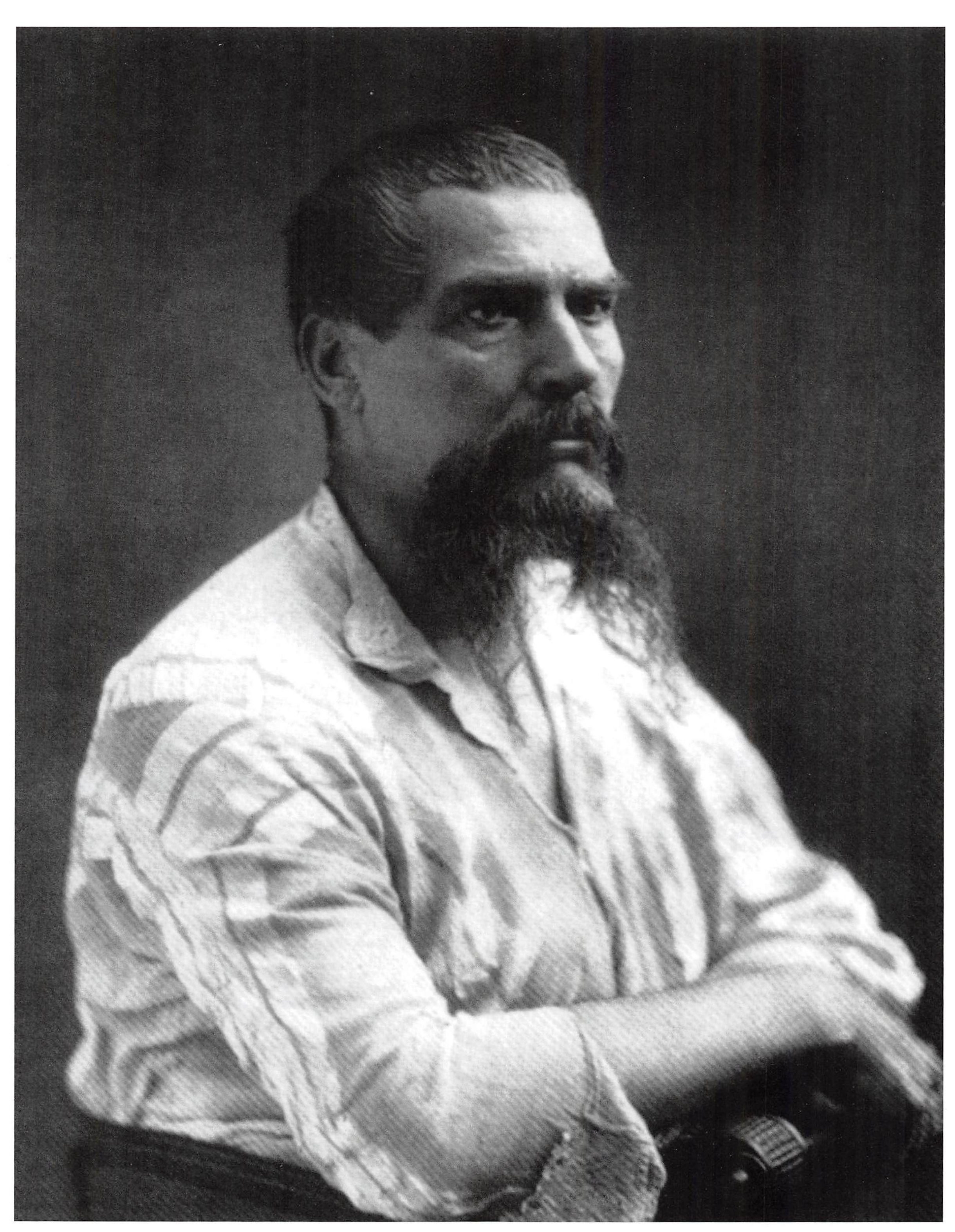
إن ريتشارد بيرتون الذي عُيّن قنصلاً جديداً لبريطانيا في دمشق عام ١٨٦٩ وصل إلى المدينة قبل زوجته إيزابيل ونزل في فندق «ديميتري» الذي كان يستضيف كل الأوروبيين القادمين إلى دمشق. ومع أن فندق «ديمتري» كان داراً قديمة ومزودة بباحة تقليدية في وسطها إلا أنه كان أول فندق في دمشق على الطراز الأوروبي. وكان ذلك الفندق يقع في إحدى أركان ساحة المرجة التي كانت في ذلك الزمن سوقاً للخيل. وفي فترة لاحقة شيّد فندق آخر في المنطقة المجاورة باسم فندق «فكتوريا» وهو المكان الذي مكث فيه لورنس العرب بعد دخوله دمشق مع جيش العرب المظفر عام ١٩١٨.

كانت بريطانيا العظمى أول دولة أوروبية تفتتح قنصلية لها في العاصمة السورية عام ١٨٣٤ لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فدمشق كانت مدينة مقدسة ومعادية لأهالي الغرب. وأما من قام بزيارتها فقد حرص على الظهور بالزي التركي كي يتمكن من الاختلاط مع حشود الناس دون أن يلفت الانتباه إلى أنه أجنبي. وقد قال لامارتين الذي جاء إلى دمشق ضمن رحلة استكشافية عام ١٨٣٣ «إن وصول الشخص الأوروبي باللباس الغربي يثير استياء شديداً. ففي الحقيقة نحن نخشى أن ينتقل خبر وصول رحلتنا إلى دمشق قبل مجيئنا إليها، مما سيعرضنا لأخطار جسيمة. لذلك فقد اتخذنا ما أمكن من حيطة واحتراس وارتدينا زياً تركياً».

كان (جون فارين) أول قنصل بريطاني عُين لدى دمشق عام ١٨٣٠ لكن السلطان العثماني رفض منحه الإذن اللازم لدخول المدينة فاضطر القنصل إلى المكوث في بيروت لمدة تزيد على السنتين فعلق قائلا «إن دمشق تفتخر بمقاومتها العنيدة لقبول التلاقح مع الغرب». وفي عام ١٨٣٢ قام المصريون بغزو سورية وعندما رسخوا من ركائز حكمهم، أعلنوا ترحيب دمشق بالقنصل «فارين» الذي دخل إلى المدينة عام ١٨٣٤ في موكب قوامه ٥٠٠ شخص من الجنود المصريين والإنكشاريين العثمانيين والموظفين التابعين للقنصل وغيرهم من المواطنين الإنكليز المقيمين. لكن الأمر الذي أثار دهشة القنصل (جون فارين) أنه لم يلق أي تصرف عدائي من الحشود الكبيرة التي خرجت لرؤيته. عندما وصل آل بيرتون إلى دمشق بعد ٣٥ سنة من ذلك التاريخ، كان عدد الأجانب في المدينة ضئيلا جداً (٣٠ أوروبي فقط)، حسبما ذكرت إيزابيل بيرتون، بمن فيهم جين ديغبي وريتشارد بيرتون وزوجته إيزابيل التي أضافت في مذكراتها «كل من يعيش في دمشق يجب أن يتمتع بصحة جيدة وأعصاب هادئة وأن يستمتع بحياة الشرق التي يعيشها أهالي المدينة. كما ينبغي عدم الاكتراث بالمجتمع ووسائل الراحة والرخاء..».

من ناحية ثانية، كانت الحياة في دمشق بالنسبة لإيزابيل مغامرة ممتعة جداً لدرجة أن مجرد جولة في السوق كانت تستأثر بها لأبعد الحدود. «لا أستطيع أن أذكر ما يكفي عن الأسواق وعن الجنسيات المختلفة التي ألتقي بها في دمشق: الجركس والأناضوليين وشيوخ البدو ورجال المال اليهود البدينين والماكرين والدروز الذين يشبهون المحاربين والأكراد الخشنين والمسيحيين الدمثين والمتملقين والخائفين والمسلمين الجادين والفارسيين النحيلين والهنود الناعمين والأتراك الذين يمشون متهاوين والأفغان الهادئين والجزائريين السمر الأمينين.. فالمرء يصادف الناس من كل الأعراق وكل الأزياء من آسيا وجميع الأديان وجميعهم يتكلمون لغات مختلفة قادمين لبيع بضائعهم أو لشرائها يتدافعون في الأسواق المزدحمة بين الدواب من بغال وحمير وجمال وخيول أصيلة مزينة ومزركشة.. وحراس القنصليات يختالون أمام قناصلهم صائحين.. أفسحوا الطريق!». كما وصفت السيدة بيرتون كيف وزعت الأسواق بترتيب حرفها وبضائعها المختلفة — كما هو الحال الآن. وكان سوقها المفضل هو سوق المنتجات الخشبية المطعّمة بالصدف. «تستطيع في هذا السوق شراء القباقيب أو الطاولات أو الصناديق المزودة بدروج وهي جميعها مطعّمة بالصدف. فالعروس المحلية يجب أن تحزم جهاز عرسها في واحد من تلك الصناديق الكبيرة بالإضافة إلى انتعال زوج من القباقيب لا يقل ارتفاعها عن قدم وهي جميعها أيضاً مزينة ومطعّمة بالصدف. فالعروس تمشي في باحة الدار منتعلة تلك القباقيب الشرقية العالية بمنتهى الرشاقة ثم تخلعها قبل أن تصعد إلى القاعة».

كما ذكر جوسياس بورتر في «دليل مواري السياحي» قبل عشر سنوات من وصف إيزابيل بيرتون أنه بالرغم من أن تلك الأسواق تعج بأجمل الأزياء المبهرجة التي يستطيع الخياطون ابتكارها والشخصيات الغريبة القادمة من كل حدب وصوب، إلا أن القبعة العادية التي يعتمرها الرجل الإنكليزي كان يُنظر إليها على أنها شيء مروع. فأول رجل أوروبي دخل دمشق في بداية القرن التاسع عشر معتمراً قبعته التقليدية نزعها الأهالي عن رأسه بغضب ورموا بها إلى الأرض. أما الآن فيبدو أن الناس لا تزيح نظرها عن تلك القبعات الغربية وتستحوذ على انتباههم بل وتثير إعجابهم أيضا. فالدراويش يحملقون بها والفارسيون الذين يضعون قبعات كبيرة على شكل رغيف الخبز يهتفون متعجبين.. ما شاء الله!!.. والأتراك الذين يضعون الطرابيش



(ريتشارد بيرتون)، القنصل البريطاني في دمشق من ١٨٦٩ إلى ١٨٧١.

الحمـراء التـي تشبه قلنسـوة النوم ينظـرون بذهول إلى هـذه القبعة الأوروبيـة، بينما يتوقف شيـوخ القبائل الذين يضعـون العمامات على رؤوسهـم وكأنهم لفوها بلباس النوم للنظر بإمعـان في هذه الظاهرة الغريبة بالنسبة لهم.».

ظـن بيرتـون وزوجته أنهمـا سيقيمـان في دمشق لسنـوات عديدة وحالما وصلت إيزابيل إلى فندق «ديميتري» الذي وجدته مكاناً كئيباً في ١ كانـون الأول ١٨٧٠، شرعت تخطـط للإقامة للمدى البعيد. في بادئ الأمر راودتها فكرة الحصول على قصر من الرخام في دمشق القديمة لكنهـا قررت آخر المطـاف السكن في إحدى ضواحـي المدينة المعروفة باسم الصالحية على سفح جبل قاسيون من أجل صحة زوجها. ومع أن مسـاحـة المنزل الذي اهتدت إليه بلغت ٧٥٠ متراً مربعاً ويتمتع بإطلالة جميلـة ويتوفر فيـه الماء العذب والهـواء النقي والضوء الـكافي، إلا أن المنازل المعروضـة للإيجار كانت من الدرجة الثانية بالنسبة للزوجين. وفي النهاية استأجر آل بيرتون نصف منزل – باحة الحرملك في قصر كبير. واعتقدت إيزابيل بأنها لو استطاعت وزوجها استئجار السلاملك أيضـاً لكان لهما مقر إقامة مثالي لكـن ذلك القسم من المنزل اشتراه رجـل آخر. ومع ذلك كان موقـع المنزل الذي وقع عليـه اختيار بيرتون وزوجته موقعاً رائعاً لاسيما ما يحيط به من بساتين المشمش والحدائق وجـداول الماء التي تمـر فيها. وكان منزلهما الجديـد يطل على طريق صغـير فاستأجرت السيدة بيرتون في الجانب الآخر منه إسطبلاً يتسع لدزينة من الخيول.

ومنـذ ذلـك التاريخ أخذ الجـزء الحديث من مدينـة دمشق يبتلع منطقة الصالحية التي لا تزال إلى الآن مرغوبة أكثر من باقي الأحياء السكنية بالرغم من زوال بساتين المشمش والحدائق في الوقت الحالي. ومـع هـذا التوسع العمـراني الحديث فقـد اختفت جميع معـالم وآثار المنزل الذي سكن فيه آل بيرتون، لكن من المعتقد أن موقعه القديم كان بالقرب من المستشفى الإيطالي الموجود حالياً.

يبـين وصـف إيزابيل بيرتـون بأن مخطـط ذلك المنـزل كان على الطراز الدمشقي التقليدي. وقالت لقرائها «أود أن أصطحبكم في جولة لداري التي أرى بأنها هـادئة نسبياً. تدخلون في البداية إلى باحة مربعة ومطلية بخطوط عريضة بالأحمر والأبيض والأزرق، وتنتشر في أرجائها أشجـار البرتقال والليمون والياسمين بينما تتوسطها بحرة فوارة، لكن أروع مـا فيها هو الليوان الـذي يشكل غرفة مفتوحة بالكامل على أرض الديـار وبمنسوب أعلى منها. وأرض هـذا الليوان مفروشـة بالسجاد والأرائـك الطويلة. والعـادة هنا تقتضي استقبـال الضيوف في الليوان أيام الحرّ وتقدم لهم القهوة أو عصير الليمون أو شراب الفواكه البارد والنـارجيلة والسجائر. أما غرفة طعامنا فهي موجودة على أحد جانبي البـاحة بينما تقع غرفة الجلوس في الجانب الآخر منها. تستعمل هذه الغرفـة البـاردة عندما تصبح المعيشـة في الطابق العلوي غير مستحبة أيام الحـر الشديد. يضم الطابق العلوي سـت غرف وهي موزعة على امتداد طرفي باحة المنزل.».

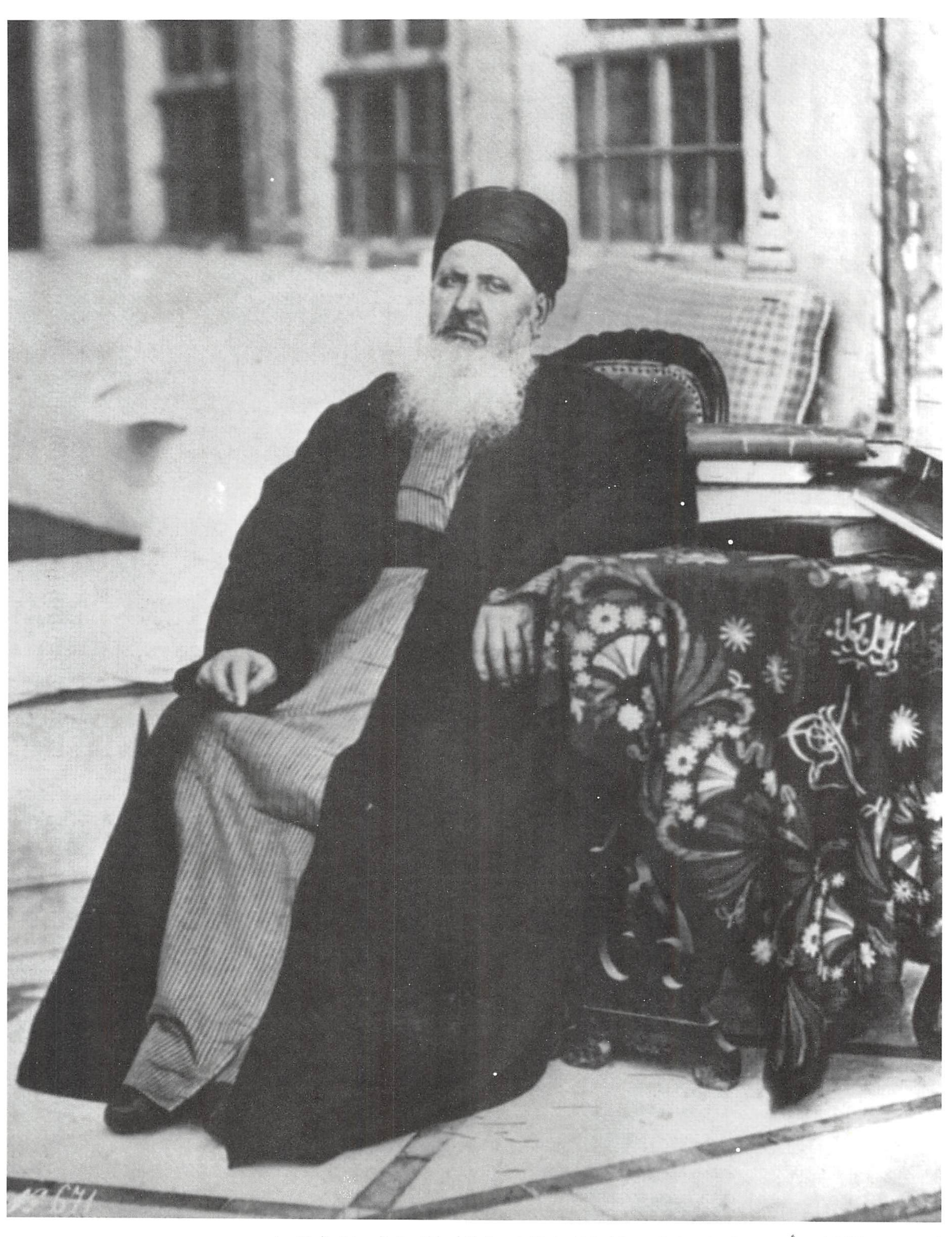
اعتـادت جين ديغبي زيارة إيزابيل على نحـو متكرر وتناول العشاء عندهـا في أغلب الأحيـان. وكانت تساعدها أيضـاً في إقامة الحفلات الرسمية كل أربعاء لاستقبال رجال الكنيسة والمسؤولين الأتراك والأعيان وأعضاء السلك القنصلي والمبشرين الدينيين. كانت استضافة النساء تجري في مـكان منفصل عن الرجال بينما تجزء السيدة بيرتون وقتها بين المجموعتين للترحيب بهم مرتدية ثوب الزيارات المعتاد في لندن.

مـن ناحية ثانيـة كانـت إيزابيل تبلي بـلاء حسنـاً في الحي الذي تقطنـه حيث حاولت أن تتعلـم العربية وكانت تزور نساء الحي في قسم الحرملـك بديارهـن بالإضافـة إلى الذهـاب إلى الحمـام العمومي. وعندما عادت إيزابيل إلى إنكلترا افتقدت للحمام الذي اعتادت زيارته في دمشـق فقررت الذهـاب إلى الحمامات التركيـة الموجودة في شارع «جيرمـن» بلندن، واصطحبت معها خادمتهـا السورية التي قالت بأنها شعرت بالدفء لأول مرة منذ مجيئها إلى إنكلترا. لكن إيزابيل وجدت بـأن الحمامـات الموجودة في شارع «جيرمن» ليسـت سوى تقليد ساخر للحمامـات الحقيقية الموجـودة في الشرق لأن الحـرارة في الحمامات التركيـة كانت لا تطاق ويعوزهـا الارتفاع التدريجـي، كما كانت غرف الحمـام مزدحمة وتفتقر إلى الجو المريـح والفاخر. أما في الحمامات الحقيقيـة الموجـودة في دمشـق، كمـا وصفـت السيـدة بيرتـون «كان الاغتسـال يستغرق أربع ساعات تقريبـاً تنتقل خلالها من غرف دافئة إلى غـرف ذات حرارة أعلى، ثم تفرك وتنظف بواسطة قطعة لباد من أليـاف صفراء مصنوعة من سعف النخيل ويُسكـب بعدها الماء البارد عليك بغزارة ثم تنظف بالصابون مجدداً وينتهي بك الأمر إلى الغرفة البـاردة ويُلف رأسك بمنشفة بـاردة أيضاً ويُقدم لـك عصير الفواكه المثلج قبل أن تعـاود الكرة وتبدأ الاغتسال من جديد. نعـود الآن إلى الغرفة التي خلعنا فيها ثيابنا أول الأمر حيث يلفوننا بثياب من الحرير والصوف ثم نضطجع للاسترخاء على الأرائك. المكان من حولنا مليء بالأزهـار والورود بينمـا يحترق البخور ليعطر الجـو برائحة زكية، ثم يقدمـون لنـا فناجين مـن القهوة المـرّة وندخن النارجيلـة. ثم تقترب منك سيدة لتدلـك جسدك وكأنك قطعة من العجين فتغمضين عينيك نائمـة خـلال هذا التدليك المريح ثـم تستيقظين على أنغـام الموسيقى والرقـص وأصـوات الفتيات وهن يطـاردن بعضهـن بعضـا، فتتناولين الحلويـات اللذيـذة وتكسريـن قشـور الجوز لتأكلـي اللـب وتستمتعي بكل ألـوان المرح والتسليـة». شعرت السيدة بيرتـون بالارتياح لأنها لم تكن مضطـرة للتجميل بالحنـاء وإزالة الشعر بواسطـة الشمع بما أن الدمشقيـات اعتدن إزالـة شعر أجسادهـن بالكامل وأحيانـاً التزيين بالوشم. وأضافت إيزابيل قائلة «يبدو لي بأن الطبقة الأولى من الجلد قـد أزيلت بالكامـل.. ويشعر المرء بأنه أصبح خفيفـاً بعد الاغتسال في هذه الحمامـات ويصبح الجلد أيضاً ناعماً وجميـلاً». (مازالت زيارة الحمـام العمومي في دمشـق توفر متعة مشابهة تستغـرق عدة ساعات ولكن بترف أقل من السابق).



استمتعت إيزابيل بيرتون بزيارة الحمام العمومي. تبين الصورة السقف المقنطر في أحد الحمامات الشهيرة في سوق الخياطين الذي يعج الآن بالمحلات التجارية.





الدكتـور مشاقة، كاتب وأديـب حظي باحترام كبير، وكان القنصل الفخري للولايات المتحدة في دمشق في منتصف القـرن التاسـع عشر وكان رجـلاً مسيحياً كمعظـم الأشخاص الذيـن وقع عليهم اختيـار الـدول الأجنبية لتمثيل مصالحها في دمشق.

كانت السيدة بيرتون تقضي معظم أوقاتها بالعناية بشؤون المنزل والاهتمام بالحيوانات التي تقوم بتربيتها ضمن حدود الدار. فقد اشترت جملاً وحماراً أبيض اللون بغرض الركوب عليه. كانت هناك بعض الأمكنة التي يحظر فيها على الأجانب ركوب الخيل وهذا ما أثار استياء بعض الرحالة والمسافرين، أمثال (هنري موندريل) الذي زار سورية عام ١٦٩٧ حيث ذكر بعد جولة قام بها في بعض الحدائق المحيطة بدمشق قائلاً «إن الإفرنج مرغمون على التنقل إما سيراً على الأقدام أو ركوب الحمير لأن عجرفة الأتراك لا تسمح للإفرنجيين بركوب الخيل». لكن (موندريل) نصح قراءه بعدم التذمر من هذا الأمر وإنما التفكير به كوسيلة استجمام. أحضرت إيزابيل معها عندما جاءت من إنكلترا إلى دمشق خمسة كلاب — أحدها من فصيلة «سينت برنارد» — ثم أضافت إليها جرواً وهرة عجمية بيضاء وثلاثة من رؤوس الماعز المنتجة للحليب وقفصاً كبيراً يحتوي على مختلف أنواع الطيور والحمام. كما قدم بعض الأصدقاء عدداً آخر من الحيوانات كهدايا لآل بيرتون: حمل صغير وشبل نمر (نفق فيما بعد مسموماً). علاوة على ذلك، قامت إيزابيل بزراعة حدائق الخضراوات والزهور التابعة للمنزل ببذور إنكليزية. ولكن سرعان ما حصلت بعض المشكلات. فالحمام والدجاج أكلت البذور، والهرة افترست الحمام والدجاج، والكلاب بدأت بمطاردة تلك الهرة وإخافتها، أما شبل النمر فقد قضى على الحمل الصغير وأرهق الماعز بهجماته المتكررة وأثار ذعر الخيول والجمل والحمار.».

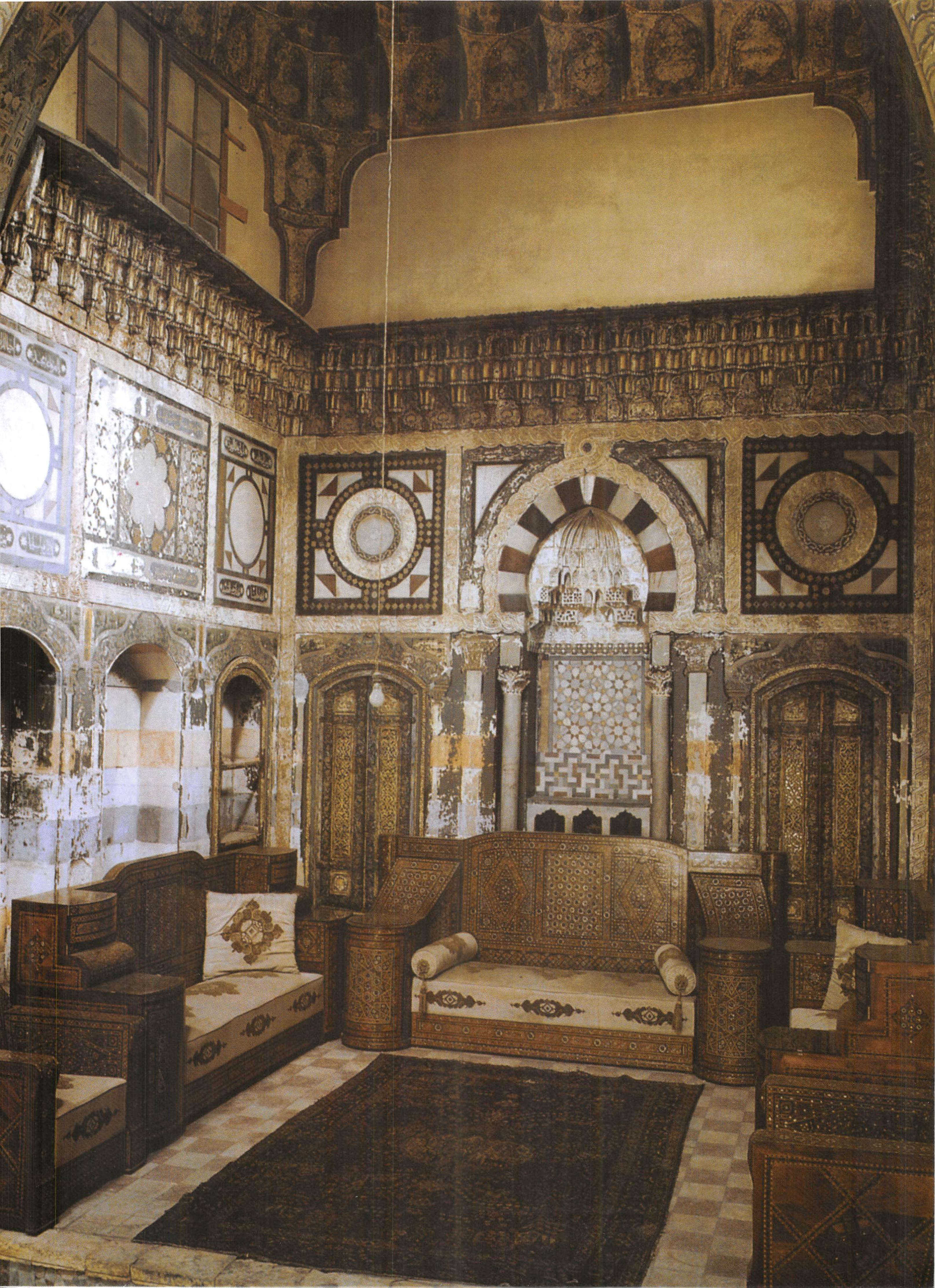
بالرغم من تلك المخاطر المنزلية إلا أن إيزابيل وزوجها عشقا الحياة في دمشق لاسيما في ظل منزلهما الصيفي في جبال بلودان (هُدم المنزل عام ١٩٩٤)، بالإضافة إلى منزلهما في حي الصالحية ومقر العمل الرسمي في أكبر القنصليات الأجنبية المعتمدة في دمشق. في الواقع أن إيزابيل كانت موجودة في منزل بلودان الصيفي عندما جاءها مراسل من دمشق حاملاً رسالة من زوجها فيها الكلمات التالية «لا تقلقي.. لقد تم استدعائي للعودة إلى لندن. سددي أية التزامات مالية مترتبة عليك واحزمي أمتعتك والحقي بي إلى إنكلترا في الوقت الذي يناسبك» لقد أثار القنصل البريطاني ريتشارد بيرتون حنق بعض أفراد الجالية اليهودية لأنه لم يتغاض عن إقراضهم المال للفلاحين الفقراء بفوائد ابتزازية فاحشة، كما أنه تشاجر مع زوج من المبشرين «الهواة» — السيد (موت) وزوجته — وانتقدهما انتقاداً لاذعاً بسبب توزيع الكراسات الدينية المسيحية للمسلمين، بالإضافة إلى أن الوالي التركي كان يرتاب من شخصية (ريتشارد) ويخشى منه. ويبدو بأن الأطراف الثلاثة قد اتفقت فيما بينها على إثارة المتاعب ضده مما أدى بالفعل إلى استدعائه للعودة إلى لندن. انفطر قلب إيزابيل لهذا النبأ ووصفت ظهيرة اليوم الذي ذهبت فيه بنزهة إلى الجبل المطل على مدينة دمشق قبل أن تعصف بزوجها تلك التطورات السياسية قائلة «إنه آخر يوم سعيد في حياتي».»..

عندما كان آل بيرتون في سورية ضم السلك القنصلي المعتمد لديها ممثلين عن الحكومات الفرنسية والروسية والبروسية والنمساوية والإيطالية واليونانية والإسبانية والفارسية والأمريكية، وبالطبع البريطانية. وقد تحدثت إيزابيل عن هذه النقطة قائلة: «في مكان كدمشق، نحن لسنا بريطانيين أو فرنسيين أو بروسيين وإنما ببساطة نحن أوروبيون وهذا ما يتطلب منا أن نتكاتف مع بعضنا البعض لكن ذلك لم يتحقق لأن المشكلة في المجتمع الأوروبي أنه ينقسم إلى زمر تتمثل في المبشرين والأنظمة الدينية والسلك القنصلي». ومع ذلك يبدو بأن إيزابيل كانت تشعر بالمودة والمحبة نحو القنصل الإيطالي (السنيور كاستيللي) وزوجته.

لم تضع إيزابيل بيرتون في حسبانها المبشرين الدينيين على أنهم من الجالية الأجنبية الموجودة في دمشق مع أنه في الواقع كانت هناك أسرتان بريطانيتان وواحدة أمريكية (جميعها منسوبة للكنيسة المشيخية البروتستانتية)، بالإضافة إلى المبشر (موت) وزوجته (وهما من تشاجر مع «ريتشارد بيرتون») اللذين توليا شؤون المدرسة السورية البريطانية. أنشئت هذه المدرسة على يد السيدة (باوين تومبسون)، شقيقة السيدة (موت)، وهي أرملة تأثرت بفعل قصص مذبحة المسيحيين المروعة مما دفع بها إلى القدوم إلى سورية لعرض خدماتها. لا تزال المدرسة السورية البريطانية، المعروفة الآن باسم مدرسة القديس بولس، في منطقة باب توما لكنها تحولت إلى مدرسة للاجئين القادمين من القنيطرة. هذه المدرسة مبنية على الطراز الدمشقي التقليدي وقد كُتب على البحرة الفوارة الموجودة في الباحة الرئيسية عبارة بالخط القوطي الفكتوري « تقدمة المعلمة المبجلة موت».

كان القنصل الفارسي أهم أعضاء السلك القنصلي المعتمد في دمشق. وطبقاً لما ذكرته إيزابيل فإنه كان في التسعين من عمره لكنه يبدو في الأربعين فقط. وكان يتمتع بشخصية يهابها الجميع بمن فيهم الوالي ومسؤوليه. اتخذ ذلك القنصل من بيت شيرازي الرائع مقراً لعمله الرسمي. (لا يزال الأبناء المتحدرون من آل شيرازي إلى الآن يشغلون المنزل.) يضم بيت شيرازي باحة كبيرة مرصوفة بالحجر وبحرة فوارة (فسقية) على شكل متاهة و«قاعة» استقبال مؤلفة من ثلاثة «مجالس»، بالإضافة إلى سقوف جميلة ملونة ومزينة بالرسوم وجدران مزخرفة بالمقرنصات البديعة، علماً بأن الأعمال الزخرفية الحجرية في بيت شيرازي يعود تاريخها إلى ١٧٦٥.

عندما وصل آل بيرتون إلى دمشق، كان نائب القنصل الأمريكي رجلاً سورياً يدعى الدكتور مشاقة وكان يحظى باحترام الجميع ورضى المبشرين الدينيين، خصوصاً بعد أن بدّل مذهبه الأرثوذكسي اليوناني إلى الكنيسة المشيخية البروتستانتية. ومن الجدير بالذكر أن الدكتور مشاقة نجا بأعجوبة من مذبحة المسيحيين. إن المنزل الذي كان مقر القنصلية الأمريكية مازال قائماً إلى الآن في منطقة باب توما لكنه بحالة سيئة وبحاجة ماسة للترميم. عندما تقاعد الدكتور مشاقة عام ١٨٧٠ عن مهامه في تمثيل الولايات المتحدة، تسلم ابنه ناصيف، الذي كان يعمل ترجمان دليل لدى القنصلية البريطانية، منصب والده. لقد استخدمت جميع القنصليات موظفين بمهام «ترجمان



دليـل» و«حراس». كان «الترجمان الدليل»، الذي تميز عادة بارتداء زيّ غريب وجميـل، يتقن مهارات مختلفة، حيث كان يؤدي مهام المترجم والسكرتـير والدليـل، علاوة على إلمامه بجميع السبـل اللازمة لتسيير الأمـور علـى نحو سريع وفعـال. لم يكن معظم أبنـاء مهنة «الترجمان الدليـل» يتقاضون راتبـاً أو أجراً علـى جهودهم وإنمـا كانوا يمتهنون هـذه المهنة سعيـاً منهـم وراء المنزلـة الاجتماعية المتميـزة والحماية التـي يوفرها هكـذا عمل. بعـث القنصل البريطـاني (كيربي غرين) عـام ١٨٧٢ برسالـة إلى لنـدن يشكو فيهـا أن مخصصاتـه لا تتيح له استئجار «ترجمان دليل» بمرتب شهري وبأن تلك المخصصات لا تكفي لتسديـد أجرة المنزل، مشيراً إلى أن القنصليـة الفرنسية لديها ثلاثة موظفـين عاملين كترجمـان دليل، اثنان منهما مأجـوران بينما الثالث يعمل طوعاً دون مقابل. قد يكون «الترجمان الدليل» أجنبياً، كما حصل عندمـا استخدمـت قنصلية الولايات المتحدة في دمشـق في سبعينيات القـرن التاسع عشر ترجمانـاً أمريكيـاً يدعى (رولا فلويد). أما بالنسبة للحراس الشخصيين فكلمـا ازداد عدد المستخدمين منهم في قنصلية مـا، ازدادت هيبة القنصل. فالقنصل البريطاني (كيربي غرين) كان لديه ثلاثة حراس بينما وظف القنصل الفرنسي خمسة منهم لحراسته من أجل تعزيز مكانته أمام الأهالي والمسؤولين التابعين للحاكم.

اتخـذت القنصليـة الإيطاليـة في تلك الفـترة تقريبـاً بيـت شامية (الـذي تحول الآن إلى دير) الواقـع في المنطقة المسيحية مقراً لمكاتبها في دمشق. أما القنصلية النمساوية فاستقرت في بيت شاوي، الذي يقع علـى يسار الشارع المستقيم. ويتميز ذلك المنزل بجمال نافذته البارزة (المشرفة)، التي أصبحـت الآن بحالة سيئة. في غضون ذلك، افتتحت القنصلية الإسبانية مكاتبها في البيت الإسباني، وهو المكان الذي مكث فيـه كل مـن (والزينغـر) و(واتزينغر) عـام ١٩١٧، وحيث عُلق فيه شعار النبالـة الإسباني المنحوت في الحجر علـى مدخل المنزل (ويطل الآن علـى ورشة أحـد النجارين المحاذية للمنـزل). وحسب ما ورد في الخريطـة المنشورة في «دليل مكتبة هاشيت: الشرق وسورية وفلسطين» الصـادر عام ١٨٩٠، كانـت القنصلية الفرنسيـة في تلك الفترة تشغل بيت نظام (دار علي آغا).

لقد رسـم جوسياس بورتر، الذي تعرف علـى مدينة دمشق بشكل جيـد في خمسينيـات القـرن التاسع عشـر، خريطة لدمشـق القديمة ووضـع علامة على منـزل (معروف الآن ببيت القوتلـي) تشير إلى أنه مقـر القنصلية البريطانية. في الواقع إن بيت القوتلي ليس سوى قصر فخم له باحة رئيسية واسعة جداً بالإضافة إلى عدة باحات ثانوية أصغر مساحة، وغرف عديدة بكسوة خشبيـة جميلة و«قاعة» جدرانها مزينة برسـوم وزخارف ملونة (النباتي) يعود تاريـخ صنعها إلى عام ١٨٣٧. ولكن للأسف الشديد فإن هـذا القصر تشترك في سكنه الآن عائلات كثـيرة بالإضافة إلى تأجير جزء منه كمستـودع للورق. لكن القنصلية البريطانيـة انتقلت إلى موقع آخر في فترة لاحقـة لأن إيز ابيل بيرتون حددت في كتابها عام ١٨٧٠ مكان مكتب زوجها القنصل أنه يقع خارج سـور المدينة القديمة بالقرب من سوق الخيل الذي كان في ذلك الزمن يشغـل ساحة المرجة. ثم انتقلت بعدها القنصلية البريطانية إلى مكان آخر غير معروف بالضبط مع أن إحدى الصور التي التقطها (بونفيس) في سبعينيـات القرن التاسـع عشر لبيت نظام كُتـب عليها «القنصلية البريطانيـة». لكن (بونفيسـ) كان معروفاً عنه ارتكاب بعض الأخطاء الـواردة في التعليقات أو الحواشي المضافـة إلى الصور الفوتوغرافية، ولعل الصورة المشـار إليها كانت من جملة هذه الأخطاء. وبعد الحرب العالميـة الأولى اتخـذت القنصلية البريطانية أحد المنـازل الواقعة في منطقـة الحلبوني مقـراً لها بالقرب من محطة القطـار. ويذكر السير (ريتشـارد بيومونـت)، الذي كان نائب القنصـل البريطاني في دمشق مـن ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥، بأن رئيس الـوزراء السوري ووزير خارجيته كانا مـن ضيوف حفل أقيم بمناسبة عيـد ميلاد رأس السنة الجديدة حيث اشـترك كلاهما في أداء رقصة «مشية الحمـل» التي كانت رائجة جداً في إنكلترا في تلك الفترة.

إن قصة عائلة (بونفيس) والصور الفوتوغرافية التي التقطتها تعد قصـة مثيرة بالفعل. يُقال بأن (بونفيسـ) الأصلي كان مصوراً حربياً فرنسيـاً وصل إلى بيروت مع القوات الفرنسيـة التي أرسلت في أعقاب مذبحة المسيحيين في دمشق عام ١٨٦٠، وذلك تحسباً لأية اضطرابات أخـرى. عندما انتهت مهمة تلك القوات، قـرر (بونفيس) عدم العودة إلى فرنسا وأنشـأ استوديو للتصوير الفوتوغرافي في بيروت حيث شكل



الصـورة في الصفحـة السابقـة: بيـت شيرازي الرائع كان مقراً لقنصليات بلاد فارس حتى حلول القرن العشرين.

الصـورة في الأعلى: شرفـة الطابق الأول في المدرسة السوريـة البريطانية (مدرسة القنيطرة).

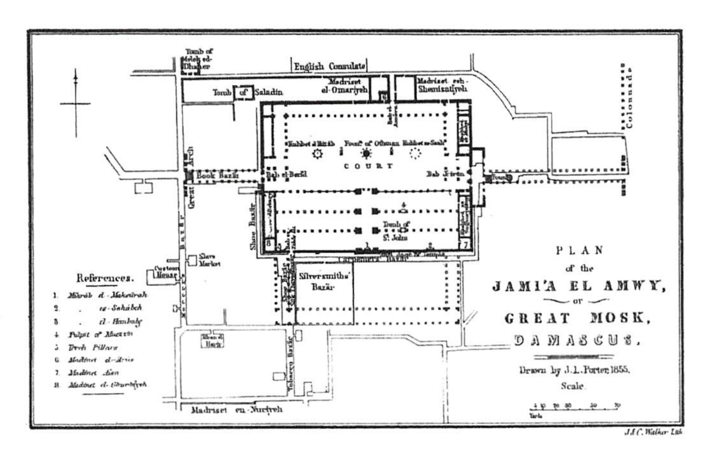
الصـورة في الصفحة التالية: بيت القوتلي كان مقـراً للقنصلية البريطانيـة في منتصـف القرن التاسع عشـر، وهو منزل ضخـم يضم عدة باحـات وفيه الكثير من فنون الزخرفة التزيينية.





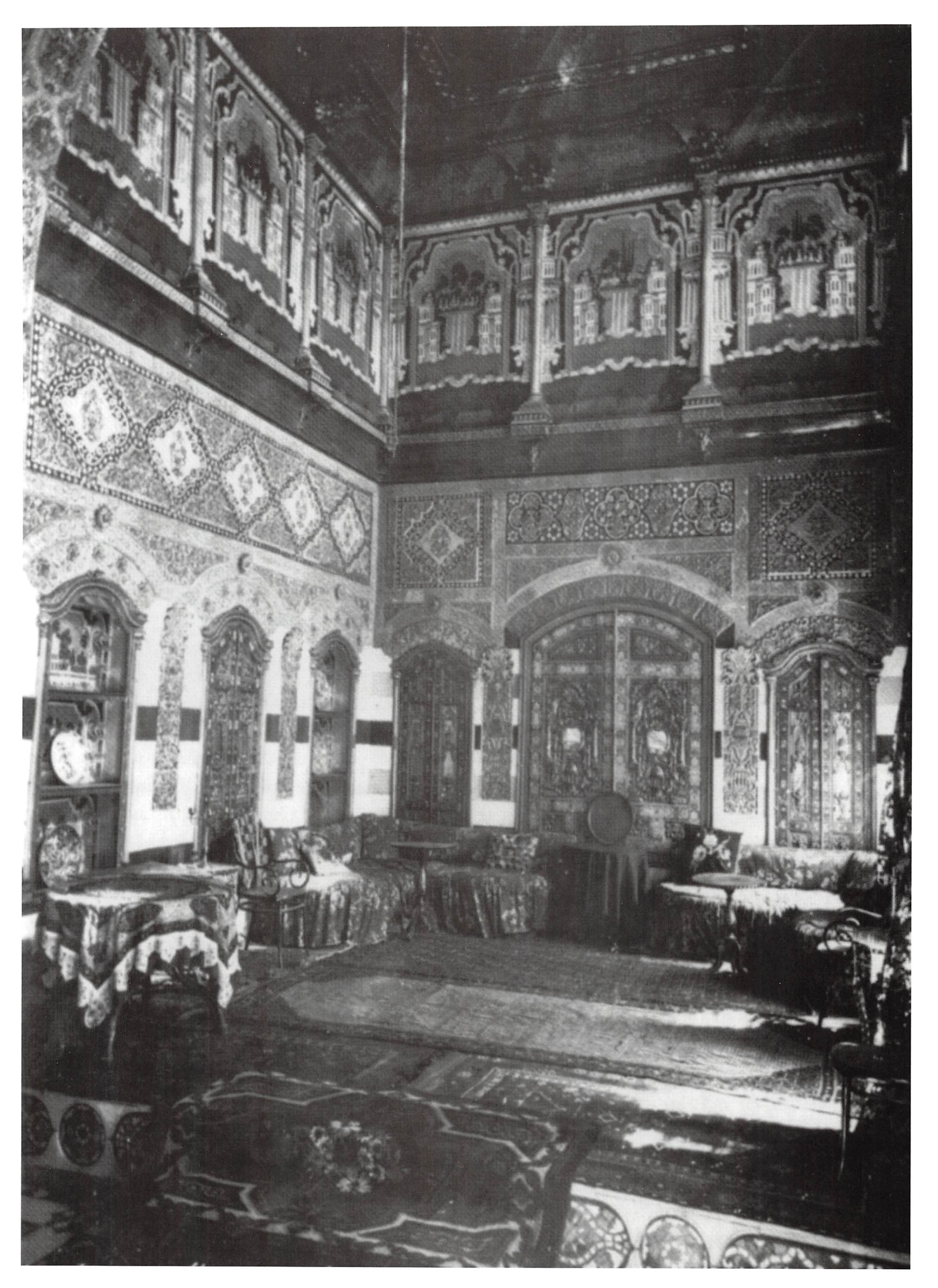
واحـدة من أنجح الشركات لاسيمـا أن أفراد أسرة (بونفيس) – الأب والأم والابـن – كانوا جميعـاً يعملون في مجال التصويـر الفوتوغرافي وقاموا بالتقاط ما يقارب من ثلاثة آلاف صورة للشرق الأوسط.

عـادت عائلـة (بونفيس) إلى فرنسـا عام ١٩٠٧. لكـن القصة لم تتوقف عند ذلك الحد بل انتقلت أحداثها إلى الولايات المتحدة. فعندما تأسس المتحف السامي في هارفارد عام ١٨٨٩، بدأ المدير الأول للمتحف (ديفيد ليون) بجمع الصور الفوتوغرافية المأخوذة في الشرق الأوسط بشكل عام والأرض المقدسة بشكل خاص، وذلك عن طريق شرائها من وكلاء الاستوديوهـات التجارية الكبيرة، بما فيها استوديو (بونفيس). ولكـن بحلول ثلاثينيات القرن العشرين فترت همة المتحف، ثم وضعت مجموعـات الصور هذه على سقيفة المتحف عند اندلاع الحرب العالمية الثانيـة. جرى تأجير الطابـق العلوي من مبنى المتحـف لصالح مركز الشـؤون الدولية وسرعان ما نسي الجميع بأن مجموعات الصور كانت موجـودة بالأصل ومرت سنوات عديدة إلى أن أصبح (هنري كسنجر) عضـواً في زمالة المركز واحتفظ لنفسه بمكتـب داخل المركز. وفي عام ١٩٧٠ في زمن الحرب الفيتنامية عندما كان (كسنجر) مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي، حاولت سيدتان متطرفتان اغتيال (كسنجر) عن طريق تفجير قنبلة أمام مبنى المركز المذكور لكن الانفجار لم يسفر عـن أية ضحايا وإنما أحدث فجـوة في سقف المركز. وعند التحقيق في الأضـرار الناجمـة عن الانفجـار، اكتشفت الصور المخبـأة في سقيفة



الصـورة في الأعلـى: المخطـط الـذي أعـده جوسياس بورتـر للجامـع الأمـوي والأماكن المحيطة به، بما فيها القنصلية البريطانية.

الصورة في اليمين والصورة المقابلة: صورتين بعدسة (بونفيس) لقاعة الاستقبال الرئيسية في بيت نظام مأخوذتـان في سبعينيات القرن التاسـع عشـر، لكـن التعليق المضـاف علـى الصورتين باللغـة الفرنسية أشار بالخطأ إلى أن هذا المنزل كان مقر القنصلية البريطانية



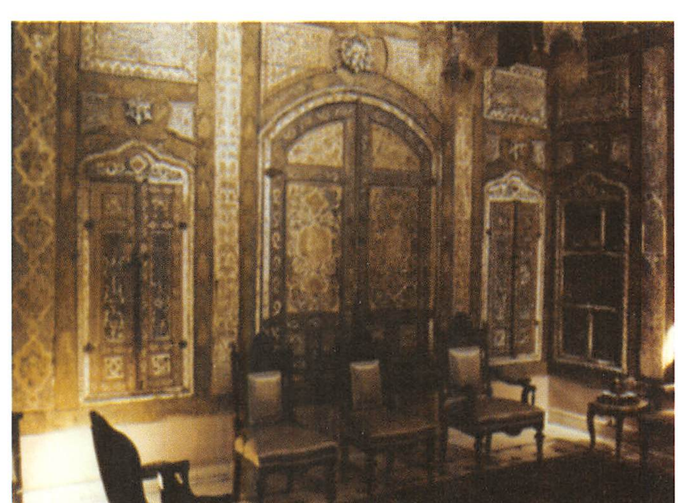
الصورة في اليمين: صورة التقطها (بونفيس) لبيت شامية، وهو من البيوت المسيحية الشهيرة في دمشق، في سبعينيات القرن التاسع عشر.

الصورة اليسارية في الأسفل: مسقط جانبي لشارع في منطقة القنوات خارج سور دمشق القديمة.

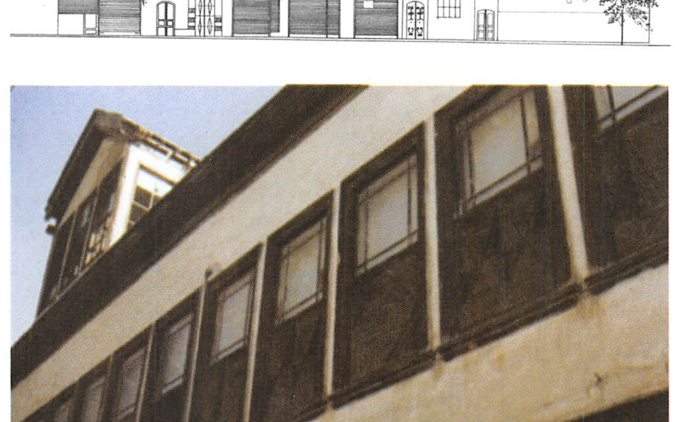
الصورة اليمينية في الأسفل: قاعة الاستقبال المزودة بكسوة خشبية جميلة في بيت العبد بسوق ساروجة.

الصورة اليسارية في الأسفل: الواجهة الرائعة المبنية على الطراز الأوروبي لبيت يغمور في القنوات.









المتحف. وفي الحقيقة تعد هذه المجموعات من الصور سجلاً لا يقدر بثمن عن البيوت العربية والشوارع والآثار الموجودة في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر. ولا غرو أن (بونفيس) لم يلتقط الصور لأي دار كبيرة من دور المسلمين وإنما اقتصرت جهوده على تصوير القنصليات الغربية والبيوت المسيحية واليهودية ولعل السبب في ذلك أن مواضيع تلك الصور قد تكون أسهل للوصول إلى الأجانب حسب اعتقاده.

لقد بدأت دمشق القديمة بالتوسع والزحف العمراني خارج سور المدينة القديمة الذي يحيط بها من كل الجوانب في زمن مبكر. فقرية الصالحية أنشئت في القرن الثاني عشر بمحاذاة سور المدينة على يد اللاجئين المسلمين من حمام الدم الذي ارتكبه الصليبيون خلال اجتياحهم للقدس. وفي عام ١٦٧٥ نشطت الحركة على الطريق الذي ربط الصالحية بدمشق مما جعل السلطات حينذاك تشرع في تعبيده. وبعد عامين تقريباً أفاد القنصل الفرنسي في حلب بأن «معظم سكان دمشق بدؤوا باقتناء بيوت صيفية في منطقة الصالحية التي وصل عدد سكانها إلى ١٥ ألف نسمة في الزمن الذي اتخذ فيه ريتشارد وإيزابيل بيرتون مقراً لإقامتهما هناك.

لا تبعد منطقة القنوات سوى خطوات قليلة عن حدود دمشق القديمة، وهي منطقة أنشئت حول القناة الرومانية التي كانت تجرّ الماء إلى المدينة القديمة. وبما أن القنوات منطقة قريبة وفي ذات الوقت خارج سور المدينة، فقد كانت مكاناً مفضلاً للمسؤولين المماليك والعثمانيين كما كان سوق ساروجة غرب السور أيضاً. ومن الجدير بالذكر أن سوق ساروجة كان في وقت من الأوقات مقتصراً على بساتين من الورود المزروعة من أجل استخلاص زيوتها. كما انتشرت على أرضها القبور والمدافن لكنها أصبحت تعج بالموظفين المدنيين والعسكريين العثمانيين في القرن التاسع عشر لدرجة بات يُعرف فيها سوق ساروجة باسم «استنبول الصغيرة».

أما قرية الميدان فكانت تشبه الشريط الممتد على طول الطريق من الجهة الجنوبية للمدينة القديمة، وقد شكلت مصدراً لتجارة الحبوب والمواشي التي تزود دمشق بالغذاء. كما كانت الميدان الطريق الذي يسلكه آلاف الحجاج كل عام للانطلاق في رحلتهم إلى مكة المكرمة، وهذا ما جعل الميدان منطقة يحبذها الأثرياء وأصحاب النفوذ للقيام بنشاطاتهم التجارية وأعمالهم الرابحة وخصوصاً في العهد المملوكي حيث اصطفت على جانبي طريق الميدان الجوامع والمدارس والحمامات العمومية والمقابر ودور الأيتام وغيرها من المنشآت التي يستفيد منها الحجاج.

ومع مرور الزمن باتت الميدان تعرف بأنها منطقة متعصبة دينياً بل ورجعية أيضاً وهذا على الأرجح ما دفع بعائلة العبد في منتصف القرن التاسع عشر لتشييد قصر آخر في منطقة سوق ساروجة التي يُعدّ بناؤها أحدث من عمارات الميدان. كانت عائلة العبد عشيرة قوية ولكن في عام ١٨٥٠ رزقت العائلة بفرد جديد سُمي أحمد عزت العبد ما لبث أن ارتقى سلم المجد في الإمبراطورية العثمانية عندما أصبح شاباً حيث شغل منصب سكرتير السلطان وأصبح بذلك ثاني أقوى رجل في الإمبراطورية بأسرها وتعاظم نفوذه يوماً بعد الآخر. وقد وصفته الرحالة البريطانية (غيرترود بيل) بأنه «الظل الأعظم لعرش القسطنطينية». وطبقاً لما ورد في تقرير أعدته أجهزة المخابرات البريطانية في بداية الحرب العالمية الأولى، كان عزت باشا المرشح المحتمل ليصبح ملكاً على سورية في حال نجاح الثورة العربية — مع أن البريطانيين حرصوا على عدم تحقيق هذا الأمر بما أن التقرير وصف عزت باشا بأنه مخادع كبير وغير متدين ولا يؤمَن جانبه. ومع ذلك شغل عزت باشا منصب الوزير الأول في تركيا في نهاية الحرب وتولى إدارة مفاوضات الهدنة. لكن جنرالاً عسكرياً من أصل نمساوي — هنغاري على معرفة وثيقة بعزت باشا كان له نظرة مختلفة حيث وصفه بأنه يتمتع بشخصية الفرسان ويحظى باحترام وتقدير كبيرين.

مازال القصران التابعان لآل العبد قائمين في موضعهما إلى الآن ولكن بحالة يرثى لها. يحتوي قصر العبد الموجود في الميدان على ثلاث باحات كبيرة وما لا يقل عن ست قاعات مزينة بأفخر الزخارف تقتسمها الآن عدة عائلات. لكن معظم الكسوة الخشبية المزخرفة والتزيين قد أزيل نهائياً عن تلك القاعات باستثناء إطار بديع الشكل (حشوة) مزين بزخارف ملونة (النباتي) نُقش عليه «١٧٤٥» للدلالة على تاريخ تأثيث القصر بتلك الكسوة التزينية. أما المنزل الكبير الثاني الذي امتلكته أسرة العبد والواقع في سوق ساروجة فهو يضم أيضاً ثلاث باحات فسيحة لحق الخراب بإحداها بفعل حريق كبير لكن المبنى بشكل عام مازال بديع المنظر.

في نهاية القرن التاسع عشر توسعت تلك المناطق المبنية خارج دمشق القديمة وأصبح حجمها أكبر من المدينة القديمة نفسها داخل السور. لكن المباني الجديدة في هذا التوسع العمراني شيّدت جميعها على الطراز التقليدي. ثم ظهرت مرحلة جديدة مفاجئة في التطور حين بدأت عملية الإصلاحات والتنظيمات الشاملة في الإمبراطورية العثمانية التي تطلبت إقامة مبانٍ عامة خالية من أي طابع ديني لأول مرة في تاريخ دمشق: دار بلدية ومحكمة قضائية ودائرة شرطة وسجن ومبنى برلمان ومدارس غير دينية ومستشفيات. وبما أنه كان من المستحيل ومن غير المناسب أيضاً حشد كل تلك المباني داخل الأزقة الضيقة في المدينة القديمة، كان لابد من إنشاء حي أو منطقة جديدة تستوعب هذه المنشآت المستحدثة فظهرت ساحة المرجة إلى



صورة يعود تاريخها إلى مطلع القرن العشرين لأحمد عزت باشا العبد، «الظل الأعظم وراء عرش القسطنطينية».

حيز الوجود في الموضع الذي كان يشغله سابقاً سوق الخيل. وقد جرى بناء هذه الساحة على طراز مماثل تماماً لما هو موجود في إنكلترا أو فرنسا. وبالقرب من هذا الموقع أنشئ سوق جديد هو سوق الحميدية (الذي تعود تسميته إلى السلطان عبد الحميد) بتصميم هندسي تصطف فيه صالات العرض والدكاكين على جانبي طريق طولاني مقنطر ومغطى على غرار الأسواق الأوروبية حيث زودت شركة «كروب» الألمانية القناطر والعوارض المعدنية لتغطية سقف السوق.

جرى تعيين سلسلة من الولاة ذوي العقلية العصرية لحكم دمشق في تلك الفترة ومنهم مدحت باشا وهو المسؤول التركي الذي أعد الدستور لتركيا الجديدة. وصل مدحت باشا إلى دمشق عام ١٨٧٨ واستطاع خلال فترة حكمه القصيرة لهذه المدينة أن يعيد بناء سوق البزورية وجزء كبير من الشارع المستقيم لتصبح هذه الأمكنة على الحال الذي نراه اليوم. من الواضح أن هؤلاء الحكام الجدد لم يشعروا بالحنين إلى الأيام الخوالي أو إلى المدينة القديمة. فعثمان نوري باشا الذي عُين والياً على دمشق من ١٨٨٩ إلى ١٨٩٠ ثم من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٣ بنى لنفسه قصراً على الطراز الأوروبي في منطقة الصالحية تحيط به من كل جوانبه حديقة كبيرة غناء (تشغل السفارة الفرنسية ومنزل السفير حالياً هذا المبنى الضخم).

المنحوتات الحجرية الزخرفية

يبدو بأن الحرفيين وأصحاب الأيدي الماهرة في دمشق اعتادوا منذ أمد بعيد على نحت الحجارة والنقش عليها بسهولة وبراعة كما لو أنهم ينقشون على الخشب. ومن هذه الأعمال الفنية الفذة والاستثنائية في جمالها وروعتها – بدءاً من العهد الروماني إلى مرحلة الزخارف المفرطة في العهد العثماني – التي نفذها هؤلاء الحرفيون ما هو موجود في منطقة دمشق القديمة إما في موضعها الذي أنشئت فيه أصلاً أو أعيد استعمالها في مبانٍ شيّدت لاحقاً. لقد تفوق النحاتون والمزخرفون العاملون في مجال الأعمال الفنية الحجرية المعمارية في صنع الأشكال الهندسية الدقيقة جداً التي كان يتطلبها فن العمارة والتزيين المملوكي. ثم أنتج هؤلاء الحرفيون المهرة تحفاً رائعة في تزيين (أو إعادة تزيين) بعض البيوت الدمشقية بأسلوب الركوك الذي يتميز بالزخرفة الفنية البالغة في القرن التاسع عشر.



الصورة في الأعلى: وردة رخامية منحوتة على باب من الرخام في بيت البارودي.

الصورة في الصفحة المقابلة: زخرفة حجرية مملوكية على واجهة حمام التيروزي.

الصورة في الصفحة المقابلة في الأسفل: قرص حجري مزخرف على طوق أو حاشية أحد الأبواب في مكتب عنبر.





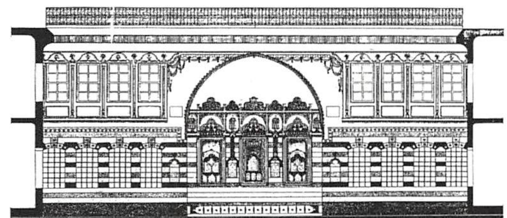
المنحوتات الحجرية الزخرفية

الصورة في الصفحة السابقة: زخرفة حجرية معقدة ودقيقة على جدار الليوان في بيت لشبونة.

الصورة في اليمين: لقطة مقربة لتنزيل الصدف بالحجر في ليوان بيت لشبونة.

الصورة في الأسفل: مخطط معماري لواجهة الليوان المفرطة بالتزيين والزخارف في بيت لشبونة.





المنحوتات الحجرية الزخرفية





الصورة في الصفحة السابقة: مصبّ على شكل محراب منحوت في الحجر ومرصع بالزخارف الملونة (النباتي) يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر.

الصورة في الأعلى: قطعة من فاكهة الأناناس منحوتة بعناية ودقة على الحجر بالإضافة إلى زخارف عربية (أرابسك) منحوتة على الحجر في بيت نظام.

الصورة في الأسفل: لقطة مقربة للزخرفة الحجرية في بيت لشبونة – كانت الستائر المفتوحة من المواضيع الفنية المفضلة في الزخرفة.

في الحقيقة إن تصميم قصر عثمان نوري باشا لا يمت بصلة إلى البيوت الدمشقية القديمة (إلا أنه وبعد مرور مئة عام، أي في تسعينيات القرن العشرين، قام السفير الفرنسي بتزيين ثلاث من غرف المبنى بواسطة كسوة خشبية مزخرفة مأخوذة من البيوت الشامية القديمة). وقد سكن الملك فيصل في هذا المنزل من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠.

عاش الملك فيصل خلال فترة حكمه القصيرة لسورية – قبل الاحتلال الفرنسي – في هذا المنزل من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠، ثم انتقل إلى قصر رائع بناه حاكم آخر من أصحاب الأفكار العصرية يدعى (ناظم باشا) كان والياً على دمشق من ١٨٩٥ ولغاية ١٩٠٧ ثم عاد إلى حكمها مجدداً لسنوات قليلة فقط من ١٩٠٩ إلى ١٩١٢. ويمكن القول بأن تلك الفترة شهدت وصول كل الاختراعات الحديثة إلى دمشق، حيث بنيت فيها محطة القطار الذي ينطلق إلى مكة المكرمة بالإضافة إلى استحداث نظام جديد لتمديد الماء إلى منطقة دمشق القديمة من عين الفيجة ومد خطوط الحافلات الكهربائية (الترمواي) والبرق. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنه احتفالاً بربط استنبول ودمشق ومكة بشبكة التلغراف، نصب ذلك العمود الحجري المنحوت في وسط ساحة المرجة.

عندما جاء ناظم باشا إلى دمشق في المرة الأولى استأجر فيها بيت البارودي، إلا أنه سرعان ما بدأ ببناء قصر جديد لنفسه في حي المهاجرين، وهي منطقة ممتدة على سفوح جبل قاسيون ولم تستغل من قبل. وكالقصر الذي بناه عثمان نوري باشا، فإن قصر ناظم باشا كان مربع الشكل وله واجهة على الطراز الكلاسيكي الجديد وتحيط به حديقة كبيرة. ثم أصبح هذا المكان أحد القصور الرئاسية في سورية. تلقت (غيرترود بيل) دعوة لزيارة الوالي ناظم باشا في قصره وكتبت في ذلك «لقد مضى على وجود الوالي في دمشق ثمان سنوات ومن الواضح أنه قد قرر البقاء في دمشق ما لم يحدث له سوء، ويتضح ذلك من المنزل الضخم الذي بناه لنفسه وأضاف عليه حديقة رائعة ويبدو أن مخطط المنزل قد استحوذ على تفكيره وشتت انتباهه..».. ثم أخذها الباشا للتعرف إلى زوجته وأولاده «.. تبعت الباشا إلى الطابق العلوي حيث قادني إلى غرفة مشمسة ونوافذها مفتوحة على شرفة بإطلالة تستطيع أن ترى منها مدينة دمشق بأكملها وحدائقها والروابي الممتدة خلفها». ألقى الأطفال بعض القصائد باللغة الفرنسية وعزفوا البيانو ترحيباً بزائرتهم الإنكليزية، بينما وقف الباشا عند النافذة يبتسم لهم بابتهاج وغبطة. «أما زوجته الجركسية فكانت تدخن لفائف التبغ وتحني رأسها كلما نظرت في عينيها، وكان هناك عبد أسود يافع السن يقف عند باب الغرفة يبتسم ابتسامة عريضة جداً». وأثناء وجود (غيرترود بيل) في قصر الباشا جاء أحد أبناء عبد القادر الجزائري لزيارته. وتقول (غيرترود) بأن والدة ذلك الزائر الأسود كانت جارية سابقة لعبد القادر.

بعد فترة قصيرة من زيارة (غيرترود بيل) لدمشق أشار رحالة بريطاني آخر يدعى (جون كيلمان) بقوله «من المفترض أن يكون سوق الرقيق قد أصبح الآن لاغياً لكنك تستطع العثور عليه بالفعل إذا اهتديت إلى طريقه. ويقال بأن سعر الغلام الذي عُرض للبيع بالقرب من دمشق وصل إلى خمس خراف ونعجة». ففي الخريطة التي أعدها جوسياس بورتر لدمشق، فإن سوق الرقيق محدد بعلامة تشير إلى أنه يقع بالقرب من مدخل الجامع وبمحاذاة خان الجمرك. كما أدرج التقرير الإحصائي التجاري لسورية الذي أعده (جون باورينغ) عام ١٨٤٠ تجارة الرقيق إلى جانب تجارة الزجاج والورق والأقمشة الصوفية. لكن (كيلمان) ذكر بأن تجارة الرقيق ليست منتشرة بشكل واسع في سورية مشيراً بقوله «يمكن رؤية بعض الزنوج في عدد من البيوت الموسرة. وبشكل عام

الصورة في اليمين: قصر ناظم باشا الجديد بني على الطراز الأوروبي وقد زارت (غيرترود بيل) الوالي في قصره عام ١٩٠٥.

الصورة في الصفحة التالية: ساحة المرجة في مطلع القرن العشرين. نُصب العمود الذي يتوسط الساحة عام ١٩٠٥ احتفالاً بافتتاح خط ربط البرق بين استنبول ودمشق ومكة.



لـدى الأثرياء من المسلمين هنـاك عبد واحد مـن المخصيين على الأقل لكـن عملية الاستيراد السنـوي لهؤلاء الرقيق تكاد تكـون محدودة، كما أنها آخـذة في التضاؤل». لقد جاء هؤلاء الرقيـق الإفريقيون عبر مصر ونقلوا إلى دمشق مـن الإسكندرية. وبرأي (باورينغ) فإن الرقيق الذين انتهى بهم المطاف في دمشق كانوا محظوظين بالفعل لأنهم كانوا يتلقون المعاملة الجيـدة من أسيادهم ويستقر بهم الحـال على أفضل وجه بعد قضـاء فترة معينة مـن الخدمة. كان يدور قتال في تلـك الفترة في بلاد القوقـاز، وهي المنطقة التي جـاء منها الرقيق الأبيض المعروفين باسم المماليك، وهذا ما رفع أسعارهم حسب رأي (باورينغ) الذي أشار قائلاً «لقـد رأيت مملوكاً من أبناء جورجيا لا يتجـاوز العاشرة من العمر يُباع في نابلس بسعر ٧٠٠٠ قرش، أي ما يعادل سبعون جنيهاً إسترلينياً». كان (باوريـنـغ) يجد صعوبة بالغة في التوضيح لقرائه الإنكليز بأن الفرق بين العبـد الأبيض وسيده في الشـرق الأوسط كان بسيطاً جـداً لدرجة كان فيها المماليك متفوقين بمراحل كبيرة على أسيادهم.

افتتـح خط سكة الحديد الواصل إلى مكة عـام ١٩٠٨، لكن الحجاج في ذلـك الزمـن كانوا يستقلـون القطار مـن محطة القـدم في ضواحي دمشق التي تبدو اليوم وكأنها مقبرة ضخمة للقاطرات البخارية القديمة وعربات القطار الخشبية التي كانت في وقت من الأوقات تشق طريقها في الصحـراء باتجاه المدينة المنورة. وفي عـام ١٩١٢ نُظمت مسابقة لإيجاد تصميـم من أجل بناء محطة الحجاز الجديـدة في مركز مدينة دمشق. إن المعماري الذي فاز بتلك المسابقة وصمم المحطة الأنيقة التي أصبحت واحـدة من معالم مدينة دمشق هو الإسبـانـي (فرناندو دو أرنادا) الذي يمكـن وصف حياته بأنها كانت غير عادية نوعاً ما. استدعي (فرناندو)، الـذي كان معروفـاً بلقـب (فـيردو)، إلى بـلاط سلطـان الإمبراطورية العثمانية في استنبـول حيث كان والـد (فـيردو) يعمـل أستـاذاً يعلـم الموسيقـى لعائلة السلطان وكان أيضـاً رئيساً للفرقة الموسيقية العسكرية الإمبراطوريـة. عندما خُلع السلطان عن عرشه عام ١٩٠٩، عادت عائلة (دو أرنـادا) إلى برشلونـة، لكـن (فيردو) الذي بلـغ الثلاثين من العمر حينـذاك آثـر التوجه إلى دمشـق للعيش فيها بدلاً من العـودة مع عائلته إلى إسبانيـا. وفي دمشق تزوج (فيردو) من سيدتين (مسيحية ومسلمة) وأنجـب غلامـين وتوفي عـام ١٩٦٩ عن عمـر يناهز الواحـدة والتسعين ودفن في مقبرة للمسلمين تدعى الباب الصغير. في الحقيقة إن (فيردو) لم يحمـل شهادة في هندسـة العمارة ولم يتمكن مـن إضافة توقيعه على تصميم محطة الحجـاز بشكل رسمي وهذا ما سبب الحيرة حول الأبنية التـي عمل علـى تصميمها، لكن مما لاشك فيـه أن (فرناندو دو أرنادا) هـو الشخص الذي صمم محطة الحجاز في دمشق. أما الجانب الحزين مـن القصة فهـو أن المحطة أنجزت قبـل اندلاع الحـرب العالمية الأولى

الصورة في اليمين: مكتب قطع تذاكر الركاب من الدرجة الأولى والثانية والثالثة في محطة الحجاز للسكك الحديدية.

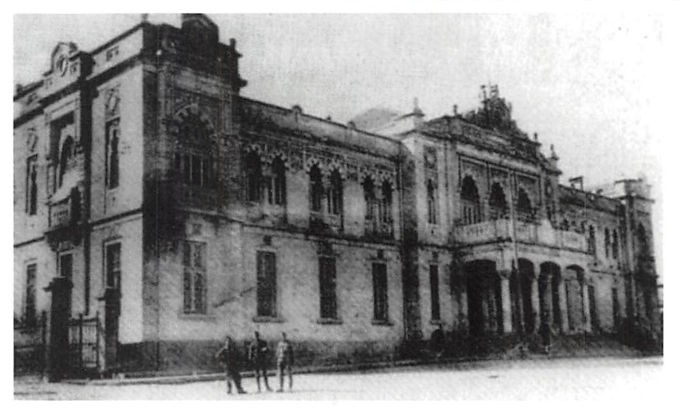
الصورة في الأسفل اليسارية: لقطة قريبة لواجهة محطة الحجاز.

الصورة في الصفحة المقابلة: صورة فوتوغرافية قديمة لمحطة الحجاز التي صممها (فرناندو دو أرنادا).

الصورة في الأسفل اليسارية: كسوة خشبية مزخرفة من أحد البيوت الدمشقية القديمة أعيد استعمالها في ثلاثينيات القرن العشرين لتزيين غرفة صغيرة في بيت عرقتنجي.







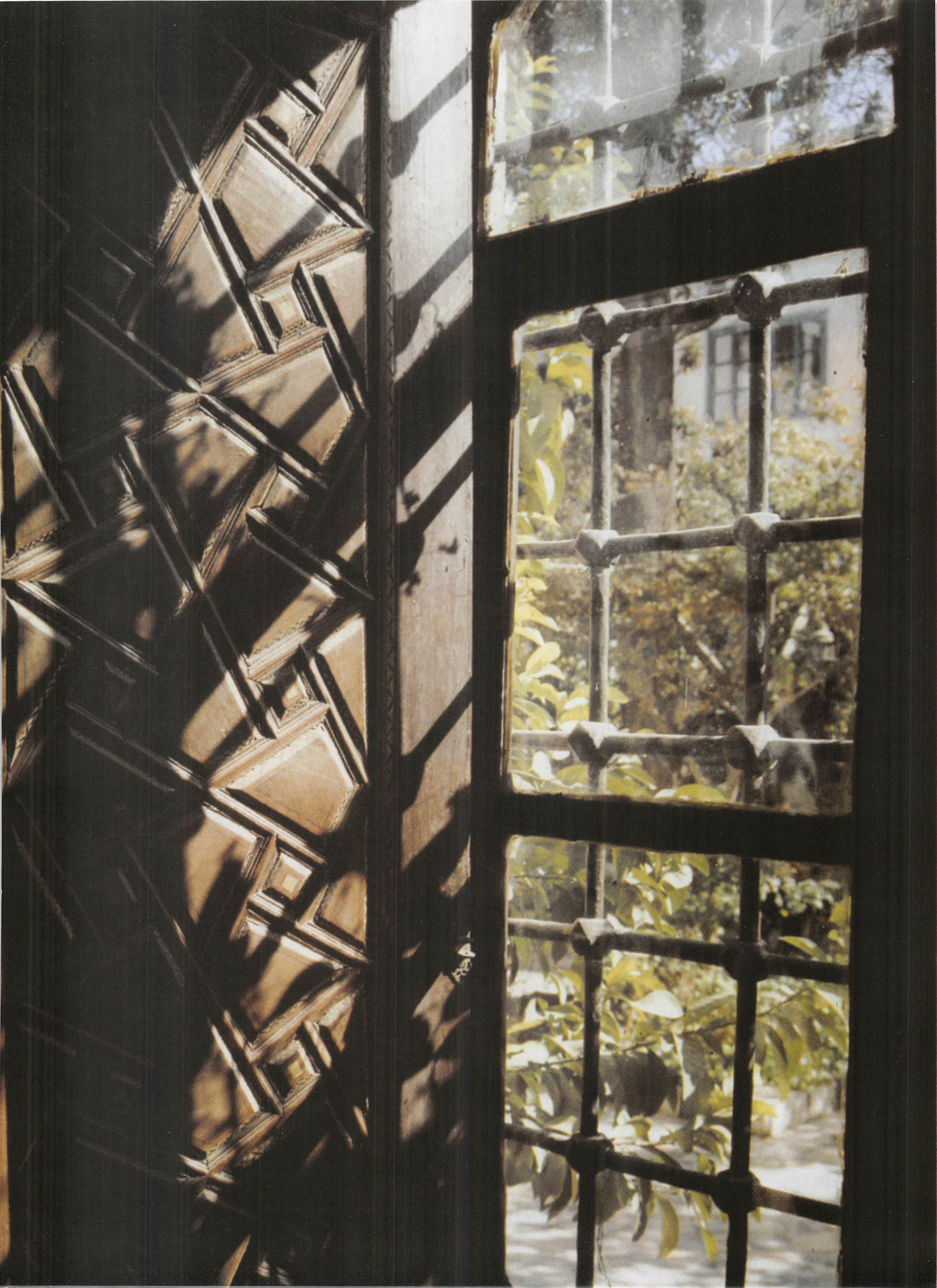
بفترة قصيرة ولم ينطلق منها أي قطار باتجاه المدينة المنورة لأن لورنس العرب وجيش العرب قاموا بتفجير سكك الحديد الموجودة في الصحراء لقطع خطوط الإمداد عن الجيش التركي. واليوم فإن محطة الحجاز تمثل كشبح للماضي ولا تشتمل إلى على كوات لبيع تذاكر الركاب من الدرجة الأولى والثانية والثالثة. وفي كل صباح ينطلق قطار بخاري باتجاه الزبداني ورحلة أسبوعية إلى العاصمة الأردنية عمان.

قام (فرناندو دو أرنادا) أيضاً بتصميم بعض المنازل الخاصة في دمشق وجميعها يقع خارج سور المدينة القديمة ومن أشهرها مبنيان على شكل فيلات كبيرة تحيط بهما الحدائق ويقعان على تلة خلف السفارة الفرنسية. وخلال الحرب العالمية الأولى، وجد ذلك المعماري نفسه قنصلاً لمعظم دول الحلفاء من دون أن يتقاضى أجراً عن جهوده في الوقت الذي رحل فيه قناصل تلك الدول عند اندلاع الحرب. لكن تقديراً للخدمات والجهود التي بذلها (فرناندو دو أرنادا) فقد قامت الحكومة الفرنسية بتقليده وسام الشرف، وكان بذلك المرشح الثاني غير المحتمل بعد البطل عبد القادر الجزائري لاستلام هذا التكريم في دمشق.

كانت نوافذ البيت الدمشقي بسيطة الشكل وفتحاتها مقوسة من الجهة العليا وموازية لمستوى الجدران المزينة بمداميك الحجر الأسود والأبيض في أرض الديار. وكانت عتبات بعض من تلك النوافذ تزين بأشكال من الزخارف الملونة (النباتي)، كما كانت الأجزاء الحديدية المضافة على تلك النوافذ بسيطة الشكل أيضاً. ولكن في القرن التاسع عشر ظهر التأثير الأوروبي جلياً في صنع نوافذ أكبر حجماً وتزييناً بالزخارف المحفورة على الخشب. ثم اتخذت قضبان الحديد الخارجية المخصصة للحماية طابعاً جمالياً وأصبحت أحياناً جزءاً أساسياً من تصميم النافذة ككل. ومع مرور الزمن، ازداد عدد النوافذ المفتوحة في الجدران الخارجية للمنازل التي كانت سابقاً شبه خالية من الفتحات.

قد يحتوي البيت الدمشقي على أشكال متعددة من الأبواب. فأبواب المدخل كانت تتميز عادة بالبساطة وتصنع من الخشب الثخين وترصع بمسامير حديدية كبيرة وغالباً ما تشتمل هذه الأبواب نفسها على أبواب أصغر منها ضمن الإطار الواحد وذلك لتسهيل عملية الدخول والخروج منها. أما الأبواب الموجودة داخل المنزل فتميزت بتزيين أكبر حيث طُعِّمت بالصدف أو صنعت من قطع خشبية ذات أشكال هندسية متشابكة مع بعضها البعض، في حين كانت تزين أبواب الخزائن بالرسوم أو بزخارف مطلية بالذهب. وكما حدث بالنسبة للنوافذ في القرن التاسع عشر من الناحية المعمارية، فإن الأبواب أيضاً وإطاراتها وحشواتها باتت أكثر تزييناً من ذي قبل.





النوافذ

الصورة في الصفحة السابقة: مصراع نافذة (شباك) خشبي بتصميم هندسي معقد في المتحف التاريخي بدمشق.

الصورة في اليمين: الزخرفة الخشبية على نوافذ بيت البارودي تتماثل مع الرسوم الزيتية الموجودة فوقها.

الصورة في الأسفل: دعامات خشبية رفيعة وزخرفة خشبية دقيقة تزين جداراً من النوافذ في بيت لشبونة.





كانت نوافذ البيت الدمشقي بسيطة الشكل وفتحاتها مقوسة من الجهة العليا وموازية لمستوى الجدران المزينة بمداميك الحجر الأسود والأبيض في أرض الديار. وكانت عتبات بعض من تلك النوافذ تزين بأشكال من الزخارف الملونة (النباتي)، كما كانت الأجزاء الحديدية المضافة على تلك النوافذ بسيطة الشكل أيضاً. ولكن في القرن التاسع عشر ظهر التأثير الأوروبي جلياً في صنع نوافذ أكبر حجماً وتزييناً بالزخارف المحفورة على الخشب. ثم اتخذت قضبان الحديد الخارجية المخصصة للحماية طابعاً جمالياً وأصبحت أحياناً جزءاً أساسياً من تصميم النافذة ككل. ومع مرور الزمن، ازداد عدد النوافذ المفتوحة في الجدران الخارجية للمنازل التي كانت سابقاً شبه خالية من الفتحات.



النوافذ



ركن غرفة رائعة في بيت البارودي حيث حُفرت مصبات على شكل محاريب لتحتل معظم المساحة الجدارية. وفوق كل واحد من تلك المصبات نافذة بيضوية الشكل.

النوافذ



الصورة في الأعلى: النوافذ المصممة على طراز شمال إفريقيا المعماري تميز منزل عبد القادر الجزائري عن غيره من المنازل الموجودة في دمشق.

الصورة في الصفحة التالية: باب ونوافذ طويلة ومرتفعة جداً على النمط الفرنسي تنير غرفة الجلوس في بيت مردم بيك.





الأبـــواب

الصـورة في الصفحـة السابقـة: بـاب خشبي ذو أشـكال هندسية مرصع ومطعّم بالصـدف لمدخل قاعـة الاستقبال في بيت المجلد.

الصـورة في اليمـين: أبواب خزانـة مزينة برسـوم صغيرة لمناظر طبيعيـة، بالإضافة إلى أشـكال مـن الزخـارف العربيـة (الأرابسك) في بيت القوتلي.



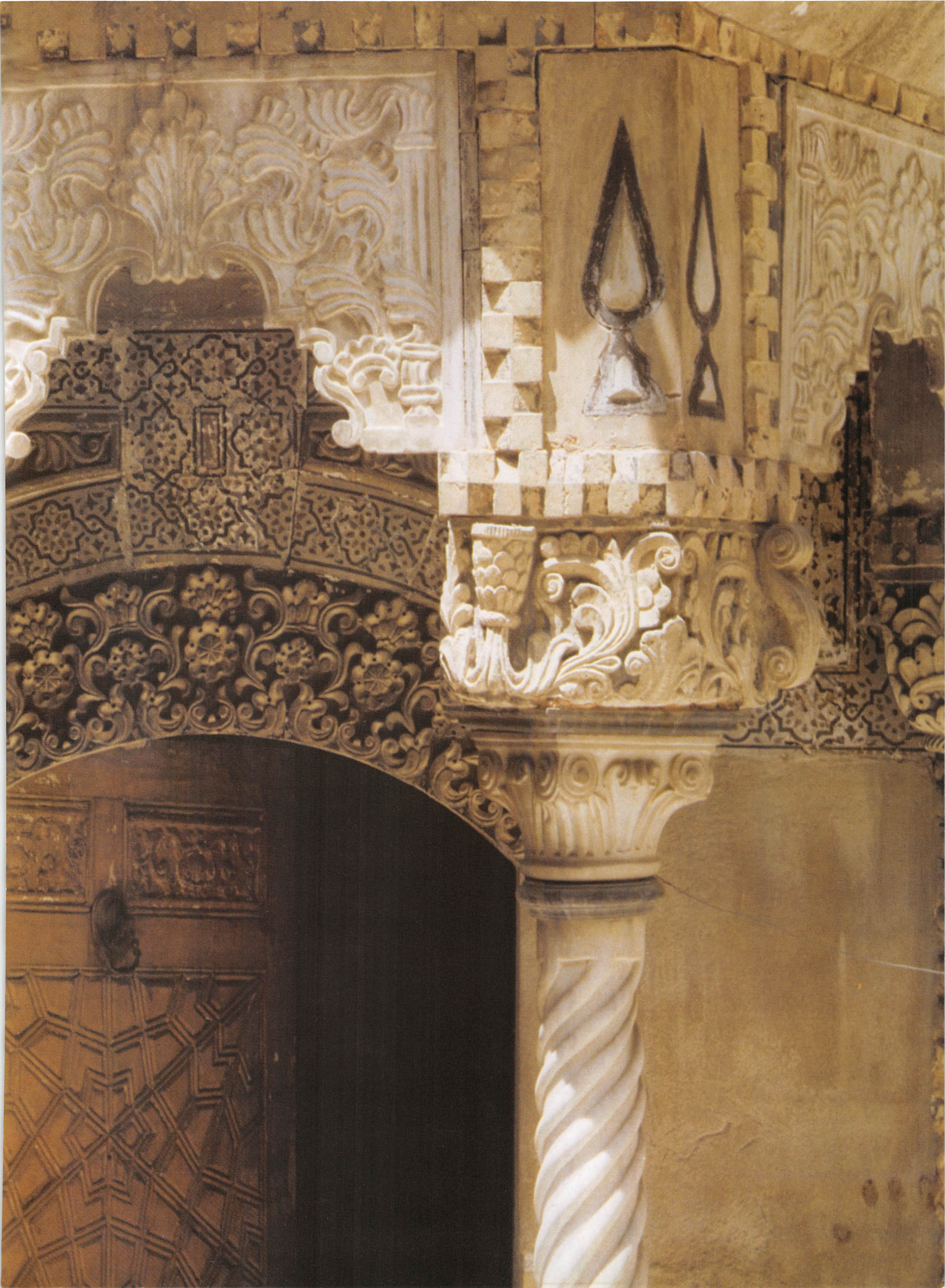
قد يحتوي البيت الدمشقي على أشكال متعددة من الأبواب. فأبواب المدخل كانت تتميز عـادة بالبساطة وتصنع مـن الخشب الثخين وترصع بمسامـير حديدية كبيرة وغالباً ما تشتمـل هذه الأبواب نفسهـا على أبواب أصغر منها ضمن الإطـار الواحد وذلك لتسهيل عمليـة الدخول والخروج منهـا. أما الأبواب الموجودة داخل المنـزل فتميزت بتزيين أكبر حيث طُعمت بالصـدف أو صنعت من قطع خشبيـة ذات أشكال هندسيـة متشابكة مع بعضها البعض، في حين كانت تزين أبواب الخزائن بالرسوم أو بزخارف مطلية بالذهب. وكمـا حدث بالنسبة للنوافذ في القـرن التاسع عشر من الناحيـة المعمارية، فإن الأبواب أيضاً وإطاراتها وحشواتها باتت أكثر تزييناً من ذي قبل.



الصـورة في الأعلى: : أشكال هندسية خشبيـة لمصـراع نافـذة (شبـاك) جـرى ترميمه مؤخراً في بيت السباعي.

الصورة في الصفحة التالية: الإطار المحيط بالبـاب، وهو مزيـن بكثير مـن الزخارف (علـى نمـط الركـوك) و(النباتـي) على الحجر في بيت نظام.





الأبـــواب



تصاميم عديدة مختلفة مركبة مع بعضها البعض في هذا المدخل الرائع المصنوع من الرخام والحجر في أرض ديار بيت الطيبي.



الصورة في الصفحة السابقة: الليوان في بيت مردم بيك الذي يُعدّ من المنازل القليلة التي ما تزال تعيش فيها العائلة التي بنت المنزل بالأصل. وقد أعيد تزيين هذا المنزل على يد الزوجين المبينة صورتهما أدناه: أحمد مختار مردم بيك (١٨٦٥-١٩١١) وزوجته فاطمة ابنة مفتي دمشق التي كانت سيدة مثقفة ومتحضرة وتحظى باحترام كبير. ومن بين المتحدرين من أصل عائلة مردم بيك، هناك ثلاثة شعراء معروفين، أحدهم هو خليل مردم بيك الذي ألف كلمات النشيد السوري.





أصبحت فكرة السكن في منزل خارج سور دمشق القديمة مرغوبة أكثر من ذي قبل مع شيوع استعمال السيارات، كما ازداد عدد العائلات الكبيرة والتجار الأثرياء الذين انتقلوا للعيش في مناطق كالصالحية والمهاجرين وغيرها من المناطق الجديدة التي أخذت تنمو وتتطور في ضواحي دمشق وهجروا منازلهم الموجودة في دمشق القديمة وقسموا باحاتها وغرفها وأجروها كمستودعات أو معامل صغيرة أو أمكنة لإقامة العائلات الفقيرة واللاجئين الفلسطينيين (الذين وصل عددهم في دمشق كلها إلى أكثر من ربع مليون لاجئ). وكما أشار أحد المهندسين المعماريين فإن هذه المنازل القديمة قد باتت الآن تحتوي على قرى في داخلها بدلاً من أن يحصل العكس. في الحقيقة أنه لا توجد الآن أي من العائلات التي اقتنت المنازل الفخمة قادرة على تحمل مسؤولية أو دفع نفقات الحفاظ على تلك المنازل وصيانتها في الزمن الحاضر، وهذا ما أدى إلى إهمالها لتصبح شبه مهجورة ومتداعية أو مهدمة بالكامل على مر السنين.

لكن بعض العائلات شعرت بالحنين إلى المدينة القديمة وهذا ما دفعها إلى إحضار كسوة خشبية مزخرفة من بعض البيوت العربية القديمة – وأحياناً من بيوتهم الأصلية التي تركوها – ومن ثم دمج هذه الكسوة في تأثيث شققهم السكنية الموجودة في الجزء الحديث من دمشق. ولعل أروع مثال عن هذا الأمر تجده في بيت العرقتنجي الذي بناه الطبيب الناجح يوسف عرقتنجي في ثلاثينيات القرن العشرين، ثم تحول فيما بعد إلى مقر السفارة الإسبانية بدمشق. يبدو المنزل من واجهته الخارجية بأنه مجرد بناء قائم على الأسلوب المعماري الرائج في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين مع إضافة بعض اللمسات الفنية الحديثة. لكن عندما تدخل المنزل تجد بأنك تعود إلى عالم ألف ليلة وليلة حيث الكسوة الخشبية المزخرفة (التي يعود تاريخ صنعها إلى ١٧٦٥) تزين غرف المنزل بالإضافة إلى أرضيات مفروشة بالرخام والحجر والسقوف المزينة بالرسوم علاوة على وجود البحرات الفوارة والفسقيات والألواح الزخرفية الدمشقية (القاشاني) القديمة بلونيها الأبيض والأزرق. وقد جمعت هذه الكسوة الخشبية والرخامية والحجرية وغيرها من قطع التزيين والزخرفة من مدينة دمشق القديمة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين عندما أخليت العديد من المنازل القديمة من أجل شق الطرق الجديدة أو تشييد المباني الحديثة، أو البيوت التي تخربت بفعل القصف أيام الاحتلال الفرنسي. وفي تلك الفترة أيضاً جرى استعمال كسوة خشبية مزخرفة بالرسوم يعود تاريخها إلى ١٧٩٧ من أجل تزيين قاعة الاستقبال الموجودة في الطابق الأول من مبنى هيئة تمديد مياه عين الفيجة القائم بالقرب من محطة الحجاز.



الصورة في الصفحة السابقة: قاعة الاستقبال الكبرى في بيت الطيبي بحاجة إلى الترميم.

الصورة في الأسفل: ليوان بيت الطيبي وسقفه المزين بمنتهى الأناقة بالرسوم والزخارف الحجرية.

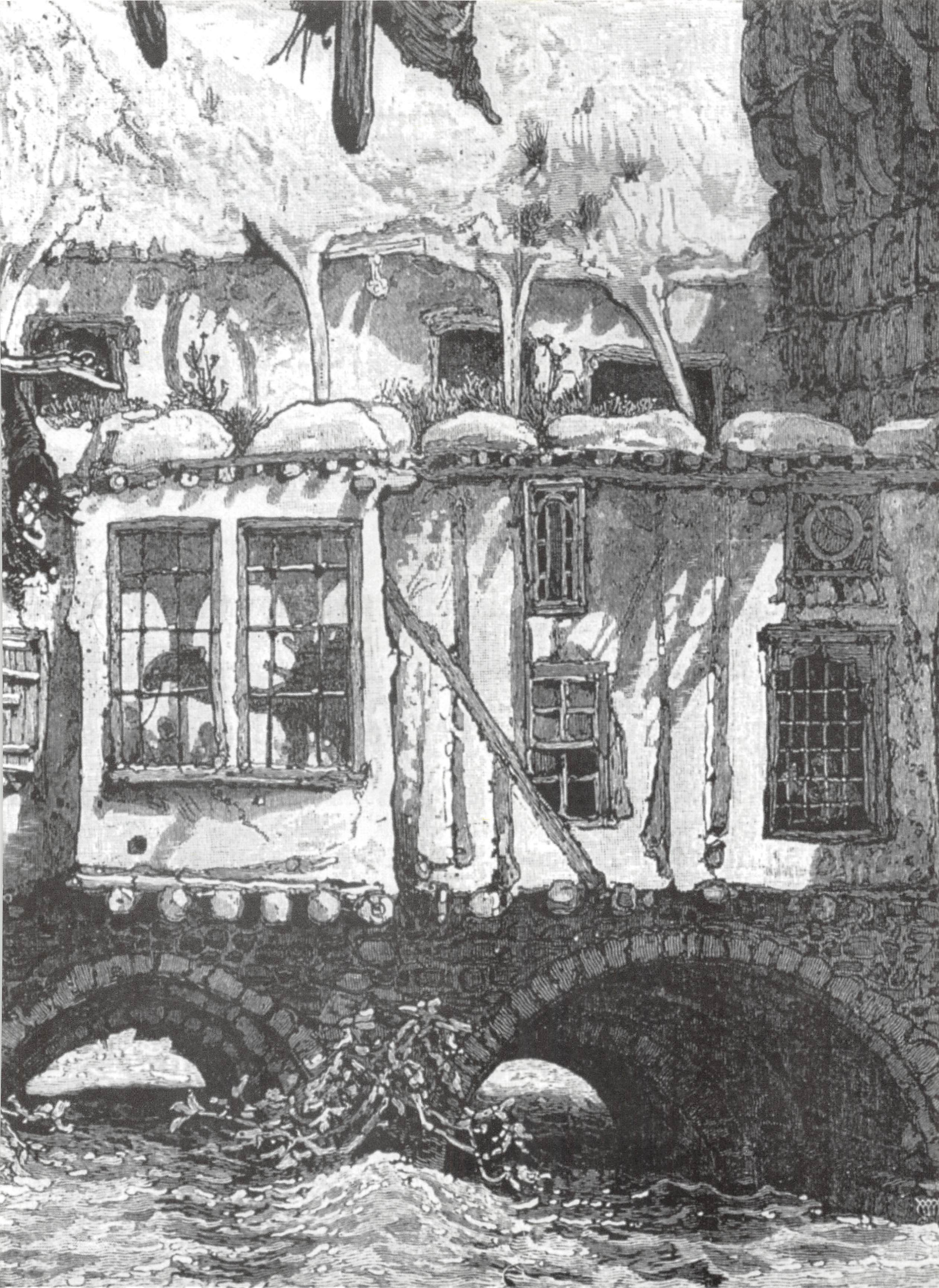


لقد «مُنحت» سورية لفرنسا بموجب عملية تقسيم الإمبراطورية العثمانية السابقة إبان الحرب العالمية الأولى، ولكن من أجل تلطيف حقيقة «منح» سورية لدولة أخرى، فقد سمي حكم فرنسا في سورية بالانتداب الفرنسي الذي كان من المفترض أن يكون انتداباً مؤقتاً يهدف إلى مساعدة سورية على التطور والاستعداد لنيل استقلالها.

لكن السوريين قاوموا الفرنسيين بقوة وعنف واندلعت الثورة ضد الحكم الفرنسي في قلب مناطق الدروز في جنوب سورية عام ١٩٢٥ وامتدت بعدها إلى دمشق. وفي شهر تشرين الأول من ذلك العام، قام المتمردون بحرق ونهب قصر العظم وأصبحت المدينة كلها في حالة من الغليان. شعرت السلطات الفرنسية بالخطر المحدق فهاجمت منطقة دمشق القديمة بالدبابات والمدفعية في محاولة منها لإخماد الثورة.

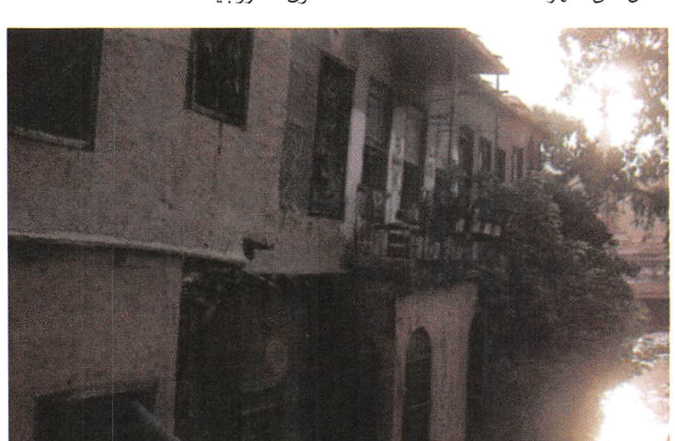
استمر القتال العنيف ثلاثة أيام وأسفر عن تدمير جزء من دمشق القديمة بالكامل، ثم أعيد بناء ذلك الجزء بأسلوب عصري يخلو من الجمال والفن، وهو معروف الآن باسم «الحريقة»، وهذا ما سدد ضربة قاضية أخرى إلى المدينة القديمة. إن القتال المرير الذي استمر ثلاثة أيام أسفر عن مقتل ١٣٥ شخصاً وتدمير ٢٥٠ منزلاً أثرياً بما فيها بيت القوتلي الذي كان يعد من أغنى وأجمل البيوت الدمشقية، وهو بيت آخر تعود ملكيته لعائلة القوتلي الذي كان مقراً للقنصلية البريطانية.

وقد وصفت سيدة فرنسية تدعى (أليس بولو) التي شهدت تلك المأساة بقولها «إن المنطقة الواقعة بين سوق الحميدية والشارع المستقيم أصبحت موطناً للرعب حيث لم يتبق فيها شيء قائم فوق الأرض إلا



الصورة في الأسفل: شمس الغروب تلقي بضوئها على بيوت وخانات سوق السروجية المطلّ على النهر.

الصورة في اليمين: لوحة مرسومة في القرن التاسع عشر للجسر الجميل في سوق السروجية.



وتهدم بفعل القصف. وفي بعض الأماكن دفن الناس تحت أنقاض منازلهم.. وانبعثت الروائح الكريهة من الجثث المتفسخة وتحطمت واحترقت تلك الأشجار المزروعة في باحات المنازل التي غشاها دخان الحرائق ودخلها البدو يلملمون ما تبقى من الحطام.. والأسلاك الكهربائية أصبحت مرمية على الأرض في كل مكان، بينما غرقت الشوارع الميتة من صنابير الماء المحطمة.. أما المنطقة المحاذية للشارع المستقيم التي تعرضت لأسوأ الدمار الناتج عن ذلك القتال فتبدو وكأن بركاناً مدمراً ثار فيها ومازال دخانه يتصاعد من فوهته.»..

اعترض قناصل الدول الأجنبية على هذه الوحشية في قمع الثوار، ولكن بعد ستة شهور تقريباً، أي في عام ١٩٢٦، عاد الثوار للتحرك مجدداً فقصفت القوات الفرنسية حي الميدان. وذكرت (أليس بولو) التي سجلت وقائع ذلك الهجوم بقولها «لا أدري ماذا تبقى من حي الميدان!! فاليوم أحرقوا مسجداً ودمروا عدداً كبيراً من المنازل المجاورة وتعرض المكان للسلب والنهب مما دفع سكان الحي إلى الفرار من هذا الدمار ...».

بعد أن هدأت انتفاضة الثوار قام الفرنسيون بجباية الأموال من أهالي دمشق كغرامة نقدية واستعملوها في إقامة سياج من الأسلاك الشائكة حول المدينة القديمة، وقاموا أيضاً بتوسيع الشوارع المحيطة بها بهدف عزل دمشق القديمة عن واحة الغوطة وضواحيها التي لجأ إليها الثوار. وقد شاهدت (أليس بولو) كل ما يحدث وحذرت دمشق قائلة «أيها الدمشقيون.. إذا لم تحركو ساكناً فإن دمشق القديمة ستبدو مثل لافالوا بيريه (وهي إحدى ضواحي باريس الصناعية البشعة) في غضون عشر سنوات.».

وفي عام ١٩٣٦ ثم في عام ١٩٦٨ (مع أن الفرنسيين كانوا قد رحلوا وقتها منذ زمن بعيد) طُلب من المعماري ومهندس المدن الفرنسي (ميشيل إيكوشار) اقتراح مخططات لبناء دمشق الجديدة. وحسب

ما أفاد به الكاتب الفرنسي (جيرارد دوجورج) الذي يعشق دمشق القديمة فإن المهندس (إيكوشار) لم يعر أي اهتمام لنداء أولئك الذين شعروا بضرورة الحفاظ على المدينة القديمة ككل. فبرأي (إيكوشار) أن أصحاب تلك الأفكار «لا يأخذون بالحسبان أن البيوت تتداعى وتذوب كل يوم بماء المطر وبأن الحفاظ على هوية تلك البيوت من جهتها الخارجية سيكون أكثر كلفة من تعمير منزل جديد بمواد بناء حديثة». وبعد المخطط الذي وضعه (إيكوشار) أزيلت الأسواق القديمة الملتصقة بالقلعة وسور المدينة المحيط بالمكان وبدأت عمليات التجديد والتطوير في منطقتي الميدان وسوق ساروجة وفي قلب المدينة القديمة ذاتها أيضاً حيث تحول عدد من البيوت الرائعة إلى مبانٍ للمدارس، ناهيك عن مخططات توسيع الشوارع وما أطلق عليه «ترميم وتجميل» الأوابد الأثرية. لكن نداء شعبياً وضع حداً لاستمرار تنفيذ مخطط التحديث وصدر قانون عام ١٩٧٢ الذي حظر جميع عمليات الهدم وإعادة البناء داخل سور دمشق القديمة. وفي عام ١٩٧٩ صنفت منظمة «اليونسكو» دمشق القديمة «مدينة تراثية عالمية». ولحسن الحظ فإن منطقة سوق ساروجة اليوم لم تزحف إليها عمليات التحديث العمراني بالكامل ومازال فندق الحرمين وفندق الربيع الجميلين في أحد الأزقة الخلفية على حالهما لم تقتلعهما الجرافات. لكن عملية التطوير والتحديث في حي الميدان تسير على قدم وساق وكذلك الأمر في حي زقاق الصخر حيث ذهب عدد من البيوت الجميلة ضحية تشييد فندق جديد ضخم. أما منطقة القنوات لحسن الحظ فتبقى بعيدة عن موجة التحديث في العمران لكن البيوت الموجودة فيها بحاجة ماسة للترميم.

بالرغم من هذه القوانين الجديدة جرى شق طريق جديد في ثمانينيات القرن العشرين عبر المدينة القديمة ليمرّ بمحاذاة القلعة وصولاً إلى الجامع الأموي وأزيلت الأسواق المجاورة التي كانت «ملتصقة» بالمكان لسنوات طويلة. كما فُقدت العديد من البيوت القديمة في المشروع الجديد واختفى عدد آخر منها عندما قام الإيرانيون ببناء جامع جديد فاخر فوق مشهد السيدة رقية، ابنة حفيدة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). وبعد شق الطريق المؤدي إلى الجامع الأموي جرى طلاء واجهات المباني والمتاجر بالخطوط المملوكية، كما زينت الدكاكين الجديدة على نحو يخلو من أي حسن أو جمال بأروقة خشبية على الطراز الشرقي وذلك كله بهدف إضفاء الناحية الجمالية على هذا التحديث في العمران. لكن أحد الأدباء السوريين عبر عن مشاعر العديد من الناس بقوله «لدينا مدينة عربية أصلية عريقة ولسنا بحاجة إلى نسخة مصطنعة عنها كديزني لاند.. إن ما نحتاجه بالضبط هو العناية بالمدينة الأصلية الموجودة لدينا».

لكن دمشق القديمة لم تعد تؤوي بين جدرانها أصحاب النفوذ والأثرياء كسابق عهدها كي يدافعوا عنها باستثناء عائلة واحدة فقط من العائلات الدمشقية البارزة، وألا وهي عائلة «مردم بيك» التي ما تزال تقطن دارها الأصلية في دمشق القديمة المبنية من قبل عثمان مردم بيك أحد أسلاف تلك العائلة في منتصف القرن التاسع عشر والذي كان من الأعيان وأصحاب النفوذ. لكن الباحة الرئيسية (السلاملك) في هذا المنزل، الذي يقع بين سوق الحميدية والحريقة، قد تعرضت للخراب نتيجة القصف الفرنسي أيام الاحتلال الفرنسي لسورية، ثم حفظت بعض من آثار تلك الباحة الجميلة في المتحف الوطني. أما عائلة مردم بيك فهي تستخدم حالياً باحة (الحرملك)، وهي أيضاً باحة في غاية الحسن والجمال.

لقد بلغ عدد سكان دمشق الحديثة حوالي أربعة ملايين نسمة في حين أصبحت المدينة القديمة المسوّرة جزءاً صغيراً جداً من التكتلات السكنية الضخمة التي ازداد حجمها وعددها عبر السنوات الخمسين الماضية. ومع ذلك فإن منطقة دمشق القديمة هي القلب والقالب لمدينة دمشق وستظل مدينة فريدة من نوعها وسرمدية في جمالها الساحر. إن المدينة القديمة هي التي تجعل من دمشق «دمشق» وليست هذه الكتل السكنية الإسمنتية الموجودة في أي مدينة بالعالم. فدمشق القديمة بأفران خبزها وحلاقيها وحماماتها العمومية وبيوتها العربية العريقة هي التي تستقطب الزوار والسائحين للاستمتاع بمشاهدتها.

ويقول (ستيفان ويبر) بأن «دمشق ليست غنية بمبانيها العامة وإنما تعدّ كنزاً لمجموعة نفيسة من البيوت العربية الرائعة». أما المصور الفوتوغرافي السوري مروان مسلماني فقد نشر عام ١٩٨٣ كتاباً رائعاً من الصور بالأبيض والأسود لعدد من أفضل وأجمل البيوت الدمشقية. ويعتقد مروان مسلماني المتفائل بالمستقبل بأن بعضاً من هذه المنازل سيتم المحافظة عليها إلا أن الجزء الأكبر من دمشق القديمة سوف يخضع للتطوير والتحديث. لذلك يعتقد مسلماني بأن كتابه كان أفضل إنجاز في حياته ويقول في هذا الشأن «على الأقل لقد حفظت قصور دمشق القديمة في سجل مصور قبل أن تتلاشى وتختفي إلى الأبد». وبالفعل فإن ثمانية من البيوت الفخمة التي نشر صورها في كتابه قد أزيلت واختفت من الوجود، بينما بعضها الآخر، كبيت الطيبي، بحالة يرثى لها وبحاجة ماسة للترميم والإصلاح في حين أن المنازل البديعة الموجودة في سوق السروجية القديم على امتداد النهر حيث تدخل إلى المدينة القديمة فإنها تبدو وكأنها ستنهار وتغوص في ماء النهر في أية لحظة.

تواجه دمشق القديمة الآن خطراً داهماً لا سابق له يهدد وجودها عبر آلاف السنين ولا يعود مصدر هذا الخطر إلى الحروب أو الزلازل، وإنما ببساطة إلى الإهمال والتهاون.

الصورة في الصفحة المقابلة: طنف السطح في بيت نيادو وهو مزود بحافة مموجة مصنوعة من العصي الخشبية.





خاتمة

الصورة في الصفحة السابقة: حافة السطح المموجة في البيت الإسباني، وهي مغطاة في قمتها بساتر من الزنك لحماية العصي الخشبية الموجودة تحته.

هناك بصيص ضوء في نهاية النفق. ففي تسعينيات القرن العشرين جرى افتتاح عدد من المطاعم في البيوت العربية الدمشقية القديمة — معظمها في المنطقة المسيحية. عندما أعلن عن افتتاح أول مطعم من هذا النوع، سخر الناس في دمشق من هذه الفكرة بقولهم "من يريد الذهاب كل هذا الطريق إلى دمشق القديمة لقضاء الأمسيات فيها؟" لكن تلك المطاعم حققت نجاحاً باهراً.

أما بصيص الضوء الآخر فقد ظهر إلى حيز الوجود عبر السنوات القليلة الماضية حين بدأ عدد من الأشخاص ممن يتمتعون بالجرأة بنقل اهتمامهم إلى دمشق القديمة. فالشيخة حصة الصباح من الكويت، التي أمضت فترة حرب الخليج ببقائها في دمشق، رغبت بالتعبير عن شكرها لهذه المدينة وأرادت أن تفعل شيئاً يساعد المدينة القديمة على البقاء فاشترت فيها ثلاثة منازل وأخضعتها للترميم (يستطيع العرب شراء العقارات في سورية أما الأجانب فيحتاجون إلى إذن خاص). ثم قامت نورا جنبلاط زوجة زعيم الدروز في لبنان وهي من أصل دمشقي بشراء بيت المجلد الذي يُعدّ من أروع البيوت في دمشق القديمة. ومن الجدير بالذكر أن بيت المجلد كان ملكاً لعائلة جبري لغاية ١٩٣٨ حين قام سعيد آغا جبري، وهو رجل سوري كان يعمل في جمع الضرائب للإدارة العثمانية، بإعادة بناء ذلك المنزل وترميمه في الفترة الممتدة بين ١٨٤٠ و١٨٧٧. ويبدو بأن سعيد آغا جبري قد جمع لنفسه ثروة طائلة لأنه وعد زوجته بأن يرصف لها أرض «القاعة» ببلاط من الذهب، لكن السلطات الدينية حالت دون تنفيذ ذلك لما فيه من إساءة دينية. لكن فرعاً آخر من العائلة مازال يملك «بيت جبري»، وهو منزل آخر جميل يختلف عن «بيت المجلد» بشكل كبير. كما أن تنفيذ التزيين في بيت جبري يعود إلى فترة مبكرة (١٧٤٤) وهو مزدان بالزخارف الملونة (النباتي) والحجرية.

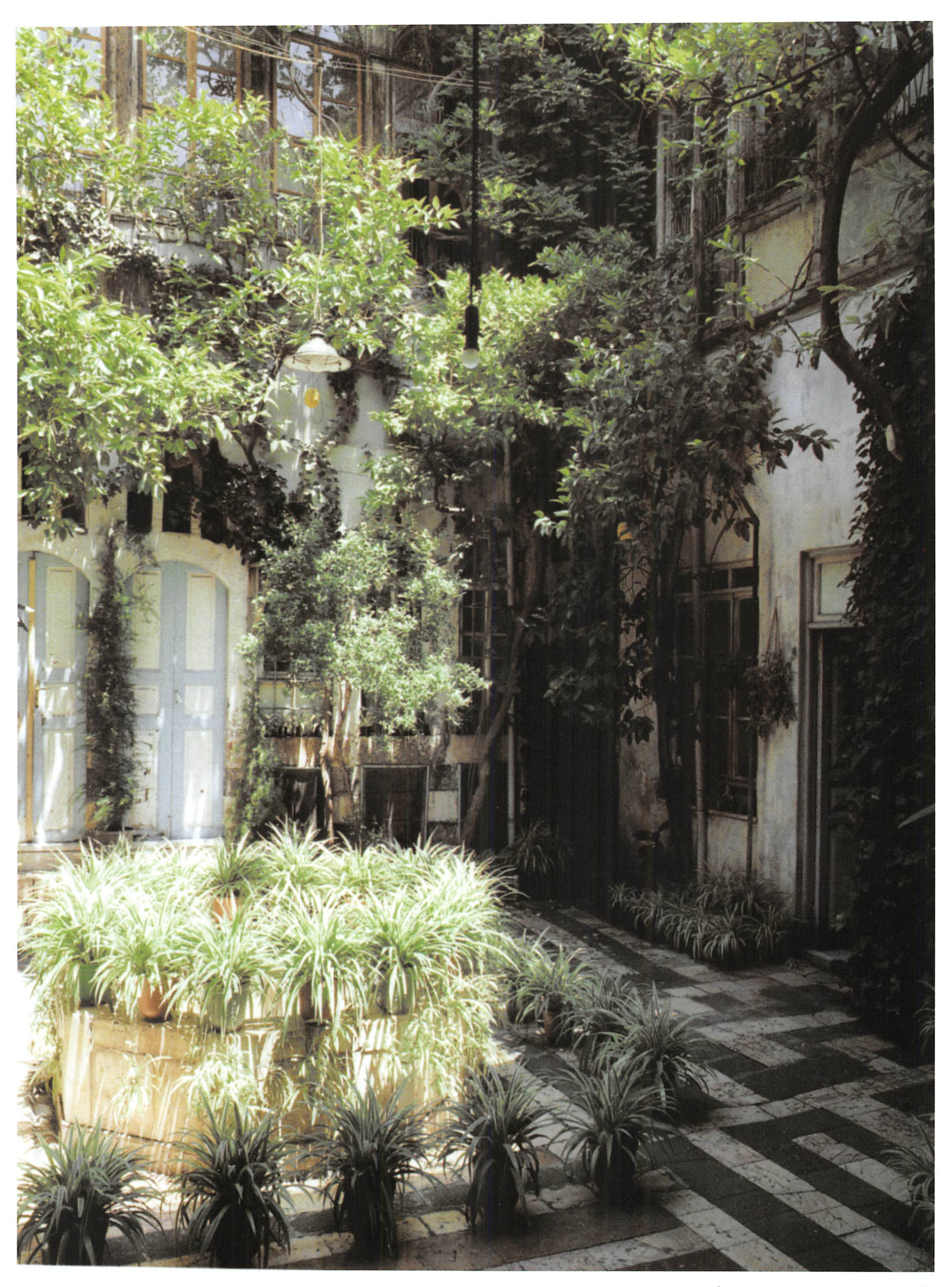
ثم اشترى المعماري حكمت شطه وشقيقه منزلاً رائعاً كانت تسكنه في وقت من الأوقات الشاعرة والكاتبة ماري عجمي التي كانت صديقة المفكرين في عصرها (مطلع القرن العشرين) وكانت تعقد لهم في دارها منتدى أدبيا بشكل منتظم. أما علي الأتاسي، نجل رئيس سورية سابقاً، فاشترى منزلاً صغيراً خلف الجامع الأموي. ويبدو بأن هناك عدداً آخر من المهتمين بالحصول على منازل مشابهة. وفي الوقت ذاته

وكما سلف ذكره، استأجرت الحكومة الدانمركية بيت العقاد وحولته عام ٢٠٠٠ إلى المعهد الثقافي الدانمركي بدمشق. من المعروف أن بيت العقاد يعد قصراً رائعاً يقع في سوق الصوف قبالة الشارع المستقيم وقد تطلبت عملية ترميمه جهداً كبيراً من قبل صاحب فكرة المشروع عالم الآثار ومدير المتحف الدانمركي (بيدير مورتنسون) بالتعاون مع مديرية الآثار والمتاحف السورية.

وكي نحث الآخرين على الانضمام إلى هؤلاء الرواد، لابد من تحسين البنية التحتية لدمشق القديمة كي تصبح مكاناً أيسر للسكن، وهو أمر تم تنفيذه بالفعل في غيرها من المدن التاريخية القديمة بدءاً من مدينة «فاس» إلى «فيينا» ومن «تونس» إلى «إكس أون بروفانس». فالمال لا يعدّ مشكلة كبيرة بما أنه يمكن جمع المال اللازم لمشروع إعادة تأهيل دمشق القديمة، وإنما بزيادة التصميم لتنفيذ هكذا مشروع حيث ينبغي إيجاد خطة رئيسة دقيقة وتوفير الحوافز لشركات الأعمال والسفارات كي تتولى العناية بالبيوت العربية القديمة وترميمها وتوفير مشاريع قروض من أجل تحسينها بالإضافة إلى تنظيم حركة المرور في أزقتها وشوارعها الضيقة وإنشاء مواقف للسيارات بهدف تسهيل وصول السكان إليها، وفي المقام الأول لابد من تحسين جودة أعمال الترميم والذوق في تنفيذها. فدمشق لديها الحرفيون الماهرون لكن هناك نزعة نحو ترميم ذلك التراث بما لايليق به من الرخام المصقول اللامع. ففي الحقيقة رُممت بعض المنازل في دمشق القديمة بأسلوب شرقي مبهرج وزائف لدرجة كان من الأفضل لها أن تنهار كلياً بدلاً من ترميمها على هذا النحو الذي يخلو من الذوق الفني.

قام المطورون في أوروبا في خمسينيات وستينيات القرن العشرين بتدمير العديد من المدن الداخلية والأحياء القديمة بروح من التهور والحماس لكل ما هو حديث: الأسواق التجارية الكبيرة ومرائب السيارات الطابقية والأبنية السكنية العالية. لكن الغرب يشعر الآن بالندم ومن الصعوبة بمكان تغيير ما حصل.

إن دمشق تتمتع بالأسباب لتتعلم من تلك الأخطاء وليست مضطرة أبداً لأن ترتكبها بنفسها.



: أرض ديار جميلة في بيت الحفار تزخر بأوانٍ وقدور نباتات الزينة.

بيان رموز الخرائط

إن المنازل المصورة في هذا الكتاب قد جرى تحديدها في الخرائط الواردة في الصورتين (٦٠) و(٦١). تعدّ هذه المنازل من البيوت التقليدية الرئيسة في دمشق القديمة وهناك العديد غيرها أيضاً بما أن كل بيت عربي في دمشق له باحته وبحرته الفوارة وقاعة الاستقبال الخاصة به سواء كانت كبيرة أم صغيرة. وجميع هذه المنازل خاصة وغير مفتوحة للعموم باستثناء عدد قليل منها.

إن البيوت الدمشقية تسمى عادة باسم أصحابها (أو مالكيها السابقين)، وهذا ما يسبب نوعاً من الارتباك والاختلاط. فعلى سبيل المثال، نجد بأن «بيت المجلد» كان ملكاً لعائلة (المجلد) لفترة قصيرة نسبياً. ومن الناحية النظرية يجب أن يكنّى هذا المنزل بعائلة (جبري) بما أنها عاشت فيه وقامت بتزيينه بشكل بديع في القرن التاسع عشر، أو أن يكنّى باسم مالكته الحالية (نورا جنبلاط). ولكن يبدو بأن اسم «بيت المجلد» قد التصق بالمنزل ولا يفارقه بغض النظر عن العائلات التي سكنت فيه أو رممته أو تمتلكه حالياً، وهذا أمر ينطبق على معظم البيوت الشامية.

دمشق

غرب السور

١- متحف دمشق التاريخي

وهو معروف أيضاً باسم «بيت خالد العظم» (كان خالد العظم رئيساً للحكومة السورية عام ١٩٦٢). كان هذا المنزل مقر القنصلية البروسية في منتصف القرن التاسع عشر، وهو مفتوح الآن للعموم ويستحق الزيارة لمشاهدة باحاته العديدة وتزيينه الرائع.

٢- بيت اليوسف

من أكبر القصور الموجودة في دمشق. جرى تزيينه بإسراف في القرن التاسع عشر على يد (يوسف باشا) الذي كان من أهم أعيان دمشق وآخر من استلم منصب «أمير الحج». تشترك الآن في سكن هذا المنزل الضخم عدة عائلات.

٣- بيت العبد

كانت عائلة (العبد) تسكن بالأصل في الميدان، حيث ما تزال دارهم الضخمة بباحاتها العديدة قائمة إلى الآن ومقسمة بين عدة أشخاص. ثم بنت العائلة هذا المنزل في منتصف القرن التاسع عشر في سوق ساروجة وزودته بثلاث باحات جميلة لكن حريقاً اندلع في المكان أتى على إحدى تلك الباحات. ارتقى (أحمد عزت باشا العبد) سلم السلطة وأصبح من أهم أصحاب النفوذ في الإمبراطورية العثمانية.

٤- فندق ربيع وفندق الحرمين

فندقان صغيران في أحد أزقة دمشق التي ما تزال تحافظ على جمالها القديم بالرغم من تشييد الأبنية العالية حولها. يُعدّ هذين النزلين (أو الفندقين الصغيرين) من البيوت الدمشقية التقليدية الجميلة التي تضم في أرجائها أرض الديار والبحرات الفوارة.

٥- بيت إيبش

كان هذا المنزل الضخم ملكاً لعائلة (إيبش) وأصبح الآن مطعماً لطيفاً تابعاً لاتحاد العمال في سورية، ولايزال محتفظاً بقاعة استقباله التقليدية المزينة بالرسوم والزخارف.

٦- بيت عرقتنجي

شيّد هذا المنزل عام ١٩٣٣ للطبيب (يوسف عرقتنجي)، وهو مزين في داخله بكسوة خشبية جميلة وزينة حجرية زخرفية بالإضافة إلى ألواح القاشاني وغيرها من النفائس المأخوذة من بعض البيوت العربية في دمشق القديمة. يعود تاريخ صنع بعض الحشوات الخشبية التزينية إلى ١٧٦٥. ظل هذا المنزل لعدة سنوات مقراً للسفارة الإسبانية بدمشق.

٧- بيت البارودي

كان هذا المنزل يخص المفكر الدمشقي المعروف (فخري البارودي) الذي فتح أبواب منزله أمام جميع أفراد المجتمع. يضم المنزل باحة تقليدية (أرض ديار) مرصوفة بالحجر على نحو بديع، لكن النوافذ الكثيرة الموجودة في واجهة المنزل تبين مدى التأثير الأوروبي العمراني، كما أن الرسوم الجدارية الموجودة في قاعة الاستقبال تصور المدن الأوروبية. يخضع المنزل حالياً لأعمال الترميم من قبل كلية هندسة العمارة بجامعة دمشق، حيث سيكون مركزاً لدراسات دمشق القديمة.

دمشق

داخل السور

١- بيت شيرازي

منزل ضخم ومزين على نحو بديع وفيه قاعة رئيسية تحتوي على ثلاثة «مجالس» وسقف رائع المنظر. كان هذا المنزل مقراً للقنصلية الفارسية حتى حلول القرن العشرين. لايزال أبناء هذه العائلة القنصلية مقيمين في المنزل إلى الآن. يعود تاريخ صنع الزخارف الحجرية الموجودة فيه إلى ١٧٦٥، لكن بعض الأجزاء الأخرى منه قد تكون أقدم في صنعها. يضم «بيت شيرازي» بين أركانه حماماً خاصاً به، بالإضافة إلى بحرة فوارة على شكل متاهة تتوسط باحة المنزل. جرى تحويل بعض غرف المنزل إلى محلات تجارية تطل بواجهتها الخارجية على الشارع.

٢- بيت الأمير الجزائري

اشترى (عبد القادر الجزائري) عدة منازل في دمشق لإيواء أفراد عائلته وحاشيته (لم نتمكن إلا من تصوير اثنين فقط من تلك المنازل بما أن الدخول إلى البقية كان مستحيلاً). سكن (عبد القادر) في منزل مبني على الطراز الدمشقي التقليدي ومزين بزخارف يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر. أما الآن فيقطن هذا المنزل زوجان عجوزان. هناك منزل آخر على امتداد ضفة النهر سكن فيه أحد أبناء (عبد القادر)، وهو مزين على الطراز المتبع في شمال إفريقيا. يوجد خلف «بيت الأمير الجزائري» جسر خاص فوق النهر.

٣- بيت المجلد

ظل هذا المنزل ملكاً لعائلة (جبري) لغاية ثلاثينيات القرن العشرين عندما اشترته عائلة (المجلد). قام (سعيد آغا جبري) عام ١٨٤٠ بإعادة تزيين المنزل بإسراف على طراز الركوك العثماني، ثم بنى (أو أعاد بناء) غرفة الطعام المذهلة الموجودة فيه وزينها بسلسلة من الأقواس الرخامية بأسلوب أوروبي واضح. اشترت (نورا جنبلاط) «بيت المجلد» عام ١٩٩٧ وبذلت جهوداً كبيرة في ترميمه.

٨- بيت قطنا

جُزِّء هذا المنزل إلى منازل عديدة بحجم صغير مما يجعل زيارته أمراً صعباً، لكن أحد تلك المنازل الصغيرة يحتوي على قاعة استقبال مزينة برسوم جميلة يعود تاريخها إلى ١٨٢٧. كما يمكن رؤية مصبات على شكل محاريب وغيرها من الزخارف الحجرية التي يعود تاريخ صنعها إلى فترة مبكرة في الزقاق المؤدي إلى المنزل.

٩- بيت بولاد

منزل بباحة (أرض ديار) واحدة وقاعة استقبال بكسوة خشبية مزينة برسوم جميلة يعود تاريخها إلى ١٨١٨. ولعل بعض أقسام المنزل صنعت في مراحل مبكرة أكثر.

١٠- المعهد الموسيقي

كان هذا المنزل الجميل فيما مضى مدرسة لتعليم الموسيقى، ويحتوي على قاعة استقبال مزينة بالرسوم على الطراز التقليدي لكنها مقفولة ولا تفتح أبوابها إلا للاطلاع.

١١- بيت يغمور

منزل كبير بواجهة خشبية مطلية باللون الأبيض يقع في الشارع الرئيسي بمنطقة القنوات.

١٢- زاوية أبو الشامات

واحة صغيرة في دمشق القديمة تتألف من حديقة تحيط بمدفن ومسجد. صُنعت الأجزاء القديمة من المبنى – كالزخارف الملونة (النباتي) – على الأرجح في القرن السابع عشر. أما المجمع بمجمله فقد رُمم في القرن التاسع عشر على يد الشيخ أبو الشامات.

١٣- بيت السيروان

بيت دمشقي قديم وجميل له باحة (أرض ديار) رائعة مرصوفة بالحجر وقاعة استقبال مزينة برسوم وطنف من المقرنصات البديعة يعود تاريخ صنعها إلى القرن الثامن عشر.

٤- قصر العظم

أصبح الآن متحفاً للفنون والتقاليد الشعبية في سورية وأبوابه مفتوحة لعموم الزوار. قام (أسعد علي باشا العظم) ببنائه في الفترة الممتدة بين ١٧٤٩ – ١٧٥٠. اشتهر القصر بباحته الداخلية الضخمة والجميلة المخصصة لأفراد العائلة (الحرملك)، وحمامه الكبير. تعرض القصر للخراب أيام الثورة التي اندلعت في ١٩٢٥ ثم جرى ترميمه بعد ذلك.

٥- بيت الجزائري

منزل جميل بباحة (أرض ديار) واحدة جرى «تحديثه» في أواخر القرن التاسع عشر. من المعتقد أنه كان بالأصل أحد المنازل التابعة (لعبد القادر الجزائري) وما يزال يسكنه أشخاص جزائريون لهم قرابة بعيدة (بعبد القادر).

٦- بيت سقا أميني

منزل ضخم يعود تاريخ صنع بعض من أقسامه إلى عدة قرون خلت رُمم عدد قليل منها فقط. يشتهر المنزل بقناطره الجميلة وتيجان الأعمدة المزخرفة بالحجر. يمكن رؤية هكذا تزيين في غيره من البيوت الدمشقية، «كبيت دحداح».

٧- بيت القوتلي

هناك أربعة منازل تابعة لعائلة (القوتلي) في دمشق:

«بيت القوتلي» (آ) المحدد في خريطة القس (جوسياس بورتر) التي أعدها عام ١٨٥٥ مشيراً إليه على أنه مقر القنصلية البريطانية. يُعدّ هذا المنزل قصراً ضخماً وله عدة باحات ومزين بزخارف بديعة في عدد من غرفه، لاسيما قاعة الاستقبال الرائعة التي تحتوي على نوافذ مميزة بيضوية الشكل معروفة باسم نوافذ «عين الثور»، بالإضافة إلى زخرفة حجرية يعود تاريخ صنعها إلى عام ١٨٠٢ (مع أن القصر شيّد في مرحلة مبكرة قبل ذلك التاريخ). تتقاسم هذا المنزل الآن عدة عائلات، بينما تحول أحد أركانه إلى مستودع للورق.

«بيت القوتلي» (ب) منزل كبير جداً يقع في قلب المدينة لكنه بحالة يرثى لها وبحاجة ماسة للترميم.

«بيت القوتلي» (ج) منزل جميل مزين بإسراف على نمط الركوك، وغرفه مزدانة برسوم نُفذت في القرن التاسع عشر (على الأرجح فإن تشييد المنزل يعود إلى فترة مبكرة قبل القرن ١٩). تعود ملكية هذا المنزل الآن إلى السلطات السورية التي تتولى ترميمه.

«بيت القوتلي» (د) دُمّر خلال القصف الفرنسي لمدينة دمشق عام ١٩٢٥.

٨- بيت جبري

قصر رائع بباحة وبحرة فوارة في غاية الحسن. تم تزيين المنزل بزخارف ملونة (النباتي) دقيقة الصنع في بعض مواضعها بتصاميم الركوك من القرن التاسع عشر. لاتزال عائلة (جبري) تمتلك هذا المنزل وافتتحت مطعماً بسيطاً في أرض الديار.

٩- بيت العجلاني

أصبحت باحة (أرض ديار) هذا المنزل منطقة للعموم افتتحت فيها المحلات التجارية. يعود تاريخ صنع الزخارف الملونة (النباتي) الحجرية التي تزين الجدران إلى القرن الثامن عشر أو ربما قبله. أما باقي أقسام المنزل فقد تحولت إلى شقق سكنية خاصة منفصلة عن بعضها البعض.

١٠- بيت النابلسي

مع أن بعض أجزائه آيلة للسقوط إلا أنه من أروع البيوت القديمة الموجودة في دمشق. يضم المنزل في أرجائه باحة لمدخل المنزل وباحة للمطبخ وباحتي حرملك وسلاملك. أما غرفة الاستقبال فيه، فهي مزينة بالرسوم ويعود تاريخ صنعها إلى ١٧٧٨ لكنها تعدّ غريبة من نوعها بسبب وجود نوافذ تطل على باحة المنزل الثانية. جرى فصل قسم من الباحة (أرض الديار) الرئيسية وعدد من الغرف أيضاً من أجل استحداث منزل آخر له أيضاً غرفة استقبال يعود تاريخ تنفيذ تزيينها البديع إلى عام ١٧٨٠.

١١- بيت الصباح

هناك ثلاثة منازل باسم «بيت الصباح»:

«بيت الصباح» (آ) و«بيت الصباح» (ب) لهما باحتان صغيرتان جميلتان قامت بترميمهما الشيخة حصة الصباح التي اكتشفت بان جزءاً من جدار المعبد الخارجي يمر بين هذين المنزلين.

«بيت الصباح» (ج) منزل كبير جداً قيد الترميم من جانب الشيخة حصة الصباح، ويضم باحة مرصوفة جميلة وبحرة فوراة بسيطة الشكل منحوتة من الحجر، علماً بأن بعض أقسام المنزل قد جرى «تحديثها» في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بينما يعود تاريخ باقي أقسام المنزل إلى القرن الثامن عشر أو قبله. كما يوجد فيه بحرات فوارة داخل الغرف (فسقيات).

١٢- مكتب عنبر

أصبح الآن مقراً للجنة دمشق القديمة. بنى هذا المنزل الذي يضم ثلاث باحات جميلة (يوسف عنبر) عام ١٨٧٠ خلال فترة إقامة (إيزابيل بيرتون) في دمشق. يمكن زيارة «مكتب عنبر» خلال أوقات دوام مكاتب اللجنة المذكورة.

١٣- بيت العظم

أحد المنازل التابعة لعائلة (العظم) هُدم لصالح مشروع تنموي لم يُنجز أبداً.

١٤- بيت شاوي

منزل يقع في الشارع المستقيم ويتميز بجمال نوافذه المنحنية على نحو غريب، وهي محفورة من خشب قصب السكر وبارزة إلى الشارع وتدعى (المشرفة). في الحقيقة لا يتوقع المرء أن يجد منزلاً ضخماً خلف واجهته العادية، علماً بأنه رُمم بشكل جزئي فقط. شغلت القنصلية النمساوية هذا المنزل في القرن التاسع عشر لفترة معينة.

١٥- بيت شطه

من أجمل البيوت الدمشقية الصغيرة وله باحة لطيفة أيضاً. كان هذا المنزل فيما سبق يخص الشاعرة والأديبة (ماري عجمي)، أما الآن فيمتلكه المهندس المعماري (حكمت شطه) وشقيقه.

١٦- البيت الإسباني

إن شعار النبالة الإسباني المنحوت على الباب الأمامي للمنزل الذي كان مقر القنصلية الإسبانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ما يزال موجوداً إلى الآن. يضم المنزل باحة رائعة الجمال وقاعتي استقبال مصممتين على الطراز الأوروبي، إحداهما مخصصة للذكور وجدرانها مزينة بـ ٢٣ مصباً بيضوياً على شكل محاريب بالإضافة إلى تصاوير جدارية ضخمة لكن معالمها باتت غير واضحة بسبب طبقات الغبار التي تراكمت عليها على مرّ السنين. أما القاعة الثانية فهي مزينة برسومات دقيقة تصور الحدائق، ومزودة بفسقية (بحرة فوارة) من الرخام الأبيض. باقي غرف المنزل تكاد تكون تقليدية في تصميمها. وهناك أرض ديار خاصة بالمطبخ. من الجدير بالذكر أن المهندسان (والزينغر) و(واتزينغر) أقاما في هذا المنزل في بداية القرن التاسع عشر.

١٧- بيت شامية

كان هذا المنزل في وقت من الأوقات يخص تاجراً مسيحياً موسراً يدعى (أنطون شامي)، لكنه تعرض للدمار في الاضطرابات التي حدثت عام ١٨٦٠، ثم أعيد بناؤه في ١٨٦٣ بلمسات معمارية أوروبية واضحة. أما الآن فقد تحول المنزل إلى دير للعبادة.

١٨- بيت فرانسا

منزل جميل بباحتين - إحداهما مهملة ومتداعية - بالإضافة إلى قاعة استقبال وغرفة معيشة مزينتين برسوم في غاية الحسن والروعة.

١٩- مدرسة القنيطرة (المدرسة السورية البريطانية)

كان هذا المنزل الذي يضم باحتين في أركانه مدرسة يديرها مبشرون بروتستانتيون من بريطانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم أصبح الآن مدرسة للاجئين القادمين من القنيطرة.

٢٠- بيت نعسان

منزل تمتلكه عائلة معروفة بتجارة البروكار الشهير، وله باحة تحيط بها الأعمدة بطريقة غير مألوفة في البيوت الدمشقية التقليدية، ثم أعيد تصميمها في القرن العشرين.

٢١- بيت مشاقة

كان هـذا المنزل مقـر القنصلية الأمريكية بدمشـق في النصف الثاني مـن القرن التاسع عشـر. يعود تاريخ تصميم نوافـذ المنزل إلى القرن الثامـن عشـر، أما المطبـخ فهو قديم جـداً وأعيد تصميمـه جزئياً في القرن التاسع عشر.

٢٢- بيت نيادو (الإستنبولي)

منـزل كان له شهرة واسعة يخص عائلـة يهودية جاءت إلى دمشق من استنبـول (وهو السبب في تسمية البيت الأصلـي «ببيت الاستنبولي»). أمـا صاحب المنزل الحالي فهو شيخ من ملة الشيعة. التقط (بونفيس) بعض الصور الفوتوغرافية للمنـزل في سبعينيات القرن التاسع عشر، وهذا ما سهل عملية التعرف على هوية المنزل بعد أن جرى تبديل بلاط أرض الديار والبحرة الفوارة فيها منذ ذلك التاريخ.

٢٣- بيت لشبونة

إنه ثاني أجمل وأفضل منزل في دمشق بعد «قصر العظم» الذي استأثر بإعجـاب (إيزابيل بيرتون). شيّد هذا المنزل على يد عائلة يهودية من لشبونـة كانت قد فرّت من البرتغال أيام «محاكم التفتيش» وعاشت في استنبول قبل أن تأتي إلى دمشق.

٢٤- بيت توتة

كانت عائلة (توتة) من عائلات التجار اليهود المعروفة في دمشق. صُمم هذا المنزل الجميل بطرازين، حيث يبدو أحد جانبي الباحة مبنيا على النمـط الأوروبي السائد في القرن التاسع عشر لاسيما النوافذ الكبيرة وقاعـة الاستقبال المزينة على الطراز الغربي أيضاً. أما الجانب الآخر مـن الباحة فيحتوي على ليـوان بتصميم يعود إلى مرحلة مبكرة تزينه المداميك الحجرية بالإضافة إلى الغرف التقليدية.

٢٥- بيت فارحي

مـن أضخم البيوت الدمشقية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وهو المنزل الذي استحوذ على إعجاب الليدي (هيستر ستانهوب) وطبيبها عـام ١٨١٢. يضم المنزل أربع باحات لكنـه أمسى بحالة سيئة وتسكنه عـدة عائلات. كما أنه المنـزل الذي صوره السيـر (فريدريك لايتون) لدى زيارته لسورية عام ١٨٧٣ في لوحته الشهيرة «قطف الليمون».

٢٦- بيت دحداح

منـزل جميل له ليـوان مقنطر مشابه لليوان الموجـود في بيت «فارحي» وباحة بديعة المظهر.

٢٧- بيت شمعايا

كان منـزلاً ضخمـاً في السابـق كما هو مبـين في الصور التـي التقطها لـه (بونفيسـ) في سبعينيات القرن التاسع عشر، أمـا الآن فقد أصبح تقريباً كبقايا أثرية من الماضي وتقطنه عدة عائلات.

٢٨- بيت ماري قطاش

منـزل في غاية الجمال لكنه متداع وشبه مهجور وكان مشهوراً بنافذته «المشربية» البارزة على نحو غريب في واجهة المنزل.

٢٩- بيت نظام

قصـر بديع بثلاث باحات كان ملـكاً لأحد أعيان المدينة المعروف باسم (علـي آغا) في منتصف القـرن التاسع عشر. قـام كل من (أديسون) و(بورتـر) بوصف قاعة الاستقبال الموجودة في المنزل والتي يعود تاريخ تزيينها إلى ثلاثينيات القـرن التاسع عشر، أما المنزل نفسه فقد شيّد في القـرن الثامن عشر. أصبح هذا القصر الآن ملكاً للحكومة السورية التـي قامت بترميمه. يمكـن زيارة هذا القصر الـذي يستخدم لإقامة حفلات الاستقبال والزفاف خلال ساعات الدوام الرسمي نهاراً.

٣٠- بيت السباعي

منـزل كبير بباحتـين شيّد في القـرن الثامن عشر ومزيـن بالزخارف الملونـة (النباتـي). تعـود ملكيتـه إلى الحكومـة السوريـة التي قامت بترميمـه، ويحتوي حاليـاً على مجموعة غنائم الصيـد من الحيوانات المحنطـة التابعة لعائلة (إيبش)، ويمكن زيارتـه خلال ساعات الدوام الرسمي نهاراً.

٣١- بيت قاسم

استعمل هذا المنزل كمدرسة لسنوات عديدة ثم رُمم في الآونة الأخيرة ليتحول إلى منزل خاص. يضم في أركانه بحرة فوارة داخلية (فسقية) بديعـة الشكل صنعـت في القرن الثامـن عشر، بالإضافـة إلى سقوف مزينة بالرسوم وأرض ديار جميلة.

٣٢- بيت الطيبي

جوهـرة من جواهر دمشق القديمة له قاعة استقبال في الطابق العلوي – وهـو أمر غير مألوف في البيوت الدمشقيـة التقليدية – مزينة على نحو رائـع بالرسوم والتذهيب، بالإضافـة إلى قاعة استقبال أخرى في الطابـق الأرضي قبالة أرض الديار. كما يحتـوي الطابق الأرضي على كشكـين كنوع من التزيـين البديع، علاوة على مدخـل رائع منحوت في الحجـر (كما هو مبين على غلاف هذا الكتـاب). تشير بعض النقوش الموجـودة في «بيت الطيبي» إلى أن تاريخ تنفيذ أعمال التزيين فيه يعود إلى ١٧٨٦–١٧٨٧ و١٨٢٠.

٣٣- بيت الكزبري

منزل كبير بباحتين (أتى حريق على إحداها). أعيد تصميم المنزل في أواخر القرن التاسع عشر.

٣٤- بيت قباني

كان هـذا المنزل سابقـاً يخص عائلة الشاعر السـوري نزار قباني، ثم جرى «تحديثه» مؤخراً على يد المالكين الجدد، وفيه أرض ديار جميلة.

٣٥- بيت الحفار

منـزل صغير لكن رائع له باحة واحدة جميلـة ومرصوفة بالحجر وبحرة فوارة ويحتوي أيضاً على زخارف ملونة (النباتي) يعود تاريخ صنعها إلى القرن الثامن عشر. أعيد تزيين المنزل في أواخر القرن التاسع عشر.

٣٦- بيت العقاد

قصر بديع مزين بزخارف حجرية من القرن الخامس عشر، بالإضافة إلى غـرف يعود تاريخ تزيينها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. شيّـد هـذا المنـزل الضخم علـى أنقاض مسـرح روماني قـديم وقد استأجرتـه الحكومة الدانمركيـة من الحكومة السوريـة وبذلت جهداً كبيراً في ترميمه ليصبح المعهد الثقافي الدانمركي بدمشق.

٣٧- بيت الأسطواني

منزل جميل جداً مزيـن بزخارف ملونة (النباتي) على واجهات أرض الديـار وله نوافذ غريبة الشـكل بالإضافة إلى رواق مقنطر يعود تاريخ صنعها جميعاً إلى القرن الثامن عشر مع أن بعض الأجزاء فيه صنعت في مرحلة مبكرة قبل ذلك التاريخ. يستعمل هذا المنزل حالياً كمستودع ويضم بعض المكاتب التجارية.

٣٨- بيت مردم بيك

منزل كبير وقديم مازال مشغولاً من قبل العائلة التي بنته بالأصل. كان يضم سابقاً باحتين جميلتين تعرضت إحداها للخراب أثناء الثورة التي اندلعت عام ١٩٢٥، فأزيلـت زخارفها الحجرية وأعيد تركيبها مجدداً في المتحف الوطني.

الطبعة الأولى/٢٠١١

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة